شريف سامي

مختصر تاريخ الصين

منذ عصر الأساطير القديمة
وحتى عهد الهيمنة على العالم

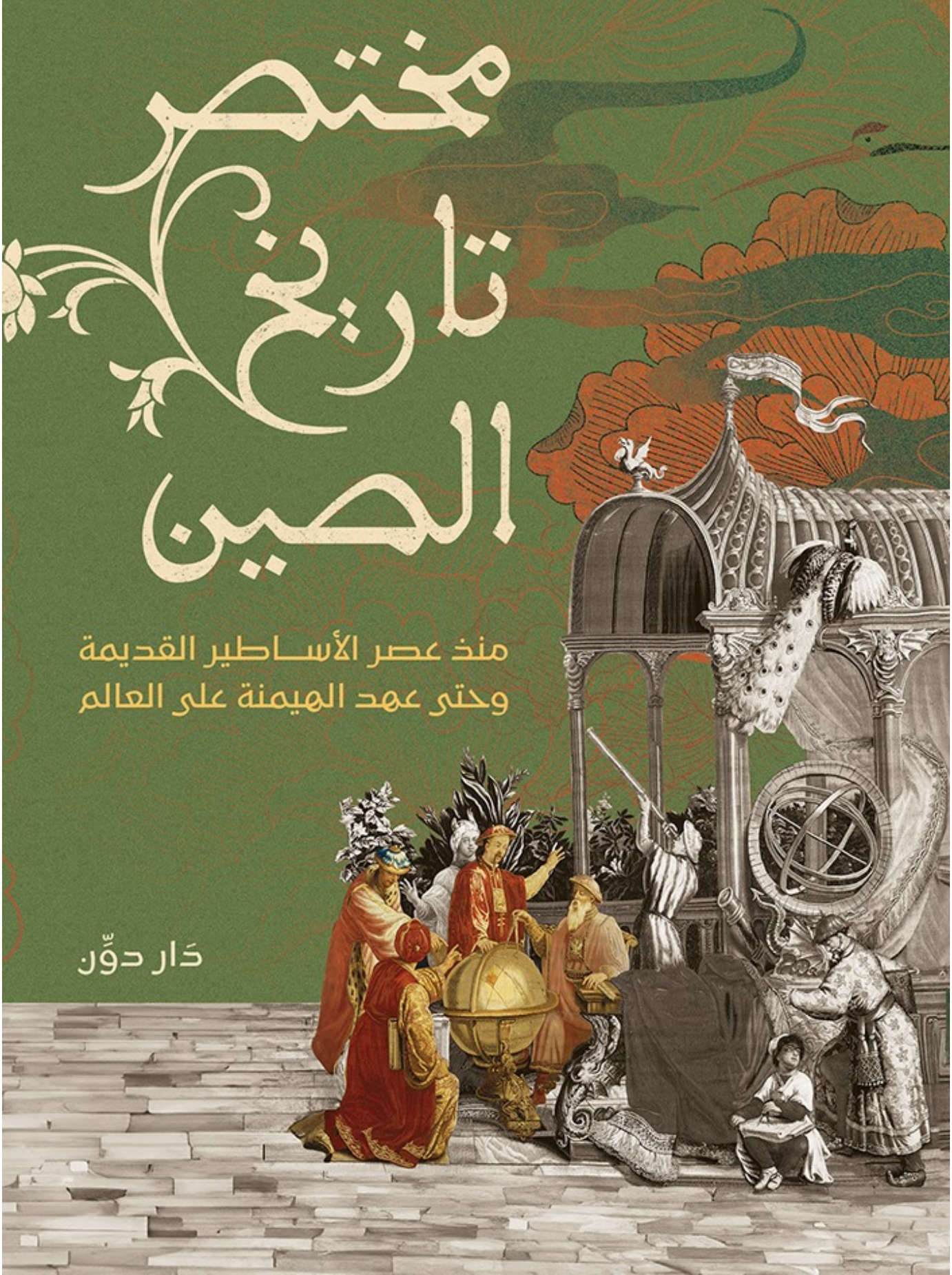

دَار دوِّن

مختصر تاريخ الصين

شريف سامي

مـخـتـصـر

تـاريـخ الـصـين

في هذا الكتاب

إهداء ١١

المقدمة ١٣

المدخل ١٥

الفصل الأول: الصين القديمة ١٩

١ - المجتمع العشائري (العصر الحجري الحديث) ٢١

مهد الحضارة ٢٢

ثقافة النهر الأصفر ٢٢

ثقافة نهر يانغتسي ٢٣

ثقافة نهر لياو ٢٣

المجتمع العشائري الأموسي (الأمومي) ٢٥

المجتمع العشائري الأبوسي (الأبوي) ٢٩

الملوك الثلاثة والأباطرة الخمسة ٣٣

بداية عهد الدولة ٣٥

٢ - مجتمع العبيد (السلالات الحاكمة الأولى) ٣٩

سلالة شيا الحاكمة ٤٠

سلالة شانغ الحاكمة ٤٣

سلالة تشو الغربية الحاكمة ٤٧

٣- نحو مجتمعٍ إقطاعي (فترتي الربيع والخريف - والدويلات المتحاربة) ٥٠

فترة الربيع والخريف ٥١

الثقافة والعلوم ٥٥

فترة الدويلات المتحاربة ٥٧

الثقافة والعلوم ٦٠

نهاية فترتي الربيع والخريف والدُّويلات المتحاربة ٦٣

الفصل الثاني: الصين الإمبراطورية المُبكرة ٦٥

١ - أول مجتمع إقطاعي كبير (توحيد الصين) ٦٧

سلالة تشين الحاكمة ٦٨

الثقافة والعلوم ٧٢

انتفاضة تشن شنغ - وو قوانغ ٧٤

حرب الفلاحين الأولى في تاريخ الصين ٧٥

الانهيار ونهاية الحكم ٧٧
٢- الإمبراطورية المتقدمة (العصر الذهبي الأول) ٧٨
سلالة الهان الغربية الحاكمة ٧٩
الثقافة والعلوم ٨٦
وصول البوذية ٨٧
الانهيار ونهاية الحكم ٨٨
سلالة شين القصيرة ٩١
سلالة الهان الشرقية الحاكمة ٩٤
الثقافة والعلوم ٩٦
الانهيار ونهاية الحكم ٩٧
حرب أصحاب الأوشحة الصفراء ٩٨
المُضي نحو تفكيك الحكم الإمبراطوري ١٠١
قيام الأسر: «وي - شو - وو» ١٠٢
٣- التفكك من جديد (عهد الأسر المتعددة) ١٠٤
الممالك الثلاث ١٠٥
سلالة جين الغربية ١٠٧
انتفاضة البرابرة الخمسة ١٠٨
سلالة جين الشرقية ١١٠
الدويلات الستة عشر ١١١
حكم الأسر الشمالية والجنوبية ١١٣
الأسر الجنوبية ١١٣
الأسر الشمالية ١١٤
انتشار البوذية ١١٧
الثقافة والعلوم في هذه الأحداث المتسارعة ١١٨
الانهيار ونهاية حكم الأسر ١٢١
الفصل الثالث: الصين الإمبراطورية الوسطى ١٢٣
١ - التوحيد من جديد (عودة الإمبراطورية) ١٢٥
سلالة سوي الحاكمة ١٢٦
الثقافة والعلوم ١٢٩
الانهيار ونهاية الحكم ١٣٠
٢ - تاريخ استثنائي (العصر الذهبي الثاني) ١٣٢

سلالة تانغ الحاكمة ١٣٣
وصول الإسلام للصين ١٤٢
وصول المسيحية للصين ١٤٣
الثقافة والعلوم ١٤٥
الانهيار ونهاية الحكم ١٤٧
تمرد آن - شي ١٤٩
أول سلطة للفلاحين بالصين ١٥٢
ظهور الأسر الخمس والدويلات العشر ١٥٤
الفصل الرابع: الصين الإمبراطورية المتأخرة ١٥٥
١ - التنافس على حكم الصين (صراع سونغ مع القوى المسيطرة) ١٥٧
سلالة سونغ الشمالية الحاكمة ١٥٨
انتفاضة الفلاحين وحلم قيام «شو الكبرى» ١٦١
إصلاحات وانغ آن شي ١٦٢
إلغاء إصلاحات وانغ آن شي ١٦٤
تحدي مملكة لياو ١٦٥
التحالف على حافة تشانتشو ١٦٧
تحدي مملكة شيا الغربية ١٦٨
تحدي مملكة جين ١٧٠
نهاية سونغ الشمالية على يدِ جين ١٧٣
انتفاضة الفلاحين بقيادة: فنغ لا - سونغ جنانغ ١٧٣
الانهيار ونهاية الحكم ١٧٤
سلالة سونغ الجنوبية ١٧٦
حلم عودة سلطة الفلاحين في «شو الكبرى» ١٧٧
خضوع سونغ الجنوبية لنفوذ جين ١٧٨
الاقتصاد والعلوم في عموم سلالة سونغ ١٧٩
جدل حول وصول اليهودية ١٨٣
الانهيار ونهاية الحكم ١٨٥
قيام المغول ١٨٥
٢ - أول سلالة إمبراطورية غير هانية (الغزو المغولي للصين) ١٨٨
سلالة يوان الحاكمة ١٨٩
الثقافة والعلوم ١٩٢

الانهيار ونهاية الحكم ١٩٦
جيش أصحاب الأوشحة الحمراء ١٩٩
٣ - إقطاعية ورأسمالية وبرجوازية في عصر واحد (مينغ العظمى أمام التحديات الأعظم) ٢٠٢
سلالة مينغ الحاكمة ٢٠٣
الرأسمالية الأولى ٢٠٧
الحرب اليابانية - الكورية الصينية ٢٠٨
الإسلام والمسيحية واليهودية في عهد مينغ ٢١٠
الثقافة والعلوم ٢١٢
رأسمالية وبرجوازية وإقطاعية معًا ٢١٥
الانهيار ونهاية الحكم ٢١٨
ثورة الفلاحين بقيادة: لي - قاو - تشانغ ٢١٩
قيام مانتشو ٢٢١
تأسيس سلطة الفلاحين ٢٢٣
سقوط سلطة الفلاحين ٢٢٤
نيران الاستعمار ٢٢٦
القضاء على مينغ الجنوبية ٢٢٧
٤ - إمبراطورية متعددة القوميات (ثاني أسرة غزو في تاريخ الصين) ٢٢٩
سلالة تشينغ الحاكمة ٢٣٠
اتفاقية نيبو تشو لوقف المستعمر الروسي ٢٣٢
إصلاحات كانغ تشي ٢٣٣
خيارات الدمج أو الإبادة ٢٣٤
الإقطاعية في محاربة الرأسمالية ٢٣٨
انتصار الفساد الإقطاعي ٢٣٩
النضال ضد الفساد ٢٤٠
ثورة اللوتس الأبيض ٢٤٠
قرن الإذلال الصيني ٢٤٢
حروب الأفيون ٢٤٢
تمرد تايبينغ ٢٤٦
تمرُّد نيان ٢٤٧
حرب بونتي - هاكا ٢٤٨

ثورة تونغزي هوي ٢٤٨
تمرد بانثاي ٢٤٩
استعادة تونغزي والإنقاذ من السقوط ٢٥١
الحرب الصينية - اليابانية الأولى ٢٥٢
ثورة الملاكمين وتحالف الدول الثماني ضدَّ الصين ٢٥٣
الثقافة والعلوم في ظل الأحداث المتسارعة ٢٥٦
النهاية والتمهيد لإعلان الجمهورية ٢٥٩
انتفاضة ووتشانغ ٢٥٩
ثورة شينهاي ٢٦٠
الفصل الخامس: الصين الحديثة ٢٦٣
١- العصر الجمهوري المُبكر (الصراعات والحروب الأهلية) ٢٦٥
جمهورية الصين ٢٦٦
عصر أمراء الحروب الأهلية ٢٦٧
حكومة نانجينغ القومية ٢٦٩
الحرب الصينية - اليابانية الثانية ٢٧١
الحرب العالمية الثانية ٢٧٤
الحرب الأهلية بين الشيوعيين والقومين ٢٧٦
٢ - الصين الشيوعية (النظام الأخير والحالي للصين) ٢٧٩
جمهورية الصين الشعبية ٢٨٠
القفزة العظيمة إلى الأمام ٢٨٠
الثورة الثقافية ٢٨١
من الاقتصاد المُخطط إلى الاقتصاد المُختلط ٢٨٣
حادث ميدان تيانانمين ٢٨٤
مرحلة ما بعد تيانانمين ٢٨٥
التوتر بين الصين وتايوان ٢٨٧
٣ - الصين الحالية (الصين على مشارف ٢٠٢٤) ٢٩٠
صين ٢٠٢٣ ٢٩١
التسمية ٢٩١
المساحة ٢٩٣
حدود استثنائية ٢٩٤
تضاريس الصين ٢٩٥

الحيوانات والنباتات النادرة ٣٠٣
الصين داخليًا ٣٠٣
الصين دوليًّا ٣٠٥
المراجع والمصادر ٣٠٨

إهداء

«إلى الكادِحينَ في كلّ مكانٍ...
الذين بكَلالِهم يبنونَ الأوطانَ»

لا شكَّ في أن تجربة حياة الإنسان على الأرض تُعتبر رحلةً سخية مكتظة بالأحداث، ففي كل يوم مر من ملايين الأيام السالفة، شَهِدت كل رقعة حَيِي فيها الإنسان تجربة مبتكرة، أو أمنية جديدة، أو عمل مُستحدَث، سواء كان في كلا النَّجدَين مسلك الخير أو درب الشرِّ، وكما كان للقادة والعلماء والمؤثِّرين دورٌ بارزٌ في تطور الحياة البشرية، كان الدور الأهم لجهود الشعوب المُضنية، فبسَواعِدِهم كانت تُنفذ غالبية الأفكار، فإذا تأملنا عجائب الدنيا السبع وتمعّنا في هندستها وتطورها بالنسبة لزمانها؛ لوجدناها حتمًا من الأعمال المُذهلة، وكأنَّ مَن قام بهندستها أناس قَدِموا من السماء، ولا جدال في براعتهم، لكن ما الجدوَى من هذه الهندسة إذا لم يحملها أُناس كادِحون فوق أكتافِهم؛ ينشدون بألسنتهم مع كل حجر أنشودة أو أُغنية تُمَنِّيهم بحياة أفضلَ، لا تخلو من تمجيد حُكامهم سواء بالحب أو بالإجبار، أو يأنّون بصَرخاتهم سرًّا تحت ضرَبات السوط؛ أغنيات مكنونة تشكو غِلظة الجلَّاد، أو يرحلون إلى بارئهم تاركين الوعود التي لم يقترفوها؛ ليُوَرِّثوا حصاد المجد لأجيال لم يروها..

هكذا بُنيت غالبية الأمجاد، على كَتِف الكادحين والمناكِيدِ.

تعتبرُ الصين بحضارتها القديمة، عالمًا صغيرًا من عوالم الإنسان القديمة المتميزة، لكنها إلى حدٍّ كبير رمز مُصغَّر لعالمنا الكبير؛ العالم الذي اتَّسم بالتناقضات والتعقيدات، فتاريخ الصين أعظم مثالٍ تدرسه عن دنيا التغييرات والتقلُّبات، ماعدا شيئًا واحدًا كان مُسيطرًا على غالبية تاريخ حضارتها القديم والحديث، «دماء الكادحين»، على سبيل المثال، مع تغيير السياسات والنظم الإدارية والاقتصادية في حضارة الصين القديمة والوسطى؛ من حياة اشتراكية عشائرية إلى إقطاعية إلى رأسمالية... إلخ، اتفقت كل النُّهُج على معاناة العامة الشديدة، ففي حضارتهم القديمة كثيرٌ ما تجِد الشخص الواحد «فلاحًا وقِنًّا ومُسخَّرا ومُحاربًا» في آنٍ واحدٍ؛ لذا فإن الحضارة الصينية العظيمة كان العاملُ الأول في قيامها هو «الشعب» ثم ضع بعدَه أي أسماءٍ أو ألقابٍ تريد، هذا الشعب الذي حلم بحياة أفضل منذ أكثر من أربعة آلاف عام، كانوا مليئين بعشرات الثورات والانتفاضات، وكذلك الأمجاد؛ لذلك ستكون رحلتنا مَفادها دراسة أحوال الصين شعبًا وقيادة وعلماء ومؤثرين، منذ بداية حياة الإنسان على أرضهم وحتى قيام جمهوريتهم، والصراع القومي الشيوعي، والمزاعم حول تايوان، وغيرها من الأحداث التي مرَّت على أراضي الصين التاريخية، مع تعقُّب التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية منذ حياتهم الأولى؛ وحتى الآن؛ مع ذِكْر كافة الأحداث التي حدَثت حتى نهاية ٢٠٢٣ م؛ ودراسة التغيرات التي مرت على حياة الإنسان والوطن الصيني عبر مئات السنين، مع الوصول للصين الحالي، ودراسة أحواله من الداخل ومن الخارج؛ لذلك، رحلتنا لا تُعتبر مجرَّد سردٍ تاريخيٍ مُركَّزٍ على الأحداث السياسية؛ وتتبع الملوك والأباطرة والرؤساء فقط، لكن سنسمع معًا أصوات الكادِحينَ والعَبيد،

ونقرأ أفكار الفلاسفة والمفكّرين، ونُشاهد العلوم والعمارة والفن من بين أسطر الكلمات.. والله الموفِّق.

شريف)سامي

* * *

بمجرد بداية خوضك لهذه الرحلة؛ فأنت في صدَد معرفة تاريخ ما يُعادل أكثر من سُدُس سكان العالم؛ فالصين تَعْدادها أكثر من ١٧.٥٪ من سكان العالم؛ نسبةً للإحصائية السكانية التقديرية لعام ٢٠٢٣ م (سكان الصين: ١,٤١١,٧٥٠,٠٠٠ - سكان العالم: ٨,٠٤٥,٣١١,٤٤).

الصين هي ثاني أكبر دولة في العالم من حيث عدد السكان، وهذه الدولة الفريدة الواقعة على الساحل الغربي للمحيط الهادئ في شرقي آسيا، تمتد على ما يعادل خمس مناطق زمنية، فإذا كنت مسافرًا عبْر مناطقها المختلفة؛ ربما يتطلب الأمر منك تغير التوقيت، وتتميز هذه الدولة بأنها تتشارك الحدود مع أربع عشر دولة برِّيًّا، (أهمهم روسيا)؛ لأنهما يتشاركان في أكبر مساحة حدودية من أي دولة أخرى في العالم، وتنقسم البلاد إلى ٢٢ مقاطعة؛ خمس مناطق ذاتية الحُكم، وأربع بلديات، ومنطقتين إداريتين خاصتين تتمتعان بحُكم شبه ذاتي، العاصمة الوطنية للصين هي «بكين»، والمدينة الأكثر اكتظاظًا بالسكان وأكبر مركز مالي هي: «شنغهاي»، وبهذا الشكل تبدو الصين وكأنها عالم مصغَّر داخل عالمنا الفسيح؛ كِيان ضخم على أرض مميزة ومتنوعة اسمها بلاد «الصين»، وفي الفصل الأخير من هذا الكتاب ستجد كل ما يتعلق بالصين الحالية من تسمية، وجغرافيا طبيعية، وبشرية، وغيرهم من التفاصيل الشاملة والكاملة لدراسة أحوال هذا البلد العريق، لكن أنهارها ستكون رفيقتنا منذ بداية هذه الرحلة نظرًا لعددها الهائل.

فلا جدالَ في أن الحضارة تَنبُت من المِياه، وإذا توغَّلنا في التاريخ الإنساني للصين فسنكتشف أن تاريخَهم من تاريخ الماء على يابستهم، مثلهم مثل الحضارات العظيمة التي وثَبت في العراق ومصر منذ سالف الزمان، والحضارات القديمة هي أكبر مَثَلٍ لسعي الإنسان بإرادته القوية إلى توظيف العناصر الطبيعية لتمكينه من الاستقرار؛ وعلى رأس هذه الظروف يتواجد الماء، فنشوء الحضارات مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالموارد المائية.

في الصين تتغير المعادلة قليلًا، فكما كانت المياه هي عصب الحياة؛ كانت كذلك سببًا للهلاك في الكثير من الأوقات، ويشهَدُ على ذلك التقلُّب ٥٠ ألف نهر في الصين؛ تتجاوز مساحات مجاريها ١٠٠ كم²، و١٥٠٠ نهر تتجاوز مساحات مجاريها ١٠٠٠ كم²، جميعها شاركت في تسطير صفحات التاريخ الصيني الطويل، ولعل من أبرزها وأعرقها: النهر الأصفر - ونهر يانغتسي، المراقبان لأحوال هذا البلد آلاف السنين.

يربِض النهر الأصفر إلى اليوم شامخًا؛ ينظر إلى النهر المقابل له يانغتسي، والمتشابه معه في ثناياه واحتضانه لأقدم وأعرق مستَقر عرفه تاريخ الصين منذ زمانه العتيق، يتجادل النهران حول أيهما مَهْد الحضارة الصينية، فيتفاخر يانغتسي بأنه أطول نهر في الصين، بل في آسيا جمعاء، وأنه الثالث عالميًّا من حيث الطول بعد نهر النيل بإفريقيا؛ ونهر الأمازون بأمريكا الجنوبية؛ حيث يبلغ طوله ٦,٣٠٠ كم، ويستمر يانغتسي في تباهيه لأنه مولود من أعلى ارتفاع في منطقة التبت

التاريخية؛ التي عرفت الحياة البشرية قبل أكثر من ٢٠,٠٠٠ عام، وتحديدًا من جبال تونجولا من فوق ارتفاع ٦٦٠٠ متر، ويأَجّ الماء متباهيًا بين الجبال المنيفة والوديان الغائرة قبل أن يصب في بحر الصين، فهو الرابط بين شرق البلاد وغربها، وبكل وضوح هو «الممر المائي الذهبي»؛ لا سيما لأنه يتفرع منه نحو ٧٠٠ رافدٍ، ويحتضن الأراضي الأكثر خصوبة في البلاد(1)

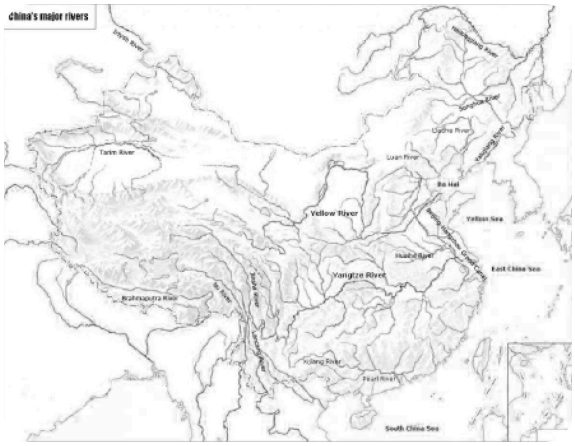

خريطة الأنهار الرئيسية للصين، ويظهر فيها النهر الأصفر ونهر يانغتسي وكأنهما ينظران لبعضهما.

أما النهر الأصفر فبرغم أن ترتيبه الثاني من حيث الطول بعد نهر يانغتسي في نطاق الصين، وترتيبه متأخر عالميًّا كسادس أطول أنهار العالم؛ حيث بلغ طوله حوالي ٥,٤٦٤ كم؛ تجادل متباهيًا أنه ينبع من جبال بيان هار في مقاطعة تشينغهاي غرب الصين، تلك المنطقة التي كانت موطنًا لعرق تشيانغ منذ العصر البرونزي (قرابة ٣٣٠٠ - ١٢٠٠ ق.م) وهي ساحة المعارك الباسلة التي قاومت القبائل التبتية المتعاقبة خلال عهود السلالات الصينية اللاحقة(2)

النهر الأصفر يشُقُّ تسعَ مُقاطعاتٍ حتى يصل إلى بحر بوهاي بالقرب من مدينة دونغ ينغ في مقاطعة شاندونغ، في بدايته يبدو أنه يتجه شمالًا منحنيًا ناحية الشرق، لكن فجأةً ينعَدِل مساره شماله مجددًا؛ ليقومَ برسم قوسٍ كبيرٍ ناحية منطقة منغوليا؛ ومن الطرف الشرقي لهذا القوس يتجه نحو الشمال الشرقي ليَصُب في خليجِ بوهاي(3)

حسَم النهرُ الأصفر الجدالَ، وأثبَت أن القسمَ الأوسط من حوضِه قد شهِد أقدم الحضارات البشرية في الصين بين عامي ١٢٠٠٠ و ١٠٠٠٠ ق.م، فإن كانت الحياة البشرية ظهرت حول نهر يانغتسي قبله بفترة؛ فلا سيما أن الحضارة والعُمران هما الأهم، وهما مِقياس الحياة البشرية أكثر من وجود الإنسان نفسه، وهذا النهر العتيق والذي غيَّر مجراه خلال الثلاثة آلاف سنة الماضية ٢٦ مرة، شهد أول ظهور للحضارة الصينية لأفراد عرفوا الزراعة منذ الألفية السابعة قبل الميلاد، وهم النواة الفاتحة لباكورة أولى الممالك الصينية، ومنذ ذلك الزمان بقي النهر الأصفر عصَب الحياة الزراعية والصناعية في الصين(4) بالتوازي مع يانغتسي وباقي الأنهار.

يتماثلُ النهرُ الأصفرُ مع نهر النيل بشكلٍ كبير في أصالته، وكذلك في وُصُوفِه؛ فقد تشابه

النهران بكثرةِ الفيضانات الهالِكة، واقتلاع الأشجار وتدمير المجتمعات وابتلاع الحياة الإنسانية، فقد عانت الصين كثيرًا من تقلُّبات الطبيعية؛ وخاصة من هذا النهر ذي الشخصية الفريدة، وقد شهدت الصين أعنف الفيضانات وأكثرها تدميرًا عبر التاريخ، ففي تاريخها القديم انتحبَت الصينُ بموت الملايين، وتصدّعت سدودها وفاضت المياه أكثر من ١٥٠٠ مرة، وبرغم ذلك يجري النهر الأصفر شامخًا شاهدًا على حياة الإنسان الصيني الأول.

* * *

الفصل الأول

الصين القديمة

١ ـ المجتمع العشائري

(العصر الحجري الحديث)

يعودُ تاريخُ الصين (المكتوب والمدوّن) لما يُقارب ٤ آلاف سنة، حينما ظهرت الحضارة الصينية الكلاسيكية في الصين لأول مرةٍ على ِضفاف وادي النهر الأصفر، وهو أحدُ أضلاع المثلث الثلاثة للنواة الجغرافية للصين؛ بجانب وادي يانغتسي ووادي اللؤلؤ، ويمثِّل النهرُ الأصفرُ الجزءَ الأكبرَ من تاريخها الإمبراطوري، أما عن تاريخها الحضاري (غير المدون) يتكهَّن العُلماء الصينيون أن عمره أكثر من ذلك بكثير، نظرًا لما تم اكتشافه في موقعي خمودو بمقاطعة تشجيانغ، وبانبوه بمقاطعة شنشي؛ من بقايا أثريَّة لأرز وحبوب دُخنٍ(أ) وأدوات زراعية، علاوة على آثارٍ برونزية عُمرها أكثر من خمسة آلاف سنة(5)

* * *

مهد الحضارة

يعكس عدمُ الإجماعِ على تاريخٍ محدَّد لبداية الحضارة الصينية مدَى تَعقيد الحضارة الصينية القديمة بالمقارنة بالحضارات الأخرى، فالسبب في عدم الاعتراف بثقافاتها القديمة؛ وأن حساباتها التاريخية عُدّت كالرابعة من حيث القِدَم، وأنها محسوبة منذ الألفية الثانية قبل الميلاد، أن هذه المجتمعات الحضارية كانت عبارة عن ثقافات متناثرة غير موحدة وغير مكتملة؛ ولهذا السبب لا يرى العلماء المعاصرون أصول الحضارة الصينية كتاريخ متصلٍ أو قصة خطية، لكنهم حدَّدوها طِبقًا لتاريخ تفاعلات الثقافات والمجموعات العِرْقية المختلفة والمتميزة؛ التي أثّرت على تطور بعضها البعض(6) .

ولكن برغم كل ذلك فلن نبدأ سَرْدنا لتاريخها المكتوب المدوَّن، قبل أن نأخذَ فكرة مختصرة عن هذه الثقافات، فلا شكَّ أنها هي نواة الحضارة، لنسافر سويًّا إلى ألوف السنين، حيث تبعد كثيرًا عن تاريخها الموحَّد.

ثقافة النهر الأصفر

عرف الإنسان الصيني الأول الزراعةَ في سهل فيضان النهر الأصفر قبل عام ٦٥٠٠ أو ٦٠٠٠ ق.م، وبعدَما استنبط طبيعة الفيضانات والسيطرة عليها؛ ومن ثَم ري الأراضي الزراعية، ظهرت المدن والحياة المجتمعية، ورويدًا تَمَّ تطوير المدن وتعززت السلطة السياسية، لتتكوَّن أول نواة لرابع حضارات العالم بعد بلاد الرافدين ومصر والهند(7)

ثقافة النهر الأصفر غالبًا ما يتم تضمِينها في الكُتب المدرسية لتاريخ شرق آسيا، كالنواة الأولى لحضارة الصين العملاقة، لكن فكرةَ إدراج ثقافة النهر الأصفر فقط كواحدة من أكبر أربع

حضارات عريقة أصبحت فكرة قديمة؛ نتيجة لاكتشاف ثقافات مُبكرة أخرى في الصين، ويتجادل العلماء في أنها ظهرت بنفس الوقت تقريبًا أو بعدها بقليل، كثقافتي نهري يانغتسي ولياو، وقد شهدت المِنطقة ثقافتي يانغشاو ولونغشان في العصر الحجري الحديث، وتطوَّرت إلى ثقافة الأواني البرونزية في أسرتي شانغ وتشو، وملخصًا لما ذُكر: أنه كان قديمًا يتم تصنيف ثقافة النهر الأصفر دون شَريكٍ كأقدَمِ نواة لحضارة الصين؛ لكن فيما بعدُ ظهر لها شركاء جُدد، وهم يانغتسي ولياو(8)

ثقافة نهر يانغتسي

هي الثقافة الأم العامة والشاملة للعديد من ثقافات العصر الحجري الحديث والعصر البرونزي القديم من حوض يانغتسي في الصين، وهناك مقترحات بأنَّ تاريخها يعود لقبل عام ٦٥٠٠ ق.م تقريبًا، وبعض العلماء يجادلون أنها أقدم من ثقافة النهر الأصفر، أو متوازية معها كما ذكرنا(9)

ثقافة نهر لياو

هي الثقافة التي سميت على اسم نهر لياو، وقد نشأت في حوض لياو، ويقترح العلماء أنها تشكَّلت في حوالي ٦٢٠٠ ق.م، ويُجادل بعض العلماء أيضًا أنها ربما تكون متوازية مع ثقافة النهر الأصفر، وثقافة يانغتسي؛ لذلك يُعتقد أنها أثَّرت على الثقافة الصينية القديمة مثلهما(10)

هذه الثقافات الثلاثة ببساطة؛ عبارة عن ثقافات مثَّلت النواة الجغرافية للصين، والنواة التاريخية لحضارة شعب الصين، برغم أن الحياة البشرية قد ظهرت قبلهم بكثير، فليس هناك شك في أن الصين قد شَهِدت الحياة قبل نهضة هذه الثقافات، حيث يرجع تاريخ الأدلة المبكرة على زراعة الدُّخن الصيني إلى حوالي ٧٠٠٠ ق.م(11) ، بعد العثور على أقدم دليل على الأرز المزروع الذي يعود تاريخه إلى قبل عام ٦٥٠٠ ق.م، في تشنغتوشان بالقرب من نهر يانغتسي، كما يُعتقد أن تشنغتوشان نفسها هي أول مدينةٍ مسورة في الصين(12) ، أما ثقافات الأنهار الثلاثة السالف ذكرها، تاريخيًّا فهي أولى الأماكن التي شهِدت التحضُّر.

عندما بدأت ثورة العصر الحجري الحديث في الصين، ازدهر وادي النهر الأصفر وأصبح عاصمةً لثقافة بيليغانغ، التي ازدهرت من ٧٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ ق.م، والتي عرفت الزراعة والبناء وصناعة الفخار ودفن الموتى(13) ، وعندما وفَّر الإنسان الصيني قُوت يومِه بسبب الزراعة زاد عدد السكان، وتدريجيًّا أصبح قادرًا على تخزين وإعادة توزيع المحاصيل، ومع تطور نمط الحياة ظهر المتخصصون والحرفيون وعرف الناس الإدارات، ثم تطورت الحياة بعدها حتى ظهرت أول أشكال الكتابة البدائية متمثلة في رموز جياهو (٦٦٠٠ ق.م)، التي اعتبرها العلماء أقدم أشكال الكتابة الأولية في الصين، برغم أنها لم تكن كتابة بالمفهوم الأمثل، لكنها ببساطة كانت أولى السِّمات لفترة طويلة من استخدام الإشارة، والتي أدت في النهاية إلى نظام كتابة كامل في العصور اللاحقة(14) .

وفي هذه الأزمنة عاش الأفراد في عشائر مشتركة مكّنتهم من التغلّب على الصراعات الفردية مع مصاعب الحياة على الأرض.

* * *

المجتمع العشائري الأموسي (الأمومي)

مع تطور أسلوب الحياة تغيَّر التنظيم الاجتماعي للإنسان الصيني، فتحوَّلت القطعان البدائية التي تعيش بشكلٍ عشوائي إلى ما يُسمَّى «المُشترك العشائري القائم»، الذي كان يحتوي على أُخوّة الدم، وكان الشكل الأول لهذا المشترك أموميًّا، أو النظام الأموني (الأموسي)، وفيه يكون السلطة للمرأة الأم الكبرى، فالأبناء كانوا يُنسَبون إلى الأم، ومن أحكامه يرث مَن هم في فرع الأم في سلسلة النسب، وكان الزوج يعيش وسط عشيرة أمه(15)، وقد استمر هذا النَّهج لمئات السنين، ومن أشهر الأمثلة الصينية لهذه المشتركات؛ العشيرة الأمومية التي شملت هيلونغجيانغ شمالًا، وشينجيانغ في الشمال الغربي، ويوننان والتِّبت في الجنوب الغربي، وتايوان جنوبًا، وفي هذه المشتركات غالبًا ما تجِد للمرأة مكانة قيادية في الأمور الحياتية.

من أشهر العشائر التي شهدت ذِروة المُشترك العشائري الأمومي، هي «عشيرة بانبوه»؛ التي كانت قائمة في إقليم شنشي في حوض النهر الأصفر، وكذلك «عشيرة خمدو» التي تشابهت معها بشكل كبير جدًّا، وكلتاهما عاشتا قبلُ مِن ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ عام.

كانت الأم الكبيرة هي سيدة القرار، ولكن في الوقت نفسه لا تملك سُلطة آمِرة، فدائمًا ما كان قرارها يسبقه شورى بين كل الأفراد، وتحت إدارتها قامت الأنشطة والحِرَف؛ التي استُخدِم فيها الإبرة والستارة والمخرز والكلاب المصنوعة من العظام والقرون، والفأس والرفش والسكين الحجري المصقول، كما تم اكتشاف سهام ذات نصل من الحجر أو العظام استخدموها في الصيد.

في هذه العشائر انتبهت المرأة لنمو النبات من البذور المتساقطة على الأرض، فتعلَّمت كيف ينبت الزرع، ومن المحاصيل التي زرعت في هذه العشائر نبات الذرة، حيث أصبح الصين أول بلد يزرع الذرة في العالم القديم، وعلى يدها تقدَّمت وسائل الصيد؛ وعرف المجتمع الصيد وتربية الماشية والتدجين، فانتشرت تربية الخنزير والكلب والبقر والغنم والدجاج، كما ظهر لأول مرة إنتاج الفخار واستخدامه كوعاء وإناء، وبرزت المحاولات الأولى للزخرفة، حيث تمّ العثور على فخار منقوش عليه صور لوجه الإنسان وللأسماك والزهور، وظهَر في هذه العشائر محاولات أولية للكتابة؛ متمثِّلة في علامات شبه كتابية من ٢٠ أو ٣٠ نمطًا، وُجِدت مخطوطة على أوعيةٍ فخارية.

وفي هذه العشائر عرَف الإنسان البيوت التي بُنيت على شكل أكواخٍ خشبية مستديرة وأخرى مستطيلة بلا نوافذَ، تبلغ مساحة الكوخ حوالي ١٠ أمتار، وحول التجمع السكني خندق عرضه ٦ أمتار؛ وعُمقه ٦ أمتار، حُفر خِصيصًا من أجل الحماية من الحيوانات المفترسة، وكانت أبواب الأكواخ دائمًا ما تكون ناحية الجنوب، وسبب إطلالة الأبواب تجنب الرياح الباردة التي كانت دائمًا تهب من ناحية الشمال، وفي أوسط كل تجمع سكني بُني مبنًى كبيرًا من أجل التجمُّع والسمر والنشاط الاجتماعي، أما المقبرة الجماعية فكانت موجودة خلف الخندق(16) .

وطبقًا لقانون العشيرة الأمومية المشتركة؛ الأراضي والبيوت والمواشي جميعها ممتلكات عامة، ومن ثَم يتقاسم الجميع المهام، أما الناتج فكان مشتركًا بالتساوي، وفي هذه الحياة الاشتراكية لم يوجد غني أو فقير، ولم يظهر أي شكل من أشكال التمييز؛ حتى في الشعائر الجنائزية.

وفي ظل هذا النظام القائم ازدهرت ثقافة يانغشاو، وهي الثقافة التي بدأ عمرها:(من ٥٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ ق.م)، والتي اتسمت بالتطور المحدود عن الأسلاف، حيث تطورت أدواتهم الحجرية المصقولة وأصبحت دقيقة ومتخصِّصة وأكثر حِرَفية، كما عرفوا تربية دُود القَزِّ، وكان طعامهم الرئيسي نبات الدُّخن في المقام الأول؛ يليه الأرز، وعلى سبيل المثال، كانت مستوطنات يانغشاو الوسطى -جيانغزي- تحتوي على مبانٍ ذات أرضيات مرتفعة، ربما تمَّ استخدامها لتخزين الحبوب الفائضة، كما تمَّ العثور على حجارة طحنٍ لصُنع الدقيق(17) .

موقع)انطلاق)ثقافة)يانغشاو،)تحديدًا)من)بابنبوه)شمال)الصين.

كانت الطبيعة الدقيقة للزراعة في يانغشاو هي القطع والحرق على نطاقٍ صغير، وبمجرَّد استنفاد التربة، يُقرِّر السكان التَّرحال والانتقال إلى أراضٍ جديدة، وبالتالي بناء قرًى أخرى(18) .

في بدايتها توسَّع عدد السكان بشكل كبيرٍ، وازدهرت هذه الثقافة فيما أصبح الآن وسط الصين (مقاطعات خنان وشانشي وشنشي)، وعرَف شعبها الزراعة بعد أن طوَّروها وأنتجوا العديد من المحاصيل الزراعية، وتم الاعتماد بشكلٍ أكبر على نباتات أخرى غير الدُّخن، فقاموا بزراعة الخضراوات (معظمها من الخضراوات الجذرية)، وعرَفوا التدجين وتربية الماشية، بعد أن زاد بشكلٍ كبير مفهومُ التربية الحيوانية، واعتمدوا على مصادر غذائية جديدة كالصيد والجمع، خاصةً بعد تطورهم في صناعة واستخدام الأدوات الحجرية المُتطورة بدقةٍ (لعل أبرزها السهام والسكاكين والفئوس)، كما استخدموا الأدوات الحجرية (مثل الأزاميل في أعمالهم الزراعية)، وقد اهتموا بأدوات العظام المعقد(19) .

تطوَّرت أساليب المعيشة في مجتمع يانغشاو الأمومي؛ فتعدّدت المنازل والأكواخ، التي كان أسلوب بنائها، حفر حُفرة أولًا، ثم غرس الأعمدة الخشبية التي تُكون الجدران ثانيًا، ليليهما

التعريش بالسقوف المغطاة بالطين وسقوف الدُّخن بالقش، وكان كل ٥ أشخاص تقريبًا يعيشون في منزلٍ، وخارج المنازل فناء مُتسع، كان هو الساحة المركزية في القرية، وكان في محيط القرية انبعاج يؤدي في النهاية إلى مقبرة جماعية، ولكن قبلها يقبع الفرن العمومي لصناعة الفخار، الذي خرج منه أشكال متنوعة ومميزة، بما في ذلك الجرار والأحواض، بالإضافة إلى الحاويات ثلاثية القوائم؛ وزجاجات من مختلف الأشكال والجرار، وغالبيتهم كان يتم تزينهم بأغطية تشبه الحيوانات، وقد صُنع في هذا الفرن تصميمات زخرفية دينية معقدة؛ اتخذ بعضهم شكل القوارب، وفي النهاية كانت اللمسات الأخيرة للألوان غالبًا ما تكون بألوان تُرابية، على عكس ثقافات الفخار الحديثة، على سبيل المثال، واحدة من القِطع الأكثر شُهرة، عبارة عن حوض رائع مطلي بتصميم شبيه بالسَّمك ووجه بشَري، وكان يتم استخدامه في الأصل ككائنٍ دفن، كما أن هؤلاء السكان كانوا يدفنون أطفالهم في كثير من الأحيان في أوعية فخارية.

على الرغم من زيادة تعداد القبيلة بعد انضمام العشائر المتجاورة لم يطرأ أي تغيير على بنيتها الاجتماعية، وأصبحت كبيرة القبيلة هي الأخرى يتم تعيينها بنفس قانون العشائر؛ وكما الحال في العشيرة كانت كبيرةُ القبيلة منزوعةً للامتيازات التفضيلية(20) .

كان الناس في هذا المجتمع يرتدون غالبًا الملابس المُستخدمة من ألياف نبات القَنّب تارة، وتطور شكل اللباس حتى ظهرت تصاميم على شكل عباءات ومآزر ينسجونها بأنفسهم، وتارةً أخرى من الحرير الذي أنتجه دود القَزِّ، والذي ظهر في نهايات هذه الثقافة، بعدما ظهرت الطبقية نوعًا ما، حيث أصبح للرجال دور بارز، فتغيَّر على أيديهم نمط الحياة العشائرية، لتتحوّل الحياة الأمومية إلى الأبوية، وتحل ثقافة لونغشان كبديلٍ جديد لثقافة يانغشاو.

ثقافة لونغشان هي الثقافة التي تمركزت أيضًا على النهر الأصفر (من حوالي ٣٠٠٠ إلى ١٩٠٠ ق.م) كبديلٍ جديد لثقافة يانغشاو، وأبرز موقع لها هو تاوسي(21)، غالبًا ما تُسمَّى باسم ثقافة الفخار الأسود، وقد قامَت في أواخر العصر الحجري، في مناطق وادي النهر الأصفر الأوسط والسفلي في شمال الصين.

بدأت هذه الثقافة بعد تقدم الزراعة وتربية الحيوانات، وبعد أن بدأ الرجل بالسيطرة على الوضع وتولي القيادة بدلًا من المرأة، وتحولت الروابط المشتركة من دم الأم إلى دم الأب، وقد أثبت الباحثون هذا التحوُّل بعد العثور على اكتشافات في عدة مواقع، وأطلقوا على هذه الثقافة اسم « ثقافة لونغشان»، نِسبة إلى أشهر موقع تمَّ اكتشافه، ومن خلال هذه الاكتشافات تبيَّن أن ثقافة المشترك العشائري الأبوي غطت مناطق أكثر اتساعًا من ثقافة يانغشاو، وقد اتضح بما لا يدَع مجالًا للشك أن مستوى الإنتاج قد تضاعفَ في هذه المرحلة، خاصةً في مجال الزراعة وتربية الماشية، بعد أن توصَّل الإنسان في المشترك العشائري الأبوي إلى استعمال أدوات جديدة، لا سيما أشهرها المِنْجل الحجري ومقبض المحراث الخشبي.

في هذه الفترة طور الإنسان عملية استصلاح الأراضي، واستخدم الفأس والمِسْحاةَ الحجرية(22)، وبسبب كثرة ما تم العثور عليه من أدوات الاستصلاح والزراعة والحصاد، استنتج الباحثون ارتفاع نسبة المحصولات الزراعية، وكان المحصول الأكثر أهمية في زمانهم هو الدُّخن الثعلبي(ب) ، يليه دُخن المِكنسة والأرز والقمح، كما تم العثور على أدوات متخصصة لطحن الحبوب تخص هذه الثقافة(23).

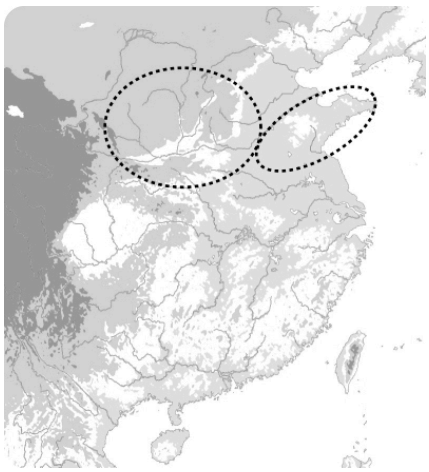

منطقة)ثقافة)لونغشان)شمال)الصين.

ارتبطت ثقافة لونغشان باللغة الصينية المبكرة (من اللغات الصينية التبتية) (24)، وقد قسم العلماء ثقافة لونغشان إلى قسمين نسبةً إلى المنطقة والنوع الثقافي: شاندونغ لونغشان، وخنان

لونغشان.

اشتهرت هذه الثقافة بفخارها الأسود المصقول للغاية (فخار قشر البيض)، في ظل تمتعها بمستوًى مهاري عالٍ في صناعة الفخار، بما في ذلك استخدام عجلات الفخار لإنتاج فخار أسود مصقول رقيق الجُدران(25)، وكان هذا الفخار منتشرًا على نطاق واسع في شمال الصين، بالإضافة إلى أنه تمَّ العثور عليه أيضًا في وادي نهر يانغتسي وصولًا إلى الساحل الجنوبي الشرقي، كما ظهر في هذا المجتمع معالجة المعادن، وخاصة -منها- الصناعة النُّحاسية التي تطورت تطورًا واضحَ الأهمية.

كان المصدر الأول للحوم هو لحم الخنزير، ثم يليه لحم الكلاب، خاصة في شاندونغ، وعلى الرغم من أن الماشية كانت أقل أهمية(26) ، فإن هناك أبحاثًا تحاول أن تثبت أنه تم تدجين الأغنام والماعز في منطقة هضبة اللوس في الألفية الرابعة قبل الميلاد، ثم انتشرت عبْر منطقة النهر الأصفر الوسطى والسُّفلى، بالإضافة إلى أنه قد تم العثور على بقايا في شنشي وجنوب خنان لِكَتِف ماشيةٍ وخنازيرَ وأغنام وغزلان تم تسخينها كشكلٍ من أشكال العرافة(27) ، والعرافةُ هي عملية تنبؤ أو محاولة الحصول على نظرة ثاقبة لسؤالٍ أو موقف عن طريق عملية أو طقوس غامضة وموحدة (28)، وكان من شعائرهم الدينية «التضحية البشرية»، التي كانت أكثر شيوعًا في شنشي والسهول الوسطى في أواخر فترة لونغشان(29).

لاحظ الباحثون أن أهمية تدجين الحيوانات في هذه الفترة أدى إلى تراجع حاجة الإنسان للقنصِ، بشكلٍ لا ينفي التطوُّر الذي عرفته ممارسة القطف والقنص والصيد، حيث تطور الإنسان في الصيد إلى حدٍّ استدعاه لاستعمال القارب الذي سمح له بتوغلٍ نسبي في المياه، كذلك تطور الإنسان في هذه الثقافة وقام بإنتاج الحرير ولكن بنطاقٍ محدود عن طريق تربية وتدجين دودة القز؛ كما كان يفعل أسلافهم(30) .

مع ظهور الحرير انتشر ارتداؤه بين السادة والقادة، حتى تميّزوا في لِباسهم عن الفقراء والعامة؛ الذين كانوا يرتدون عباءات ومآزر مصنوعة من ألياف النباتات، وربما يكون هذا التمييز في اللباس هو نموذج واضح لظهور التمييز الطبقي الذي لم يكن معهودًا في العشائر الأُمومية، فمنذ ذلك الحين ظهرت مساوئ النفس البشرية وصفاتها الدفينة؛ وأصبح من الطبيعي ظهور سادة طامعين في ثمار الآخرين حتى لو لم يكن بهم خصاصة، رافضين المساوة لمجرد أنهم أرادوا أن يكونوا مميزين؛ ورأوا أن نتاج مجهود غيرهم يجب ألَّا يتحصَّل عليه لمجرد الطمع فيه، فبسبب هذا التقدم والتطور والازدهار ظهرت التحوُّلات في العلاقات، وفي أواخر هذه المرحلة ظهر لأول مرة السادة والفقراء، وبدأت تظهر ملامح الملكية الخاصة، وقد اندثرت المساواة التي سادت من قِبل قيادة الأم، بعد أن طمع كبراء العشائر والقبائل في فائض الإنتاج، ورويدًا رويدًا رغِبوا في الجاه والتمييز.

كان مطلب القادة والكبراء الجليِّ هو الاستئثار بفائض الحبوب والمواشي، لكن تطورت

مطامعهم؛ فامتلكوا أدوات الزينة وأوعية الخمور، وتزينت نساؤهم بالأساور وخواتم اليَشْم، واستخدمن الأمشاط المصنوعة من العاج، ولم ينسوا التميّز حتى في الدَّفن، فقد احتوت قبورهم على كنوز لا يملكها فقراؤهم، وقد اتضح ذلك من الحفريات التي أُجريت في مقابرهم، والتي وضَّحت وجود مواد جنائزية ثمينة كانت تُدفن معهم دون غيرهم؛ كرأس الخنزير وفكِّه الأسفل، وأدوات متنوعة من الفخار، والرفش، وسوار اليشم والقلائد الفخارية، والقلائد الفيروزية، وأقداح الخمور. هذا، بينما اقتصرت مقتنيات معظم أفراد العشيرة على لوازم الإنتاج والفخاريات اليومية.

وبهذا الشكل أصبح المجتمع الأبوي قد شَقَّ أول اتجاه نحو طريق الطبقية والتمييز، وظهرت الصراعات الطبقية، وظهرت النزاعات التي مهَّدت القبائل للدخول إلى نظام الدولة المبنية على التنوع الطبقي، وأصبح الجميع في العشيرة طامعًا في الحكم(31)

هذا المشهد اتسمت به نُهية «ثقافة داونكو»، وبالتالي اندثرت تلك الحضارة لتُخْرج من أحشائها تحوّل مجتمعي شمل عموم الصين، وسعى جميع الكبراء للحصول على كرسي يُمكنهم من القيادة والمُلْك، وهذه الفترة التي تفكَّك فيها المجتمع الاشتراكي اتسمت بالوصف الخيالي والأسطوري في تاريخ الصين، ومن أبرز هذه القصص المروية قصصًا لمجموعة من الحكام شبه الأسطوريين والمعروفين باسم الملوك الثلاثة والأباطرة الخمسة(32) .

* * *

صورة تخيّلية للإمبراطور الأصفر (هوان جي دي) مؤسس الاتحاد القبلي.

وفقًا للأسطورة: كان هناك رجلٌ حكيمٌ اسمه «هوانغ دي»، قام بتأسيس تشكيل اتحاديٍّ من

القبائل والعشائر من أجل الحدِّ من الفوضى والنزاع، ثم صوتوا على منصب الحاكم بالترتيب التالي، الحاكم الأول هو «هونغ دي» مؤسس الاتحاد نفسه؛ وأطلقوا عليه «الإمبراطور الأصفر»، ويليه في ولاية العهد بالترتيب: «ياو»، ثم «شون»، ثم «يو»، وكان نظام التنازل عن العرش بارزًا في هذه الفترة، حيث تنازل «ياو» عن عرشه لـ «شون»، الذي تنازل عن العرش لـ «يو»، الذي شرد عن النظام القانوني ووَرِث الحُكم لابنه «تشي» مؤسس أسرة «شيا» بالقوة وبالتوريث (33) .

وبحسب الأسطورة السائدة؛ الملوك الثلاثة والأباطرة الخمسة بحسب اعتبارات اليوم كانوا مجموعة من الحُكَّام الأسطوريين، أما في الماضي فكانوا يُعامَلون كآلهة تُعبَد، باعتبارهم أرواح الأجداد الإلهية في العصور القديمة، وباعتبارهم كانوا يستخدمون قُدراتهم للمساعدة في خلق البشرية؛ وتعليم البشر المهارات التي مكَّنتهم من مقاومة الطبيعة والتعامل معها، حيث إنهم بالنسبة للمعبودين؛ كانوا وسيلة الاتصال الوحيدة بين النظام البشري والإلهي، فطبقًا للأسطورة هؤلاء الحُكماء تجسيدًا للإله على الأرض؛ وهُم الرسل التي كانت وسيطًا بينهم وبين القوة الإلهية(34) .

وبرغم هذه الرواية التي تَصِفهم بالحِكمة والأخلاق؛ فإن نفس الرواية تذكر أن «يو العظيم»، آخر هؤلاء الحكام، والذي وصل إليه الحكم بتنازل الاثنين اللذين سبقاه، استخدم ما لديه من قوة لفرض نفوذه وإرادته على الآخرين؛ حيث انقض على السلطة؛ وورث ابنه «تشى» رئاسة الاتحاد، وهذا كان أول خَرْق لمبدأ الاختيار الديمقراطي(35).

لم يكن هذا التناقض الوحيد في الأسطورة؛ فعند قراءتنا للمصادر سنتخبط كذلك في تحديد مَن هم الملوك الآلهة والأباطرة الخمس! فهناك اختلافات واضحة حول تحديد هويتهم، وصلت لسبع مرويات مختلفة، ومن الأساطير التي تداخلت مع أسطورة هؤلاء على الرغم من اختلاف بعض الأسماء، هي أسطورة الخلق؛ حيث ارتبطت سيرة هؤلاء الآلهة بأسطورة الخلق، على سبيل المثال، «أسطورة شي والأربعة الذين اشتركوا معًا في خلق الكون»، وأسطورة أخرى بطلها «بان قو»؛ الذي فور وفاته تحولت عينه اليُسرى وأصبحت الشمس، وعينه اليُمنى أصبَحت القمر، أما باقي جسده فقد كوَّنَ باقي مكونات الكون، وعن هؤلاء الملوك التي اختلف تحديد هويتهم في المصادر، يطري إليهم أنصارهم بأن لهم الفضل في تعليم البشر حياة المدن، والزراعة، والصناعة، واستئناس النار، والتقويم، والكتابة، ويُنسَب إلى زوجة هوانغ المُلقب بالإمبراطور الأصفر ثقافة الحرير، وطبقًا لما ذكَرته الأسطورة انتهت حياة الآلهة بعدَ وجود أسرة شيا(36) أول دولة في تاريخ الصين.

* * *

بداية عهد الدولة

بعيدًا عن الأساطير- في نهاية الألفية الثالثة قبل الميلاد، انخفض عدد السكان بشكل حادٍّ في

معظم أنحاء المنطقة، وارتحل الناس عن المراكز الكبرى، والسبب في ذلك هو التغير البيئي المرتبط بنهاية عصر الهولوسين المُناخي الأمثل، ولكن في المقابل، كان هناك نمو سريع للسكان وللتعقيد الاجتماعي في حوض نهري «يي» و«لوه» في وسط خنان، وبلغت ذروتها في ثقافة إرليتو (التي يُعتقد أنها تابعة لأسرة شيا التي سنتحول إليها)، ويرى العلماء أنه لا يوجد استمرارية بين الثقافة المادية لونغشان (المجتمع العشائري الأبوي) وإيرليتو، مما يوضح أن ثقافة لونغشان قد انهارت، وتوسعت مكانها ثقافة منطقة إيرليتو الأساسية(37)، التي تطوَّرت في المنطقة الوسطى في حوالي ١٩٠٠ ق.م، وهي ثقافة من العصر البرونزي(38) .

وبجانب هذه الثقافات المذكورة، كان هناك ثقافات عديدة في العصر الحجري الحديث؛ غالبيتهم كانوا منبثقين أو تابعين كليًّا للثقافات السالف ذِكْرها، ويمكننا ذكرهم متفردين على النحو التالي:

	اسم الثقافة	التاريخ التقريبي	الموقع طبقًا لبعض الاكتشافات
١	**ثقافة كهف شيانرن** (من العصر الحجري القديم)	١٨٠٠٠ - ٧٠٠٠ق.م	مقاطعة وانيان، شانغراو، جيانغشي
٢	**ثقافة نانزهوانغتو**	٨٥٠٠ - ٧٧٠٠ ق.م	منطقة النهر الأصفر جنوب مقاطعة خبي
٣	**ثقافة بينغتوشان**	٧٥٠٠ - ٦١٠٠ ق.م	منطقة يانغتسى الوسطى شمال غرب هونان
٤	**ثقافة بيليغانغ**	٧٠٠٠ - ٥٠٠٠ ق.م	وادي حوض نهري «يي» و«لوه» في خنان
٥	**ثقافة شينغلونغوا**	٦٢٠٠ - ٥٤٠٠ ق.م	منغوليا الداخلية، حدود لياونينغ
٦	**ثقافة كواهوكياو**	٦٠٠٠ - ٥٠٠٠ ق.م	تشجيانغ
٧	**ثقافة كيشان**	٦٠٠٠ - ٥٥٠ ق.م	جنوب خبي
٨	**ثقافة الداديوان**	٥٨٠٠ - ٥٤٠٠ ق.م	قانسو وشنشي الغربية
٩	**ثقافة شينلي**	٥٥٠٠ - ٤٨٠٠ ق.م	نهر لياو السفلي في شبه جزيرة لياودونغ
١٠	**ثقافة تشاوباوغو**	٥٤٠٠ - ٤٥٠٠ ق.م	وادي نهر لوان بمنغوليا الداخلية وشمال مقاطعة خبي
١١	**ثقافة بيكسين**	٥٣٠٠ - ٤١٠٠ ق.م	شاندونغ
١٢	**ثقافة همودو**	٥٠٠٠ - ٤٥٠٠ ق.م	يوياو وتشوشان - في تشجيانغ الحديثة

١٣	**ثقافة داكسي**	٥٠٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م	في منطقة الخوانق الصينية الثلاثة
١٤	**ثقافة ماجيبانج**	٥٠٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م	منطقة بحيرة تاي وشمال خليج هانغتشو
١٥	**ثقافة يانغشاو**	٥٠٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م	خنان وشنشي وشانشي
١٦	**ثقافة هونغشان**	٢٩٠٠ - ٤٧٠٠ ق.م	منغوليا الداخلية ولياونينغ وهيبي
١٧	**ثقافة الداوينكو**	٤١٠٠ - ٢٦٠٠ ق.م	شاندونغ وآنهوي وخنان وجيانغسو
١٨	**ثقافة سونغزي**	٣٨٠٠ - ٣٣٠٠ ق.م	منطقة بحيرة تاي
١٩	**ثقافة ليانغتشو**	٣٤٠٠ - ٢٢٥٠ ق.م	دلتا نهر يانغتسى
٢٠	**ثقافة ماجياياو**	٣١٠٠ - ٢٧٠٠ ق.م	منطقة النهر الأصفر العليا في قانسو وتشينغهاي
٢١	**ثقافة كوجيالينغ**	٣١٠٠ - ٢٧٠٠ ق.م	منطقة اليانغتسى الوسطى في هوبي وهونان
٢٢	**ثقافة لونغشان**	٣٠٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م	النهر الأصفر الأوسط والسُّفلي
٢٣	**ثقافة باودون**	٢٨٠٠ - ٢٠٠ ق.م	سهل تشنغدو
٢٤	**ثقافة شيجياهي**	٢٥٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م	منطقة اليانغتسى الوسطى في هوبي
٢٥	**ثقافة يوشي**	١٩٠٠ - ١٥٠٠ ق.م	منطقة النهر الأصفر السفلى في شاندونغ

خريطة)القبائل)المُنضمَّة)لهذا)الاتحاد.

غالبية هذه الثقافات كانت ضمن اتحاد القبائل الذي قاده «هوانغ دي»، ومن بعده «يو العظيم» الذي سطا على مبادئ الاتحاد، بعد أن فرض «يو» مبدأ التوريث بالقوة؛ باستثناء ثقافة يوشي

الأخيرة، التي بدأت متأخرة ثَم انضمت لقيادة أَسرة شيا، بعد أن ورِث الابن تشي حكم الأب «يو»، وأسس فعليًّا أسرة شيا (٢١٠٠ - ١٦٠٠ ق م).

وتُعتبر أسرة شيا هي بداية الدولة الفعلية في الصين، أما قادة وكبراء العشائر فقد تحوَّلوا لوجهاء وقادة أغنياء، ومن أجل توسيع أراضيهم ونفوذهم وثرواتهم ساقوا أفرادهم إلى الحروب، وعرَف مجتمعهم الرِّق والعبودية، فكانوا يوصون جنودهم على اقتناص أكبر عدد ممكن من الأسْرَى، وبالتالي استرقاقهم بدلًا من قتلهم، فظهر مجتمع العبيد، لم يكن هؤلاء هم العبيد فقط؛ لكن تحول أيضًا فقراءُ وضعفاء القبائل إلى عبيدٍ كادحين؛ وتم السطو على ثمارهم وإنتاجهم وقوتهم؛ وإجبارهم على العمل الزائد(39) .

كان هذا الوقت هو إيذانٌ ببَدءِ إلغاء المساواة، وتفكيك الملكية العامة، وظهور مجتمع العبيد الأول في تاريخ الصين.

* * *

٢ - مجتمع العبيد

(السلالات الحاكمة الأولى)

يعتقد بعض العلماء أن أسرة «شيا» التي حكَمت الصين كسلالة حاكمة أُولى؛ هم أصحاب «ثقافة إيرليتو»، ذلك المجتمع الحضاري والثقافي والأثري من العصر البرونزي المبكر، والذي كان قائمًا في وادي النهر الأصفر من حوالي ١٩٠٠ إلى ١٥٠٠ قبل الميلاد(40) ، سُميت هذه الثقافة بهذا الاسم نسبةً للموقع المُكتشف في إيرليتو في يانشي - خنان، ولاحقًا في شنشي وهوبي، والذي اعتبره علماء الآثار أول مجتمع على مستوى الدولة في الصين، ولكن لا يوجد دليل ثابت - مثل الكتابة - لإثبات هذا الربط بينهما(41) ، حيث إن الكتابة والتدوين لم يَظهَرا إلا في أواخر عهد أسرة شانغ التي تلتها؛ لذلك يرى بعض المؤرخين أن إيرليتو ينبغي اعتبارها مرحلة مبكرة من عهد أسرة شانغ، مع الأخذ في الاعتبار وجود ثقافة عبودية أخرى مستقلة اسمها «ثقافة سانكسينغدوي» بالصين من العصر البرونزي أيضًا، والتي عاصرت لاحقًا سلالة شانغ، لكنهم طوروا طريقة مختلفة لصُنع البرونز عن سلالة شانغ(42) .

والجديرُ بالذِّكر: أنه بسبب عدم تأكيد قصة أسرة شيا، وأن غالبية سردها وارد من الأساطير؛ فقد اقترح بعض المؤرخين أن حكامَ تشو اخترعوا أسرة شيا كذريعة لتبرير غزوهم لشانغ فيما سيرد ذِكره، وهذا معناه أنه مثلما حلَّت عشيرة شانغ محلَّ عشيرة شيا، فقد حلوا محل عائلة شانغ(43) ، والسبب أن وجود قبيلة شيا غير مثبت، على الرغم من الجهود التي بذلها علماء الآثار الصينيون لربطهم بثقافة إيرليتو في العصر البرونزي(44) .

على أيَّة حالٍ، يرَى علماء آخرون أن موقع إيرليتو يتمتع بمستوى من التنظيم السياسي لا يتعارض مع أساطير شيا المسجلة في النصوص اللاحقة(45)

وفقًا للمعلومات الواردة -وإن لم تكن مؤكدة- هي أوّل سلالة حاكمة في التأريخ الصيني التقليدي، بعد أن أَنافَ وشرع الأسطوري «يو العظيم» توريث مُلْكه لولده «تشي»(46) .

لا يوجد تدوين مُعاصر لهذه السلالة؛ ولا ذِكر لهم في أقدم النصوص الصينية (نقوش عظام أوراكل)، حيث إنها تعود إلى أواخِر فترة شانغ (القرن الثالث عشر قبل الميلاد)؛ لذلك اختلفت حسابات العلماء في عُمر بداية ونهاية هذه السلالة، فهناك حسابات تقول بأنها امتدت بين ٢٢٠٥ و١٧٦٦ ق.م، قام بها عالم الفلك والرياضات الصيني «ليو شين»، والمولود عام ٥٠ ق.م، وهناك حساب آخر يقول إنها كانت بين ١٩٨٩ و١٥٥٨ ق.م ذكرته حوليات الخَيْزُران، وهي سِجلٌّ تاريخي للصين القديمة، يبدأ في أقدم العصور الأسطورية (عصر الإمبراطور الأصفر) ويمتد إلى ٢٩٩ ق.م، وبمقارنة نفس النص مع تواريخ اقتران الكواكب الخمسة، اقترح العالم «ديفيد بانكينير»، بدعم مِن «ديفيد نيفيسون» العالم في علم الصينيات، تواريخ ١٩٥٣ و١٥٥٥ ق.م(47) ، أما وفقًا للمشروع الحكومي الصيني الذي بدأ في عام ١٩٩٦ م؛ والمسمى بـــ «تاريخ شيا - شانع - تشو»، فتاريخ هذه السلالة من ٢٠٧٠ وحتى ١٦٠٠ ق.م، ويَعتقِد بعضُ العلماء أن أسرة شيا أسطورية لم يكن لها وجود من الأساس، لكن آخرين يربطونها بثقافة إيرليتو الأثرية كما ذكرنا.

وفقًا لما ورد، تقولُ الأسطورة التي لم يرد تاريخًا غيرها: «يو العظيم» عندما كان شابًّا يافعًا، وقبل أن يكون إمبراطورًا، عاش مع والده «جون الكبير» في كَنَف عشيرتهما في وادي النهر الأصفر؛ بجانب العشائر الأخرى، وعندما فاض النهر الأصفر اتَّحد العديد من القبائل معًا للسيطرة على الفيضانات، تم تعيين جون من قبل الإمبراطور آنذاك «ياو» (ثاني الأباطرة الأسطوريين الخمسة)؛ لوقف الفيضانات، فشرع جون في بناء أول سدود نهرية في مشروع استمر طيلة ٩ سنوات، وبعد انقضاء هذه الفترة جَنَى فشل مشروعه، فالفيضانات كانت عصيبة لا مانع لسيلها، في هذه الفترة تنازل الإمبراطور الأسطوري «ياو» عن العرش لـ «شون»، الذي سجَن الأب جون بسبب فشل مشروعه(48)

禹

克勤于邦　永民乃粒
庶績咸熙　厥中允執
懋昭好言　九功由立
不伐不矜　稽古莫及

الملك)«يو»،)كما)تخيّله)رسّام)أسرة)سونغ)«ما)لين»)في)أوائل)القرن)الثالث)عشر.

عين الإمبراطور «شون» الابن «يو» لإنهاء عمل والده السَّجِين مع الوعود بإطلاق سراحه، خاصةً أن الإمبراطور كان يثقُ في «يو» وليّ العهد، وكان «يو» على قَدر الثقة، حيث قام بتنظيم العمل، واستقدَم أناسًا من قبائل مختلفة، وأمرَهم بمساعدته في بناء القنوات في جميع الأنهار الرئيسية التي كانت تغمرها المياه القاسية، واستمر في عمله الدءوب؛ حتى تمكَّن من تكوين اتحاد قبلي لمشروعه الضخم، وتقول الأسطورة إنه بعد ١٣ عامًا من العمل الشاق والمتواصِل؛ تمكَّن من بناء الحواجز وترويض الفيضان، وبرغم ذلك لم يسترحْ أو يهنأ بنجاحِه، واستمر في العمل والتطوير؛ على الرغم من أنه مرّ من أمام منزله ثلاث مرات(49) .

كان هذا المشروع الناجح سببًا في زيادة الإنتاج الزراعي، وشاع صِيتُ «يو» بين القبائل كإمبراطور مستقبلي يستحقُّ الثناء، لدرجة أن بعض القبائل المُحيطة اعتبرته هو الزعيم الفعلي لهم دونًا عن شون، ولاحقًا أرسل الإمبراطور شون؛ الشاب يو لقيادة جيش لقمع قبيلة متمردة تُدعى سانمياو، وبعد أن تمكن من هزيمتهم عزّز هذا الانتصار قوة قبيلة يو (التي هي قبيلة شيا لاحقًا) بشكل أكبر، ومع تقدُّم شون في السن، تنازل عن العرش لـ «يو»، والذي حكَم القبائل بحزم وقوة، وعندما اقترب يو العظيم من الموت، اخترق القانون القبلي؛ ومرَّر العرش لابنه «تشي»، بدلًا من نقله إلى المرشح الأكثر قدرة كما كان مبدأ الاتحاد، مبتدعًا ما يُسمى بالنظام الوراثي، وبناءً على ذلك بدأت أسرة شيا فترة سيطرة الأسرة أو العشيرة(50) .

استخدمت هذه السلالة كل ما لديها من إمكانات للبدء في بناء دولة متطورة، قائمة على الاستفادة من سيطرتهم على الجفاف والفيضان، واستوعبوا أهمية الري؛ فزاد الإنتاج الزراعي؛ ومنهم من اشتهر بمهارته في تطوير السدود كالقائد «شيايوي»، الذي ورَد اسمه أكثر من مرة في المرويات والأساطير الشعبية، ومع الوقت تطوروا فلكيًّا، حتى نظمت الأجيال اللاحقة على أساس علومهم التقويم السنوي، والذي سُمي باسم «تقويم شيا الصغير»، ولا يزال قائمًا إلى الآن تحت مسمَّى التقويم القَمَري أو تقويم شيا(51)

كان هذا التقدم والازدهار من أهم أسبابه القوة البشرية، التي كانت تتمثل في مجتمع العبيد، فكان المجتمع حينها ينقسم إلى ٣ طبقات:

مُلاك العبيد - العَبيد - قِلّة من العامة.

كان هؤلاء العامة مُنحدرين من أعضاء المشترك العشائري؛ وغالبيتهم مزارعين أو حرفيين، وكان مُلّاك العبيد يخضعون للحكم المباشر من ملك شيا نفسه، أي إن العبد يخضع لحُكم المُستعبد الأرستقراطي، الذي هو خاضع أيضًا لتنفيذ رئيس اتحاد مُلاّك العبيد وهو الملك نفسه، حيث كان الملك يُملي على اتحاد المُلّاك قوانينه القمعية حتى يسيطروا بها على ولاء العبيد في كل مكان، وظهرت السجون لأول مرة، وقوي الجيش، وأصبح ملك شيا ديكتاتورٍ قانوني(52) .

واستمر الأمر بهذا الشكل طيلة ٤٠٠ عام على مرِّ ١٦ حاكمًا، كان يُعاني العبيد خلالها من

الجحيم؛ محاولين التمرُّد أو الهروب، وكان آخرهم الملك السابع عشر «شيا جيه»، الذي كان سببًا في انهيار حُكم السلالة، حيث قيل إنه كان أشد من أسلافه فسادًا وفسقًا واستبدادًا، شدد في اضطهاد شعبه، وتمتَّع بحياة البذخ هو وحاشيته ورجاله؛ وترَك العبيد يموتون جوعًا، وبسبب عذاب العبيد المتزايد ضَعُف إنتاجهم، فتسيبوا في العمل الزراعي.

كانت عشيرة شانغ تتحين أيَّ فرصةٍ للانقضاض عليه، بعدما سَئِمت العشائر الأخرى من ضعف الدولة وقلة الإنتاج وزيادة غرور الملك، حتى تمكَّن «تانغ» كبير «أسرة شانغ» من الإطاحة به، وفي النهاية مَنّ على بقايا عائلة شيا الحاكمة بولاية تشي الصغيرة كي يعيشوا فيها صامتين(53) .

سلالة شانغ الحاكمة

درْع)سلحفاة،)نُقشت)عليه)رموزٌ)دينية.

بعد تمكُّن تانغ ورفاقه من دحر سلطة «شيا جيه»، تحوّل الحكم لعشيرته بالأمر المباشر؛ في الألفية الثانية قبل الميلاد (١٦٠٠-١٠٤٦ ق.م.) وقد تمَّ ذكر حسابات فترة حكم سلالة شانغ في حوليات الخيزران، أما الدراسات الحديثة فحدَّدت بالضبط فترتها بين القرنين السادس عشر والحادي عشر قبل الميلاد، مع وجود اتفاق أكبر حول تاريخ النهاية أكثر من تاريخ البداية.

وإذا اعتمدنا على التاريخ الصيني (المكتوب)، فهي بلا شكٍّ أقدم أسرة حاكمة في التاريخ الصيني المدعوم بقوة بالأدلة الأثرية، حيث كشفت أعمال التنقيب في أطلال «يين»(ج) ، آخر عاصمة لشانغ(54) ، عن ١١ قبرًا ملكيًّا رئيسيًّا؛ وأساسات القصور ومواقع الطقوس، وقد احتوت على أسلحة حربية وبقايا من القَرابِين الحيوانية والبشرية، كما تمَّ العثور على عشرات الآلاف من القِطع الأثرية من البرونز واليشم والحجر والعظام والسيراميك، كذلك عثروا على أقدم مجموعة معروفة من الكتابة الصينية، وهي نقوش سجلَّات العرافة في الكتابة الصينية القديمة على عظام أو أصداف الحيوانات - «عظام أوراكل»، التي يرجع تاريخها إلى حوالي ١٢٥٠ إلى ١٠٤٦ق.م(55)، ومعظمها من الكهانة المنقوشة على «عظام أوراكل»؛ أصداف السلحفاة، أو عظام كَتِف الثور، أو عظام أخرى، المسماة بـ: «لغة العظام الكهنوتية».

وفي هذا الموقع الثري بالاكتشافات تم العثور على أكثر من ٢٠ ألفًا من الحفريات العلمية الأولية خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، ولم يتوقَّف الأمر عند ذلك، بل تم العثور على أكثر من أربعة أضعاف هذا من يومها إلى الآن، أي ما يقارب ١٠٠ ألف قِطعة، بينما توفِّر النقوشُ رؤية نقدية للعديد من المواضيع، بدءًا من السياسة والاقتصاد والممارسات الدينية، وحتى الفن والطب في هذه المرحلة الهامة والمبكرة من الحضارة الصينية، والتي فكَّت شفرات عصر هذه الأسرة التي حكمها ما يزيد على ٢٩ ملكًا(56) ، الذين قاموا بنقل العاصمة ست مرات، كانت الخطوة الأخيرة والأكثر أهمية زمان «يين» في عهد الحاكم «بان قنغ»، (حوالي عام ١٣٠٠ ق.م)؛ وكان مصطلح أسرة «يين» مرادفًا لسلالة شانغ في التاريخ، على الرغم من أنه تم استخدامه مؤخرًا للإشارة على وجه التحديد إلى النصف الأخير من أسرة شانغ بعد نقل العاصمة للمرة الأخيرة(57) .

كان لمجتمع العبيد دور مهم في أسرة شانغ، إلى جانب المناصب السياسية والعسكرية التي وُزِّعت على الأرستقراطيين، وكان المَلك هو القائد الأعلى للدولة، وجيشه أساسه مكونًا من القوات البرية، ومُعداتهم العسكرية كانت العربات التي تجرها الخيل، والرمح، والبلطة، أما مُلّاك العبيد فكان من أهم مسئولياتهم قَمْع عبيد الدولة، وتنظيم السجون، وإصدار القوانين الجنائية.

وبهذا التسلسل تم استخلاص الطاقة القصوى من كَدِّ العبيد، فتوافرت الثروات، لعلَّ من أبرزها المنتوج الزراعي؛ كزراعة الدُّخن والأرز والقمح والكَتان والتوت، وفي نفس الوقت، كانوا مُسخَّرين لحفر الخنادق والقنوات وتصريف مياه الفيضان، وغيرها من الأعمال الشاقة بأبسط

الأدوات، وفي نهاية المطاف؛ يجنِي الأسياد ما اشتغلوه نظير آلامهم وأرواحهم، أما تربية الخنازير والبقر والغنم والخيل الكلاب فكانت من الأعمال المشهورة التي كان يقوم بها العبيد كذلك، من أجل أن يتمتع بها السادة كغذاء، أو تقديمها كقرابين بكلِّ إسراف وتبذيرٍ، فلا مانع من أن يذبح الملك ٣٠٠ بقرة في قربان واحد لموتاه.

أسهم مجتمع العبيد في تطوُّر الحِرَف بعد استيعابهم مهارات صهر البرونز وتشكيله، ومن الأدوات المميزة التي صنعوها: قدور ثلاثية الأرجل التي تُسمَّى «تينغ»، وأقداح ذات مِقبض وفوَّهة جانبية تسمَّى «جيوه»، وأسلحة كالرمح والبلطة، وأدوات كالفأس والسكين، وقد ظهر سلاح في هذا العصر يسمى «يويه»، وهو يشبه البلطة ولكن حجمه أكبر، قد صُنع نَصْله من طرق حديد النيازك الساقطة على الأرض، مما يوحِي أن الحديد كان معروفًا منذ هذا الزمان.

كذلك تطوَّرت صناعة الفخريات وصياغة اليَشم في هذه السلالة، وقد أدّى تطور الإنتاج الزراعي إلى التقدُّم في المعارف الفلكية، لدرجة أنهم عرفوا الشهر القمري، وفهموا الفرق بين الشهر الكبير الذي يحتوي على ٣٠ يومًا، والصغير الذي يحتوي على ٢٩ يومًا، وعرَفوا بشكلٍ أو بآخر الفرق بين السنة البسيطة والكبيسة، بالإضافة إلى تطورهم في معرفة المجموعات النجمية، وهم أصحاب أقدم سِجل للكسوف والخسوف(58).

كانت حياة العبيد قاسية بشكل لم يسبق له مثيلٌ؛ فالسيد وشم عبدَه بالنار في جبينه لتمييزه وعدم التنكُّر، كان المشهد السائد وقت عمل العبيد هو ربطهم من أعناقهم كالحيوانات، وطبقًا للقانون كان يحِقُّ للسيد قتل عبده بسهولة كأي حيوان، أو يقدِّمه قربانًا عوضًا عن الماشية، وقد سُجِّلت حالة قتل سيد لـ ٢٦٥٦ عبدًا في إحدى المناسبات الطقوسية، وكان الطقس السائد هو دفن العبيد القَتْلى مع سيدهم، وقد اشتد هذا التطرف في عهد آخر ملوك شانغ، «شانغ تشو» (دي شين)، الذي وُسِم بالفاسق(59) .

بسبب هذه التجاوزات التي وصَلت لحدِّ الجحيم؛ أقدم العبيد على الرد على هذا الاضطهاد البشع بتخريب الأدوات، والإهمال المصنوع، والهرب من ساحة العمل، وقد تطور الأمر في النهاية للصُّراخ والانتفاض، حتى انتشرت الانتفاضات التي أسهَمت بشكلٍ كبير في ضَعف الدولة، ووُلدت حالة من التوتر الذي أخل باستقرارها(60) ، واستغلت إحدَى الأقليات القومية المُقيمة بين نهري يانغتسي وهوايخة في الجنوب الشرقي هذا التخبُّط، وتمدَّدت إلى السهول الوسطى لتقوية نفوذها وكسب أراضٍ جديدة في ظل انشغال الدولة، وهي قومية «دونغيسي» (دونجي)، وكان هذا إيذانًا بحربٍ جديدة ستخوضها أسرة شانغ.

خاضت أسرة شانغ حربًا قاسية مع قومية دونغيسي، وتمكَّنت من إعادة الهيبة والانتصار، لكن عاد المَلِك لممارسة سياساته القمعية مع مجتمعه بشكل أشرس، وأدى غروره من هذا النصر إلى زيادة وطأة الابتزاز والنهْبِ، مما زاد من مرارة عيش العبيد والعامة كذلك، وردًّا على الانتفاضات شرّع قانونًا دمويًا للخارجين، فابتكر قانون «عقوبة باولاو»، وهو أسلوب تعذيبي وحشي، يتمثَّل

في وضع قنطرة من النُّحاس على الفحم المتأجِّج، وإجبار الضحية على العبور فوقها حافية، وعندما تشعر الضحية بحرارة النحاس تضطر متألمة للقفز من على القنطرة إلى النار الموقَدة، فتَلْقى حتفها محروقة وسط صُراخ طأطأة أحشائها

في هذا التوقيت كان قد لمع نجم دويلة عبودية حديثة اسمها «تشو»، في أحواض نهري «ليشوي وجينغشوي»، وقد دفعتها قوتها الصاعدة لمجابهة دولة شانغ، تحت قيادة كبيرها «تشو وو وانغ»، الذي جمع جيوشًا متحالفة من عشائر مختلفة تُقيم في غرب الصين، ناقمة على دولة شانغ، وجاءت ساعة الصفر؛ وتهيَّأ الطرفان للقتال في ضاحية موي القريبة من العاصمة، فيما يعرف بـ «معركة وي» في عام ١٠٤٥ ق.م، وهنا كان لعبيد شانغ دورٌ مهمٌّ، تمثَّل في انتقامهم عن كل ما تجرّعوه، إذ أقدَم هؤلاء العبيد الأنكاد على الامتناع عن القتال، بل وفتحوا الطريق لجيشِ العدو من أجل احتلال العاصمة، وعندما سمع الحاكم الأخير «دي شين» بالخبر قام بالانتحار حرقًا، ليُسدَل بموته السِّتار على نهاية أسرة شانغ(61) .

* * *

بعد انتصاره في معركة موي؛ قاد «تشو وو وانغ» (الملك وو من تشو) أسرته تشو؛ إلى الحكم بدلًا من «شانغ»، وقد سُميت الفترة المبكرة من أسرة تشو بـ«تشو الغربية»، والتي استمرت زهاء ٧٥ عامًا؛ منذ عام ١٠٤٥ ق.م وحتى عام ٧٧١ ق.م(62) .

عندما شرع «وو» في الحكم، تم تقسيم أراضي الأسرة المُحلّة إلى إقطاعيات وراثية أصبحت مستقلة بشكل متزايد بعد ذلك، جميع مُلّاك هذه الإقطاعيات من عائلة الملك ومن وزرائه، وأنعم عليهم بألقاب شرفية، شريطة أن يدفعوا له الأموال الكافية ويدعموا الجيش بالجنود في أيام الحروب، وقد اتسعت الأراضي في عهد أسرة تشو بشكل ملحوظ، وكانت عاصمتها هاو جينغ، جنوب غرب مدينة شيآن بمقاطعة شنشي حاليًّا.

توفِّي الملك «وو» مبكرًا، وترك ابنه «شينغ» وريثًا شابًّا قليل الخبرة، فأعلن عمه «دوق تشو» أنه تحت وصايته، فقام أمراء تشو «الحرس الثلاثة» المتمركزون في السهل الشرقي، بالتمرُّد ضد وصايته، وعزَّزوا اعتراضهم بدعم النبلاء المُستقلين، وفلول شانغ، والعديد من قبائل دونجي، إلا أن «دوق تشو» تمكَّن من قمع التمرد، بل ووسع مملكة تشو إلى الشرق(63) .

من أجل الحفاظ على سلطة تشو على أراضيها الموسعة بشكل كبير ومنع الثورات الأخرى، تم إنشاء «نظام فنغجيان»، وهو عبارة عن هيكلة النظام الاجتماعي وتحويله إلى نظام لا مركزي(64) ، تتألف الطبقة الحاكمة من ابن السماء (المَلِك) والأرستقراطية، وتتكون الطبقة الدُّنيا من عامة الناس، ومن خلال هذا النظام، يخصص الملك مساحة من الأرض لأحد النبلاء أو الأقارب، ويُثبّته كحاكم لتلك المنطقة، ويسمح بأن يرث أحفاده لقبه وإقطاعيته بشكل شرعي، وهذا القانون أدى إلى إنشاء أعداد كبيرة من العوالم الداخلية، والتي بناءً على ذلك أصبحت دولًا مستقلة (65)، ومع الوقت أصبح هذا النظام اللامركزي هشًّا ومتوترًا للغايةً، فالانفصال المؤسسي تسبب في الانعزال؛ وفي تضاؤل العلاقات العائلية بين ملوك تشو والسلالات الإقليمية على مرِّ الأجيال.

وعاءٌ)برونزي)يعودُ)للسنة)الثالثة)من)حُكم)الملك)«يي»)(٨٩٦)ق.م)،)بمقاطعة)شنشي.)متحف)باوجي)تشويوان.

وكسابقيها كانت تعتمد هذه السلالة على النظام العبودي، في حين أن الأراضي والممتلكات كانت في أحقية الملك الذي يوزعها على الأمراء والنبلاء متى شاء، لتصبح قطائع يستغلونها لحسابهم ويتوارثونها لكن دون الحق في بيعها، وكانت هذه المدن تحتوي على الأمراء والعبيد، وتحيطها حقول مترامية الأطراف على شكل مربعات، بعدما قسمتها الطرق والقنوات، كان هذا التصميم السائد وقتها قد سُمّي «حقول المربعات التسعة»، وتم تسخير العبيد لزراعة هذه الحقول، ومحاصيلهم الرئيسية كانت الأرز، والدُّخن، والقمح، والفول، والتوت، والكَتان، والفواكه التي كان أشهرها البِطِّيخ.(66)

وفي عصر تشو الغربية تقدَّمت الحِرف اليدوية عن أسرة شانغ بشكل ملحوظ، وكما هو سائد كانت الأعمال الشاقة من نصيب العبيد، وستجد في كتاب الأغاني الذي يُعد أقدم دواوين الشعر الصيني؛ وصفًا دقيقًا لمعاناة العبيد في هذه الدولة، الذين كانوا لا يجدون ما يستر أجسادهم؛ برغم إنتاجهم الوفير الذي كان يذهب لجعبة الأغنياء، ووصَفَ هذا العمل الشعري العظيم تأوُّهات الكادحين، لدرجة أنك يمكنك سماع صرَخات العبيد ونسائهم من بين سطوره ، والتفاعل مع احتجاجاتهم في وجْه مُلّاك العبيد الأرستقراطيين الذي امتصوا دماءهم، وجعلوا منزلتهم الاجتماعية أدنى من المواشي، فكان ثمن خمسة عبيد يساوي حصانًا ورزمةً من الحرير.

وصل القمع والابتزاز ذِروته في عهد «تشو لي وانغ»، خاصة بعد ما وضع يده على الغابات والأنهار، ومنع العامة من الصيد، وكانت شرطته حديدية، قامعة للناس وقاطعة للألسنة؛ بعد أن دسَّ بينهم الجواسيس، وقد تسبَّب هذا القمع في انتفاضة مسلحة على يد عامة الناس عام ٨٤١ ق.م، لدرجة أن المُسلحين تمكَّنوا من اقتحام القصر الملكي، فهرب الملك «تشو لي وانغ»، وتسلَّم السلطة الوزيران «تشو قونغ»، و«تشاو قونغ»، وهو ما يُعرف تاريخيًّا باسم «الحكم المشترك لتشو وتشاو»، وتعتبر السنة الأولى من هذا العصر هي البداية الفعلية للتاريخ الصيني المسجَّل، بعد أن شهدت ظهور أول السجلات التاريخية الصينية(67) .

كانت هذه الانتفاضة من أهم الأحداث التي هزّت هيبة النظام الحاكم، وضعفت سلطة الملك، حتى استهان به النبلاء والأمراء، وتجرأت أقلية «كوانرونغ البربرية»، والمعروفة في التاريخ الصيني بـ «شيرونغ»، وهاجمت هاو جينغ عام ٧٧١ ق.م، في عهد الملك الثاني عشر لهذه السلالة «يو»، فبعد أن تزوج الملك بابنة النبيل «ماركيز شين»، استبدلها بإحدى المحظيات، فقرَّر ماركيز الانتقام منه، ودعَّم قوات الدول المعارضة والمتمردة، من أجل احتلال العاصمة الغربية من هاوجينغ، بالفعل نجحت تخطيطاته، ودخلت قوات المعارضة الغاضبة، وتمكَّنت من قتل الملك «يو» عام ٧٧١ ق.م في موقعة جبل لي، ومع وفاة الملك «يو»، تم نقل العاصمة شرقًا إلى وانغشنغ(68) إيذانًا بنهاية «تشو الغربية»، وبداية فترة «تشو الشرقية»، والتي انقسمت إلى فترتي الربيع والخريف وفترة الدول المتحاربة.

* * *

٣- نحو مجتمعٍ إقطاعي

(فترتي الربيع والخريف -

والدويلات المتحاربة)

بعد وفاة الملك «يو»؛ اجتمع الأرستقراطيون المتمرِّدون حول حاكم جديد، وهو الملك «بينغ تشو» (جي بيجيو) من لويانغ(69)، لتبدأ المرحلة الرئيسية الثانية من أُسرة تشو، المعروفة باسم فترة «تشو الشرقية»، وقد قسمها المؤرخون إلى فترتي الربيع والخريف والدول المتحاربة، نسبةً إلى حوليات الربيع والخريف الشهيرة.

* * *

فترة الربيع والخريف

العصر الأول المعروف بعصر الربيع والخريف (٧٧٠ ق.م - ٤٧٦ ق.م)؛ شَهِد تدني سلطة الملك، حيث برز في هذه الفترة فراغ لقوةِ السلطة المركزية، وبالتالي استهان به الأمراء وشنوا حروبًا ابتزازية لاغتصاب الأراضي والسيطرة على الإمارات، حتى ظهر مَن عُرفوا باسم «المسيطرون الخمسة»، وهم «تشي هوان قونغ» أمير تشي، و«سونغ شيانغ قوانغ» أمير سونغ، و«جين ون قونغ» أمير جين، و«تشين مو قونغ» أمير تشين، و«تشو تشوانغ وانغ» أمير تشو(70)

وبسبب الفوضى، تألفت هذه الحقبة من مئات الدويلات الصغيرة، وقد يبدو من ضخامة عدد الدويلات أن هناك دولًا كانت لا تستحِق الاستقلال الذاتي، حيث كان من بينهم عددٌ كبيرٌ من الدول التي كانت تقتصر فقط على مدينة «مسورة» والأراضي المحيطة بها، وكما هو متوقع؛ بدأت هذه الدول في القتال ضد بعضها البعض والتنافس على الهيمنة، وتسببت المنافسات في تقليص عدد الدول، بعد أن تمكَّنت الدول الأقوى من ضم الدول الأضعف.

مع مرور الوقت؛ ومع حلول القرن السادس قبل الميلاد تحديدًا، اختفت بالفعل معظم الدويلات الصغيرة بعد ضمها، ولم يبقَ سوى عدد قليل من الإمارات الكبيرة والقوية(71)، علاوة على أن العديد من الأفراد المشهورين مثل «لاوزي» و«كونفوشيوس» و«سون تزو»، وُلِدوا وعاشوا خلال هذه الفترة التي اتَّسمت بالفوضى.

بسبب الحروب أصبحت الدول الباقية والمتنافِسة؛ مُجبرة على تطوير إدارات أفضل لحشد المزيد من الجنود والموارد، فتمَّ إنشاء العديد من المدن الجديدة في هذه الفترة، وتدريجيًّا أصبح المجتمع أكثر تحضُّرًا وشهِد تقدُّمًا تجاريًّا، وبدأت «المدارس الفكرية المائة» للفلسفة الصينية الكلاسيكية في الازدهار خلال هذه الفترة، وفترة الممالك المتحاربة اللاحقة، واستجابةً للعالم السياسي المتغير؛ تأسست بشكل مَبدئي الحركات الفكرية المؤثرة مثل: الكونفوشيوسية، واللاوية

(الشكل المبدئي للطاوية)، والموهية.

الفيلسوف)الصيني)كونفوشيوس.

الكونفوشيوسية هي مدرسة أو حركة فلسفيّة أسَّسها كونفوشيوس (٥٥١ ق.م - ٤٧٩ ق.م)، وقد بدأت بعد إيمان كونفوشيوس بالقضاء والقَدَر وبإمبراطور السماء الذي يدبر حياة الناس وموتهم؛ ويدبر الأموال والمنازل الاجتماعية، وأن كل شيء بيده، وطالبت هذه الفلسفة الناس بالالتزام بالنظام المُتمثِّل في أن يكون الملك ملكًا والوزير وزيرًا، والأب أبًا والوزير وزيرًا، ومن ثم الكل يُخلِص في منزلته، فيُخلص الوزير للملك، والابن لابنه، حيث رأت فلسفته أن سُلطة الحكام قادمة

من القدَر السماوي، ويجب على الجميع الخضوع لهم، وعدم التنازع أو التناحر أو الطموح من أجل هذه المكانة العُليا، وكان لهذه الفلسفة دور كبير في تعليم عامة الناس، حيث كان في هذا المجتمع العبودي التعليم من نصيب الأرستقراطيين فقط، ووصل عدد طلاب كونفوشيوس إلى ٣٠٠٠ تلميذٍ؛ منهم ٧٢ حواريًّا مُناصرًا مُقرَّبًا، وحرر كونفوشيوس قبل نهاية حياته أعمالًا خالده مثل: «الأغاني»، و«التاريخ»، و«حوليات الربيع والخريف»، وغيرها، وتم تجميع أحاديث كونفوشيوس نفسه في كتاب اسمه «الحوار»، ولكن فيما بعد أصلح الحكام أفكاره واستخدموها كأداة روحية لاستغلال الشعب وحماية نظامهم الإقطاعي وتثبيت حكمهم، وعدم الإقدام على التمرُّد أو خَلْع المَلك (72)

أما اللاوية الطاوية - فهي الفلسفة المنسوبة إلى الفيلسوف «لاو تسي»، والتي وضعت بعض بذور الفكر المادي، وقد دوّنها في كتابه «الأخلاق»، وملخّص فلسفته: الإيمان بالتناقضية، أي إن لكل شيء نقيضه؛ كالحياة والموت، والوجود واللاوجود، والقوة والضعف .... إلخ.

ويُذكَر عن «لاو تسي» أنه لم يملِك بصمةً إيجابية في تيار التحولات الاجتماعية، فقد ورد أنه كان يدعوا للسلبية، ومُعالجة الأمور بتركها كما هي، ورفض التقدم والتطور(73) .

المدرسة الموهية هي فلسفة صينية قديمة، منسوبة للفيلسوف الصيني «موزي»، ما بين (٤٧٠ - ٤٩١ ق م)، وهي شَكْل معالَج ومطَوَّر من المدرسة الكونفشيوسية والطاوية في فترة الربيع والخريف، وتوسَّعت لاحقًا في فترة حقبة الممالك المتحاربة، وقد تطوَّرت على يدِ طلاب العلم الأكاديميين الذين درسوا على يد الفيلسوف الصيني القديم «موزي»، وتم تجميع فلسفتهم في كتاب سُمي باسم «كتاب موزي».

كان مفهومها هو الحب الشامل أو ما يعرف بالاهتمام المتجرِّد، ترجم البعض هذا المفهوم بمصطلح الحب الكوني، لكن ربما يكون ذلك غير صحيح؛ لأن موزي كان يرى أن المشكلة الأساسية في الأخلاق الإنسانية هي إفراط التحيُّز في التعاطف، وليس عجزًا في التعاطف بحد ذاته، وكان هدفه هو إعادة تقييم السلوك، لا العواطف والنزعات، ومن ثَم الاهتمام بجميع الأفراد الآخرين بنفس الدرجة، غير مرتبين عاطفيًّا أو عائليًّا أو عقائديًّا أو عِرقيًّا، والتجرُّد من كل الدوافع، ونشر مفهوم أن الجميع سواسية.

لاحقًا تمّت مهاجمة هذا التجرُّد من قِبل المدرسة الكونفوشية التي اعتقدت أنه لا يُفترض بالحب أن يكون غير متحيّز، واستدلوا بمثال: ينبغي على الأطفال حمل حُب أكبر نحو أهاليهم أكثر من الغرباء(74).

في هذا الزمان توسَّع استخدام الأدوات الحديدية، كالفأس والمعزقة، واستخدموا البقر في أعمال الحَرْث، مما زاد من الدخل الزراعي وتطور الزراعة، وكان العبيد المُسّخرون قد تمكَّنوا من استصلاح الأراضي، فظهرت حقول خاصة لمُلّاك العبيد إلى جانب حقول المربعات التسعة التي ذكرناها، هذه الحقول الخاصة تضاعفت بسبب تطور أدوات الحديد وتقنية الحرث، وحتى هذه

اللحظة لم يكن قد ظهر قانون للضرائب، حتى أقدَم عليه أميرٌ يُدعَى «لو» في عام ٥٩٤ ق.م؛ بسبب حاجته للمال، ليكون هذا أول قانون ضريبي في تاريخ الصين، تسبَّبت هذه الضريبة في الاعتراف بملكية أصحاب الحقول الخاصة على الأراضي المستصلحة، وقد أدّى ذلك إلى تعاظم نفوذ الأرستقراطيين، فتقاسمت ثلاث أُسَرٍ أرستقراطية في إمارة الأمير «لو» الحقولَ العامة التي كانت تسمّى بالمربعات التسعة، وضمتها إلى الحقول الخاصة المستصلحة، وقامت بتحويل العبيد الذين كانوا مِلكًا للإمارة نفسها لا لأشخاصٍ محددين إلى ملكيتهم بالتَّبعيّة؛ ليستمروا في عملهم كفلاحين لكن في نفس الوقت عبيدًا ملك لهؤلاء الأرستقراطيين، وبهذا الشكل أصبحت الأسر الإقطاعية مالكة للأرض قانونيًّا، لتتغير الصورة القديمة التي كانت عبارة عن (مُلّاك العبيد - العبيد)، لتُصبح منذ إصدار هذا القانون (إقطاعيون - فلاحون)، وقد جاء هذا التحول في نهاية سلسلة من الأحداث والأحداث المضادة التي اتَّسم بها عهد الربيع والخريف(75) .

هل ساد الهدوء بعد هذا الوضع؟

بالطبع لا.

فكعادتهم مارس الأمراء حروبهم الابتزازية من أجل البذخ، وقد تسبَّب ذلك في مضاعفة استغلال الفلاحين العبيد ومطالبتهم بالنتاج المضاعف، على سبيل المثال، في امارة «ليانغ» تم إرغام العبيد على العمل الإضافي بعد الزراعة، ذاك العمل كان يتمثل في تشييد القصور والمباني لسنوات عديدة دون راحة، ومع حلول عام ٦٤١ ق.م؛ أجبروهم على حَفْر الخنادق حول القصور تحسُّبًا لأي غزوٍ، وقد تسبَّبت هذه السياسات القاسية في هروب العبيد، حتى اضطرب وضع الإمارة، فاستغلت إمارة تشين هذا الاضطراب وانقضت عليها وضمتها لنفوذها.

كذلك في «إمارة تشنغ» هرب العبيد أيضًا، ثم تجمعوا في عام ٥٢٢ ق.م، حول مستنقعات «هوان فو»، وبدءوا في استصلاحها لأنفسهم، ومكَّنهم اتحادهم من تكوين قوة مسلحة لحماية أرضهم الجديدة من هجوم مُلّاكهم السابقين، لكن الأمراء والملاك اتحدوا من أجل سحقهم، وأرسلوا إليهم حملة عسكرية دمرتهم(76) .

الثقافة والعلوم

برغم الاضطراب؛ عرفت هذه الفترة قدرًا كبيرًا من الإنتاج الاجتماعي، وتعرَّف هؤلاء العبيد على معارف وتحديات جديدة، بسبب مَشقتهم من أجل الاستقلال وتكوين دولة خاصة، بل ومن قبل ذلك؛ حينما رغب المُلّاك تسخيرهم بشكل مضاعف من أجل تعاظم ثرواتهم، ومن ناحية أخرى؛ تقدَّمت حينها فروع معرفية كالرياضيات حيث ظهر في المدارس الفكرية مادة دراسة تسمَّى العَدد، واستخدموا جدول الضرب أثناء عمليات قياس الأراضي، وعرفوا الإحصاء أثناء حصر تَعْداد السكان والعربات والخيول والأدوات، وتم طرح العلاقة بين الوتر والضلعين القائمين في المثلث القائم، وقد ذُكر ذلك في إحدى المؤلفات الرياضية في الصين القديمة، وهو «كتاب تشوبي سوان

جينغ»، حيث ورد أن محاسبًا كان يُدعى «شانغ قاو»، من أوائل عصر «أسرة تشاو الغربية»، أشار إلى الضلع الصغير برقم ٣، والقاعدة برقم ٤، والوتر برقم ٥، وقد اعتبرها العلماء صيغة مبكّرة لما عُرف لاحقًا بـ «نظرية فيثاغورس»(77) .

ومن أهم تقنياتهم وعلومهم كذلك، الفلك والتقويم، فقد ظهر في إمارة «لو»، رصدًا للقمر والشمس والنجوم، حيث سجَّلوا ٣٧ حالة كسوف في الفترة من (٧٠٢ ق.م وحتى ٤٨١ ق.م)، وتم إثبات صحة ٣٠ حالة منها، كذلك حدَّدوا مواعيد الانقلابين الشتوي والصيفي، بالإضافة إلى أنهم تمكَّنوا من رصد مذنَّبًا كان يمر بالنجم القطبي عام ٦١٣ ق.م، وقد اعتبرها العلماء أقدم إشارة إلى «مذنب هالِي».

أما عسكريًّا، فقد ورد عن هذه الحقبة مؤلفات عسكرية؛ أشهرها كتاب «سون تسي بينغ فا»، والذي ألَّفه الجنرال «سون وو» من إمارة «وو»، ويُعد أحد أشهر وأقدم الكتب العسكرية في العالم، وهو كتاب متخصِّص في دراسة المبادئ القتالية والاستراتيجيات الفنية للعدو(78) .

في أواخر هذه الحقبة، تصاعد نضال العبيد في شتى الإمارات، وكوّنوا لأنفسهم كذلك قوة عسكرية، غرضها الهجوم المسلَّح على قصور وقِلاع الأمراء، وقد استخدَموا وسائل الحرق والإغراق والتسميم، وبسبب تمرُّد العبيد بارت أراضي المُلّاك، ليترتب على ذلك زوال نظام المربعات التسعة بشكل نهائي، ليَحِلَّ محلها بشكل سائدٍ «النظامَ الإقطاعيَّ» الذي يعمل فيه الفلاحون، ليُسدل الستار على انتهاء المجتمع العبودي، وظهور المجتمع الإقطاعي الجديد.

* * *

فترة الدويلات المتحاربة

في ظل الفوضى التي ذكرناها؛ بدأت أسرة «تشو الشرقية» في الانهيار في القرن الخامس قبل الميلاد، برغم أن ملك تشو الشرقية كان يتم تنصيبه دون توقُّف حتى عام ٢٥٦ ق.م، أي لأكثر من مائتي عام، لكن كان وجوده اسميًّا فقط، وكان منزوع الكثير من الصلاحيات، وبسبب فقدان آل تشو نفوذَهم اضطروا إلى الاعتماد على جيوش أخرى في دول حليفة أخرى بالوكالة، بدلًا من الاعتماد على قوتهم العسكرية، وفي محاولات ضم الدويلات الصغيرة من قِبل الدول الكبيرة في فترة الربيع والخريف تقلَّص عدد الولايات من ١٠٠ ولاية صغيرة؛ إلى ٧ ولايات رئيسية، وهي: «تشو، هان، تشين، وي، يان، تشي، وتشاو»، أما تحالفات آل تشو فقد فشِلت في نهاية المطاف بعد ما حدَث الكثير من التحولات؛ لأن حاكم كل دولة أراد أن يكون مستقلًّا في السلطة، وقد تسبَّب هذا في مئات الحروب بين ٥٣٥ -٢٨٦ ق.م، من أجل محاولة كل دولة لفرض سيطرتها على عموم الصين، بعيدًا عن النظر إلى معاناة شعوبهم(79).

في النهاية أدى الصراع من أجل الهيمنة إلى إنشاء نظام دولة تهيمن عليه عدة ولايات كبيرة، مثل: «جين وتشو وتشين ويان وتشي»، في حين أن الولايات الأصغر في السهول الوسطى كانت

تميل إلى أن تكون مجرد تابعة لهم، كما كانت توجد ولايات كبرى أخرى، مثل «وو» و«يوي» في الجنوب الشرقي.

كانت قد تميزت العقود الأخيرة من عصر الربيع والخريف بزيادة الاستقرار فيها، نتيجة لمفاوضات السلام بين «جين» و«تشو»، التي حدّدت مناطق نفوذ كل منهما، لكن انتهى هذا الوضع بتقسيم جين، حيث تم تقسيم الدولة بين منازل «هان» و«تشاو» و«وي»، وبالتالي مكّن هذا إنشاء الولايات السبع الكبرى المتحاربة، وادَّعى العديد من الحكام ولاية السماء لتبرير غزوهم للدول الأخرى ونشر نفوذهم(80) .

مما لا شكَّ فيه أن المجتمع الإقطاعي في الصين بدأ بوضوح في هذه الحقبة، كنتيجة مباشرة لجميع التمهيدات التي تمت في عصر الربيع والخريف، بعد انهيار نظام المربعات التسعة؛ وسطو الأرستقراطيين على حقول العامة، بالإضافة إلى القادة العسكريين الذين فازوا بأراضٍ كمكافأةٍ، إلى جانب التجار الأثرياء الذين استحوذوا على عددٍ كبير من الأراضي، ومع زيادة النفوذ الاقتصادي لهؤلاء التجار؛ طالبوا بشطب امتيازات مُلّاك العبيد الأرستقراطيين، والمُضِي قُدمًا نحو نظام سياسي ملائم لتطور الاقتصاد الإقطاعي، وبسبب تأثير هذه الطبقة في المجتمع؛ شُنت حزمة إصلاحات، بدأت من «وي» حتى تمكَّنت من الوصول إلى قلب تشين.

خلال فترة الممالك المتحاربة المبكرة، تجنبت تشين بوجه عام الصراعات مع الدويلات الأخرى، ولكن بسبب هذه التطورات والتغييرات الاقتصادية؛ اضطر ملك تشين؛ «شياو قونغ»(٣٦٢ ق.م - ٣٣٨ ق.م)؛ إلى الإقدام على نظام مناسب لسلطته في ظل هذه التغيرات الجذرية؛ فكلَّف وزيره «شانغ يانغ»(81) ، بإعداد خُطة للإصلاح المركزي والسلطوي في عام ٣٥٩ ق.م، تلخَّصت في(82) (83) :

- إلغاء نظام المربعات التسعة وإزالة الفواصل الحدودية بينهم.
- الاعتراف بالملكية الخاصة، وإجازة بيع الأراضي.
- نظام المكافأة للقادة العسكريين في الحروب، وتوزيع الأراضي بحسب الإنجاز العسكري.
- إلغاء امتيازات مُلّاك العبيد الأرستقراطيين، من أهمها الرواتب التي كانوا يحصلون عليها منذ ولادتهم، وتوزيع المناصب عليهم فقط عندما يكبرون.
- إقامة نظام المحافظات، ليصبحوا عبارة عن ٣١ محافظة، يحق للملك فقط تعيين محافظيهم.
- مكافأة الزراعة والغزل والنسيج، فمن يُنتج أكثر يتم إعفاءه من السُّخرة.
- ترتيب المهام الوظيفية، ومنع ترك الزراعة من أجل مزاولة التجارة.
- عقوبة مساوية لعقوبة مرتكب الجريمة، لأي شخص علم بارتكاب الجريمة ولم يبلغ عنها.

كل هذا بالإضافة إلى تجنيد فلاحي «تشين» في الجيش.

وقد شجع ذلك على الهجرة النشطة للفلاحين من ولايات أخرى إلى تشين كقوة عاملة بديلة، أدَّت هذه السياسة في الوقت نفسه إلى زيادة القوى العاملة في تشين، وإضعاف القوة البشرية

لمنافسي تشين، وكذلك سن شانغ قوانين تجبر المواطنين على الزواج في سنٍّ مبكرة، وأصدر قوانين ضريبية لتشجيع تربية العديد من الأطفال، كما قام بسَن سياسات لتحرير المدانين الذين عملوا في فتح الأراضي البور للزراعة، بالإضافة إلى أنه ألغى حق البكورة، وفرض ضريبة مزدوجة على الأُسر التي لديها أكثر من ابن واحد يعيش في الأسرة.

بعد ذلك قامت تشين بنقل العاصمة لتقليل تأثير النبلاء في الإدارة، جعلت هذه الإصلاحات دولة تشين أقوى الدول السبع سياسيًّا واقتصاديًّا، بالتوازي مع القوة العسكرية التي لم تتشغل بغير ذلك(84) .

كانت الغالبية العظمى من إصلاحات يانغ عبارة عن خليط مُجمَّع ومُدمَج؛ مقتبَس من سلسلة إصلاحات مأخوذة من السياسات الموضوعة في الولايات الأخرى؛ لذلك كانت إصلاحات يانغ أكثر شمولًا من إصلاحات الدول الأخرى، واحتكرت السياسة في يد الحاكم، وبسببها تمكَّنت تشين بسرعة من اللحاق بإصلاحات الدول الأخرى، بل وتجاوزتها بمراحل (85)

انتشرت الإقطاعية بشكلٍ واضح في الدويلات السبع، خلال الإصلاحات التي تمت في فترة مائة سنة، في هذا الوقت اعتقد الكادحون أنهم تحرّروا من نظام العبودية، لكنهم وجدوا أنفسهم مُنزلِقين في نار الإقطاعية، لكن برغم ذلك كانوا يتعايشون، ورأوا أن نظام الإنتاج النصفي أفضل من العبودية، وهو استئجار الفلاحين للأراضي من المالك مقابل نصف المحصول، فقد زاد هذا من حماستهم، وبالتبعية زاد من الإنتاج الزراعي.

الثقافة والعلوم

بسبب إقدام الفلاحيين الكادحين على استئجار الأراضي؛ وعملهم الكد الدءوب من أجل الظَّفَر بنصف الإنتاج، شهد الاقتصاد الإقطاعي تطورًا جديدًا، وانتشرت أدوات الحديد، وأصبح مشهد حرث البقر موجودًا في كلّ مكان، فزادت عجلة الإنتاج، وتطورت الزراعة حتى تم استخدام السماد العضوي من القمامات وأسمدة الرماد والنباتات، وتطورت مشاريع الري في كافة الدويلات، وظهرت الأفكار الحديثة للري والوقاية من الجفاف والفيضان، ومِن أشهرها مشروع دوجيانغيان في تشين، على حوض نهر مينجيانغ، بالقرب من تشغتدو بمقاطعة سيتشوان حاليًّا، تحت إدارة حاكم المنطقة «لي بينغ»، الذي كان سببًا في تحويل سهول غرب سيتشوان إلى حقول خضراء لأول مرة في التاريخ، كما شُقت قناة قرب شيانيانغ في مقاطعة شنشي الحالية، التي بلغ طولها أكثر من ١٥٠ كيلو مترًا، تحت إدارة أهم خبراء الري حينها، «تشنغ قوه»، مما تسبَّبت كل هذه التطورات في زيادة ملحوظة في الإنتاج الزراعي. (86)

تطورت كذلك المهارات الحرفية والصناعات، فصهروا الحديد، وصنعوا الفولاذ والحديد الزهر، بعد استخدامهم للفحم النباتي للوقود، وتم إنشاء معامل لتضم مئات الحرفيين، وعرفوا إنتاج المِلح المستخلص من البحر أو من البرك، وتطور فنهم الحرفي، فلعلعت منسوجات الحرير

والكتان، والأواني المرصعة، والأدوات الموسيقية، وكان السكان يتمركزون في العواصم ومراكز المواصلات التي تطورت بصورة ملحوظة؛ حتى أصبحت مدنًا إقطاعية تمتلك قصورًا فخمة وأسواق تجارية منظمة. (87)

أما علميًّا فقد تطورت العلوم ولا سيما الفلكية، ففي هذا الفترة كُتب «مجلد قان شي» في مسارات النجوم، من تأليف العالِمان: «قان ده» و«تشو شي شن»، والذي يُعتبر أقدم المؤلفات الفلكية في العالم، وقد سجلوا فيه أسماء ٨٠٠ نجم، من ضمنها ١٢٠ تم تحديد مواقعها بدقة، كما تضمن معطيات تقويمية هامة، من ضمنها تقسيم السنة إلى فصول، وساعد هذا الفلاحين في ترتيب زراعاتهم - وفي الرياضيات، تطور جدول الضرب ليتكون من رقمين والأساس ١٠، مما يعني أن الحساب التجاري المتطور قد تم تأسيسه بالفعل خلال هذه الفترة(88) .

أما في الطب، فقد تنوعت طرق العلاج، وظهرت الأقسام الطبية التخصصية؛ كطب الجراحة والأطفال والباطني والنسائي، ومن أشهر أطباء هذا الزمان «بيان كيو» (تشين يورين)، الذي اقترح أربع وسائل لتشخيص حالة المريض: النظر والتأمل في وجه المريض ، التسمع، سؤاله عما يشتكي، جس النبض، وكان يستخدم وسائل شاعت في الطب الصيني فيما بعد، كالوخر بإبرِ الحجر والمَعدِن، والأشربة، والتدليك، والكي(89) .

أما فن العمارة، فقد تطور النظام المعماري في هذا الوقت بصورة ملحوظة؛ حتى تعالوا في البنيان، ومن أشهر معماري هذه الحقبة «لو بان»، الذي يُنسَب إليه بعض الاختراعات كالمِنشار، والمسطرة، والمِسْحاج، لدرجة أنه خلال عهد أسرة تشو، كان يُقدس باعتباره الإله الصيني (الراعي) للبنائين والمقاولين(90) .

أما عسكريًّا، فقد لمع نجم الجنرال «صن تزو»، الذي ألَّف كتاب عسكري على غرار كتاب سون وو، بعنوان «فن الحرب»، وهو صاحب الخدعة الأكثر شهرة في تاريخ العسكرية الصينية؛ تحت اسم «محاصرة وي لإنقاذ تشو»، مما جعل منه صاحب تأثير عسكري كبير في الفلسفة العسكرية الغربية وفلسفة شرق آسيا (91) .

أما الفنون، شهدت فترة الدويلات المتحاربة تطورًا واضحًا في مجال الفنون، من ضمنها تطور زخارف الأدوات البرونزية من الخط إلى الرسم، كما تطورت الموسيقى إلى مستوى متقدِّم؛ حيث تم اكتشاف ٦٤ جرسًا نحاسيًّا، يمكن العزف عليها(92) .

أما فلسفيًّا، فقد أدى هذا التطور المجتمعي إلى طروحات، بزغ من خلالها مدارس جديدة، ليكتمل عدد الـــ ١٠٠ مدرسة رسميًّا في هذا العهد؛ التي بدأت فعليًّا منذ عهد الربيع والخريف، وفي هذا الزمان زادت نشاطاتها، وعرفت صراعًا عنيفًا فيما بينهم في النقد والعرض.

أما الشعر، فقد تطور الشعر النقدي، ومن أشهر شعراء هذا العصر «تشيوان يران»، وكان أرستقراطيًّا شاعرًا، يطمح إلى إصلاح دولة تشو، لكن النبلاء حاربوه ووشوا به عند الملك، فنفاه لمدة طويلة، وهو مبتكر نمط جديد من الشعر كتبه بلهجة تشو المحلية، استمده من الأغاني الشعبية،

ومن أهم أعماله قصيدة بعنوان «لي ساو»، كان قد كتَبها في منفاه، تتألف من ٣٧٠ بيتًا، عبر خلالها عن قلقه على وطنه وحنينه إليه(93) .

أما دينيًّا، فكان المُعتقد الديني السائد في الصين في هذه الفترة وفترة الربيع والخريف؛ يُركز على شين (تُترجم تقريبًا إلى «أرواح» أو «آلهة»)، ويين (تُترجم الظلال)، وتشير إلى العالم الآخر الذي اعتقدوا أن هؤلاء الآلهة يعيشون فيه، وقد قدم الصينيون التضحيات الحيوانية في محاولة للاتصال بهذا العالم الآخر، الذي اعتقدوا أنه موازٍ للعالم الأرضي، الذي ينتقل إليه الموتى، وكانت شعائرهم الدينية تُقام من أجل: التأكد من سفَر الموتى وبقائهم في العالم الآخر، والحصول على البركات من عالم الروح(94) .

* * *

نهاية فترتي الربيع والخريف

والدُّويلات المتحاربة

بعد النجاح الكبير لتشين، اعترف الديوان الملكي بصعودِها، وبعدَ صعودها أصبحت دولة تشين أكثر عدوانية، وذات رغبة جامحة في التوحيد وضم الدويلات، ففي عام ٣٤٠ ق.م استولت تشين على أرض من ولاية «وي»، واستغرق تطوير هذه الأراضي وقتًا طويلًا لفرض النفوذ؛ لكنه أضاف ببطء إلى ثروة تشين وقوتها بشكل كبير، ثم بعد سنوات احتلت جيوش تشين تشاو عام ٢٢٨ ق.م، وولاية يان الشمالية عام ٢٢٦ ق.م، ثم تمَّ القضاء النهائي على ولاية «وي» عام ٢٢٥ ق.م، وجاء الدور على ولاية تشو الشرقية؛ التي كانت الدولة والتحدِّي الأكبر، والوريثة الرسمية لسلالة تشو الغربية التي حكمت البلاد قبل هذه التقسيمات، فباغتتها دولة تشين؛ واستولت على مساحة كبيرة من أراضيها، ثم في النهاية تمَّت السيطرة على وادي «نهر هان»، وتم إلغاء أسرة تشو الشرقية في عام ٢٢٣ ق.م؛ وأصبحت باقية اسميًّا فقط (95) .

الخريطة)السياسية)للصين)خلال)فترة)الممالك)المتحاربة،)حوالي)٢٦٠)ق.م.

بقي القليل أمام تشين القوية من أجل تحقيق حُلمها والانتصار على الدويلات المتحاربة؛ لذلك أقدَمت في عام ٢٢٢ ق.م على لياودونغ في الشمال الشرقي؛ وتمكَّنت من القبض على آخر بقايا

«يان» والعائلة المالكة، ليتبقى أمامها دويلة واحدة لا غير، مملكة «تشي» في الشرق الأقصى، فيما يعرف الآن بشبه جزيرة شاندونغ، وفي محاولة للتصدي لاجتياح تشين؛ أرسلت تشي ٢٠٠ ألف رجل يائس للدفاع عن حدودها الغربية، ولكن في عام ٢٢١ ق.م؛ غزتها جيوش تشين من الشمال، واستولت على الملك، وضمت تشي، وبهذا الشكل ابتلعت تشين، الولايات الست المتحاربة، لتكون هي الدولة الوحيدة المتبقية من عصر الدُّويلات السبع المتحاربة.

مع ضم الأراضي المجاورة للولايات الست، أصبح حُكمهم قائمًا على نظام إداري من القيادات والمحافظات، وأصبحت ولاية تشين هي المهيمنة في العقود الأخيرة من فترة الممالك المتحاربة، وخلال أكثر من مائة عام منذ إصلاحات «شانغ يانغ»؛ طورت ولاية تشين قواها الإنتاجية وعززت قدراتها العسكرية، وحافظت على نفوذها، وقلَّدت تشين الإصلاحات الإدارية للولايات الأخرى؛ وبذلك أصبحت قوة شَكِيمَة فارضة نفسها عليهم؛ ولا خلاص من استحكاماتها، وبدأ توسُّعها النهائي في عهد الملك المؤثر «ينغ تشنغ»، مما أدى في النهاية إلى إِدغام القوى الإقليمية الست الأخرى؛ وتمكينه من إعلان نفسه كأوَّل إمبراطور للصين؛ المعروف في التاريخ باسم «تشين شي هوانغ»؛ بعد توحيد الصين، وتأسيسه لأسرة تشين الإمبراطورية الحاكمة(96) .

* * *

الفصل الثاني

الصين الإمبراطورية المُبكرة

١ - أول مجتمع إقطاعي كبير

(توحيد الصين)

يعتبرُ «ينغ تشنغ» قبل أن يُعرف باسم «تشين شي هوانغ» (٢٥٨ ق.م - ٢١٠ ق.م)، والذي كان ملكًا لدولة تشين (من ٢٤٦ق.م إلى ٢٢١ق.م)، هو المؤسِّس الفِعلي لسلالة «تشين» الحاكمة التي بدأت في حُكم عموم الصين عام ٢٢١ ق.م، بعد أن أضفى الطابع الرسمي على المِنطقة كإمبراطورية؛ وليس كدولة وحسب، وربما أدى وضعها المحوري إلى تطوّر «تشين» لاحقًا إلى المصطلح الغربي (china)، والعربي (الصين)، والذي نعرفه الآن كاسمٍ لهذا الكِيان الهائل(97) .

* * *

سلالة تشين الحاكمة

姓嬴名政始自始皇乙卯即王位庚辰併天下稱皇帝
在位三十七年居王位二十五年即帝位十二年壽五十

الإمبراطور «تشين شي هوانغ»(ينغ تشانغ) في صورةٍ من القرن التاسع عشر، في ألبوم يصوِّر شخصياتٍ تاريخية مشهورة.

منذ بدايته كملك على ولاية تشين، وبعد استيلائه على العرش عام ٢٤٦ ق.م، شن «ينغ تشنغ» طوال فترة حكمه -كملك لدولة تشين- حروبًا سياسية واسعة النطاق، أسفرت عن عشر سنوات من الصراع (من ٢٣٠ ق.م إلى ٢٢١ ق.م)، كانت كافية لالتهام وهضم الولايتين المتبقِّيتين أثناء ولايته كمَلِك على الإمارة: «يان»، و «تشي»، ومن أجل التأكيد على حكمه الوحيد، أطلق على نفسه «تشين شي هوانغدي»، (إمبراطور تشين الأول)؛ معتقدًا أن حكم تشين سيستمر للأبد؛ ليصبح من بعده لقب هوانغدي المُشتق من الأساطير الصينية؛ هو لقب الحُكام اللاحقين(98)، وتم توحيد الصين لأول مرة تاريخيًّا على يد تشنغ، وعُدَّت تشين كأوّل إمبراطورية إقطاعية موحدة ومتعددة القوميات.

كان من أهم التحديات التي قابلت «ينغ تشنغ»؛ هي إخضاع الأقليات المتعددة تحت مظلة حكم شمولي موحد، وعندما قام بتوحيد المناطق الساحلية الجنوبية الشرقية لمقاطعة قوانغدونغ، وقوانغشي، اصطدم بـ«قومية يو»، وهي إحدى الأقليات القومية القديمة التي كانت منتشرة على سواحل الجنوب الشرقي وحوض نهر اللؤلؤ، والتي كانت تعيش على الزراعة وصيد الأسماك، ومن أجل ضمِّها؛ أرسلت حكومة تشين ٥٠٠٠ مواطن في عام ٢١٤ ق.م؛ من أجل التوطين في هذه المناطق، للاختلاط والعيش مع الأهالي المحليين، وضمهم إلى كِيان الدولة الكبرى بعد ذلك(99) .

في نفس الصدد، وقبل هذا التوحيد وأثناء الاضطرابات السابقة؛ استغلت «أقلية شيونغنو القومية» هي الأخرى -التي كانت تقيم في الهضبة المنغولية في شمال البلاد-الصِّراعَ الدموي بين الدول السبع، وعزّزت قوتها واحتلت «سهول ختاو»، ومن وقت لآخر؛ كانت تُغِير على ولايات تشين، تشاو، يان، من أجل النهب، فاضطرت هذه الدويلات حينها إلى بناء أسوار عند حدودها الشمالية، وعلى الرغم من توحيد دويلة تشين للبلاد وظهورها كإمبراطورية إقطاعية أولى؛ واصلت قومية شيونغنو البدوية تهديدَ أمن البلاد الشمالي؛ فأرسل الإمبراطور جيشًا قوامه ٣٠٠ ألف جندي، بقيادة الجنرال «منغ تيان»، تمكَّن من التوغُّل في سهول ختاو وسحقهم، ومن أجل سدّ أي خطر قادم؛ أنشأت الحكومة هناك عددًا من المُدن، وهجّرت مجموعة من سكان البلاد لهذه المناطق.

في الوقت نفسه، أمر «تشين شي هوانغ» بتسخير الفلاحين لبناء جدار دفاعي متين يمر عبر الأسوار التي أقامتها دول تشين وتشاو ويان؛ بعد أن رممها وربطها ببعضها، وبعد إضافة امتدادات لها في الغرب والشرق، وهذا العمل الضخم هو «سور الصين العظيم» في شكله الأولي، وأشرف «الجنرال منغ» نفسه على هذا المشروع، كما كان مشرفًا على مشروع شقِّ طريق سريع مستقيم بطول ٥٠٠ ميل (٨٠٠ كم)؛ بين الشمال والجنوب(100) .

كانت الإمبراطورية الأولى التي كان مقرها في «شيانيانغ»، نظامًا ملكيًّا بيروقراطيًّا

مركزيًّا(د)، وهو نظام حُكم سيطر على مُستقبل الإمبراطورية الصينية بعد ذلك(101)، حيث اعتبروه محاولة لتحسين إخفاقات تشو الملحوظة، يتكون هذا النظام من أكثر من ٣٦ قيادة، مكَونة من مقاطعات وأقسام أصغر تدريجيًّا، لكل منها زعيم محلي، والتي أصبحت فيما بعد ٤٠ مقاطعةً، وكان يقوم الإمبراطور بنفسه بتعيين وعزل حكام المقاطعات والمحافظين الذين يجمعون الضرائب، ويتولون مهام ترتيب عمليات التجنيد والسُّخرة(102) .

كانت الحكومة المركزية للإمبراطورية تتألف من كبار المسئولين لمساعدة الإمبراطور في إدارة شئون الدولة، وكان لكل وظيفة اسم خاص بها، على سبيل المثال، «تشينغيانغ»: هو المسئول عن مساعدة الإمبراطور في أمور الإدارة، «يويشيدافو»: المسئول عن معالجة الوثائق الهامة ومراقبة الموظفين، «تايوي»: هو الجنرال المسئول عن الشئون العسكرية، «تينغيوي»: المسئول عن شئون القضاء والسجون، وكانت صلاحيات تعيين هؤلاء المسئولين وفصلهم بيد الإمبراطور وحده، وفي هذا الوقت الفاصل تم تشريع القوانين بشكل ملحوظ، بعد أن روّج لذلك الإمبراطور ومستشاره «شن لي سي»، استكمالًا للمشاريع القانونية التي قدَّمها «شانغ يانغ» في الوقت السابق، والتي كان لها مفعول السحر في التغلُّب على الدويلات الست(103) .

بناءً على ذلك؛ ظهرت قوانين صارمة لتسوية النزاعات، وتم نشر لوائح العقوبات ومسئوليات الأفراد المتبادلة، فكان إذا أخطأ فردٌ من عائلة أُخِذت العائلةُ بأكملها، بل أُخذ الجارُ بالجار، (وستتطور في عهد خَلفه بعد ذلك لتحتوي على حكم الإعدام، وقطع الأنف والقدم)، ويُلاحظ من بعض هذه القوانين حث الأفراد على العمل الزراعي وقمع التجارة، حيث عزَّز ملكية الأراضي الإقطاعية طوال الوقت(104) ، كما سَن تشريعات تُلزم كلًّا من المالكين والفلاحين بتسجيل الأراضي التي يملكونها، ودفع الضرائب حسب المنطقة المسجلة.

فرضت إمبراطورية تشين أعباءً ثقيلة على الناس، حيث كان يتحتَّم على الفلاحين تسليم ثُلثي محاصيلهم للحكومة كضرائب، بالإضافة إلى خدماتهم العسكرية والعمل في السُّخرة، وعمِلوا بجانب الفِلاحة في بناء أكثر من ١٤٠ مجموعةً من القصور التي شُيدت في شمال العاصمة، وسُخر أكثر من ٧٠٠ ألف شخص لبناء «قصور أفانغ»، وضريح الإمبراطور، بالقرب من تشانغآن(ه) ، وهو العمل المذهل الذي تم اكتشافه في عام ١٩٧٤م، والذي يضم أكثر من ٦٠٠٠ قطعة من تماثيل لجنود وخيول، على الجانب الشرقي من قبر الإمبراطور «تشين شي هوانغدي»، وعليك أن تتخيل أنَّ في الوقت الذي كان عدد سكان دولة تشين لا يتجاوز عشرين مليونًا؛ تجاوز عدد المسخَّرين لبناء القصور، والضريح، والسور العظيم، وحراسة المناطق الحدودية؛ أكثر من المليون ونصف المليون، بالإضافة إلى النساء اللاتي أُجبرن على نقل الإمدادات العسكرية(105) .

وجهة النظر التقليدية السائدة عن «تشين شي هوانغ» في التاريخ الصيني؛ تنظر إليه على أنه ديكتاتور عظيم، قمَع العلماء ودفَنهم أحياء وأمر بحرق كُتبهم؛ تحت ستار الشرعية، خاصةً «الكونفوشيوسيون» الذين برزوا في هذا التوقيت، وعارضوا الشكل الإقطاعي ونظام المحافظات،

وقاموا بنشر الكتب القديمة للتنديد بهذا النظام، وخوفًا من تأثير هذه المعارضة على مستقبل الدولة الإقطاعية؛ قرر كبير الوزراء «شن لي سي» إطلاق حملة ضد الكونفوشيوسية، مما أدى إلى حرق كافة السجلات والكتب التاريخية المتداولة بين الناس؛ بما في ذلك مؤلفات الـ «مائة مدرسة»، وترك السجلات التاريخية لولاية تشين فقط، وفي العام التالي اعتقلوا أكثر من ٤٠٠ كونفوشيوسيًّا وتمّ دفنهم أحياء، لكن من ناحية أخرى، هناك علماء معاصرين قد شككوا في هذه الرواية، وما زال الأمر محل نقاش(106) .

من ناحية أخرى، بسبب نظام الإمبراطورية الديكتاتوري عانى عامة الشعب الذين شكلوا أكثر من ٩٠٪ من السكان من مُعاملة طبَقِية قاسية(107) ، بسبب تجنيدهم طول الوقت قسريًّا للعمل على مشاريع البناء في الإمبراطورية.

الثقافة والعلوم

لم يكن عُمر سلالة تشين أكثر من ١٥ عامًا فقط؛ وهي بذلك أقصر سلالة رئيسية حاكمة في تاريخ الصين، ولم يتولَّ العهد فيها إلا إمبراطوريين فقط، بالإضافة إلى إمبراطور ثالث تسلَّم في مرحلة الانهيار لمدة ٤٥ يومًا فقط، وبرغم ذلك ظهر فيها بعض الأعمال النَّاهِدة؛ كتوحيد الأوزان والمقاييس والمكاييل، والتي تم تطبيقها في عموم البلاد، وكذلك أساليب الكتابة التي كانت تسمَّى خط الختم (شياو تشوان المبسط)، والعملة المَعْدنية التي كانت تسمّى (بان ليانغ)(108) .

كما تعتبر إمبراطورية تشين هي أول نظام صيني ملكي بيروقراطي مركزي، وهو نظام حُكم سيسيطر على مستقبل الإمبراطورية الصينية بعد ذلك(109)؛ لذلك عُرفت إمبراطورية تشين بترتيباتها النظامية، فكان من الطبيعي تواجد سجلات شاملة عن السكان، متضمنة الجنس والعمر والعمل والإقامة والحالة الاجتماعية والإعالة(110).

ظهرت في هذا العهد القصير أعمال معمارية مذهلة، كقصور شمال العاصمة، وقصور أفانغ؛ وضريح «تشين شي هوانغدي»، وتم إنشاء نظام ضخم من الطرق السريعة في عام ٢٢٠ ق.م، والتي تراوحت حوالي ٤٢٥٠ ميلًا (٦٨٤٠ كم) إجمالًا(111)، وغالبية هذه المشاريع الكُبرى كان مشرف أرؤُسها الجنرال «منغ تيان»، الذي هو نفسه مَن قاد حملة ناجحة ضد شعوب شيونغنو الشمالية وسحقهم(112) ، وهو ذاته من دمَج العديد من الجدران القديمة فيما أصبح يعرف لاحقًا باسم «سور الصين العظيم» الذي يُعتبر من الإنجازات العظيمة لسلالة تشين. وكان الجنرال «منغ» أيضًا هو مَن أشرف على مشروع شقِّ الطريق السريع المستقيم، بطول ٥٠٠ ميل (٨٠٠ كم)؛ بين الشمال والجنوب(113) ، ولعلّ فترة ١٥ عامًا لكل هذه الإنجازات يُعتبر وقتًا قياسيًّا؛ مما يعكس قساوة السُّخرة التي ساقت الناس للجحيم وهم أحياء.

جيشُ التيراكوتا العظيم من الطين بضريح الإمبراطور «تشين شي هوانغدي».

تتجلَّى عظَمَة هذا العمل في استحالة وجود جندي يُشبه الآخر.

انتفاضة تشن شنغ ـ وو قوانغ

تم تدمير الإنتاج الاجتماعي بسبب سياسات هذه الحقبة؛ التي تخص المؤسس «تشين شي هوانغ»، وخليفته الإمبراطور الثاني «تشين إير شي» (٢١٠ق.م - ٢٠٧ق.م)، وانغمست غالبية العامة في حُجْر الفَقرِ، وظهر العداء الطبَقي الحاد بين الحكام الإقطاعيين والفلاحين، وكان الإمبراطور الثاني حاكمًا ضعيفًا، يراه التاريخ الصيني بأنه رمزٌ للأطفال المدلَّلين، الذين نشئوا على يد آباء أثرياء، والذين يكبرون مع القليل من القيم الأخلاقية أو المهارات اليومية، وربما دون ذلك كله (114) .

وبرغم ضعف الإمبراطور وبذَخه؛ فإنّ الممارسات القَسْرية وأعمال السُّخرة لم تتوقف في عهده، وقد أفرزت هذه الممارسات القسرية ما حدث في شهر يوليو من عام ٢٠٩ ق.م(115) .

تبدأ القصةُ عندما صدَر أمرٌ باقتياد ٩٠٠ فلاحٍ فقير؛ إلى السور العظيم في موقع يويبانغ (مقاطعة ميون بالقرب من بكين)، وعندما كانت القافلة في الطريق، وتحديدًا عند مرورها منطقة دتسهشيانغ من محافظة تشيشيان، باغتتهم الطبيعة؛ وهطلت أمطار غزيرة تسبَّبت في انقطاع الطريق، مما حال دون وصولِ القافلة في وقتها المحدَّد، كان هذا التأخير جريمة جاثمة؛ يُعاقِب

عليها القانون بالإعدام، وعندما اجتمع العريفان «تشن شنغ»، و«وو قوانغ»، اللذان كانا من النخبة الإمبراطورية التي تقود القافلةَ؛ واللذان كانا يُخططان للتمرُّد في الأساس، أدركا أن الوصول إلى يوبيانغ متأخرين (يؤدي إلى الموت)، وكذلك الهروب (يؤدي إلى الموت)، أما التمرُّد فهو أيضًا (يؤدي إلى الموت)، فقرَّرا أن الموت في التمرُّد هو أفضل الخيارات السيئة(116) .

حينها بدءَا في خُطة تمرُّد مقدمتها قتل ضابطين ممن كانوا معهما، وصرخ العريف المتمرد «تشين شنغ» في الفلاحين لِحثِّهم على الحراك، فتحمَّس الجميع ورفعوا راية الانتفاضة، وبرغم أن سلاح الفلاحين كان النبوت، لكنهم أقسموا على إسقاط الحكم، واشتعلت أول انتفاضة فلاحية في تاريخ الصين(117) .

حرب الفلاحين الأولى في تاريخ الصين

تمكَّن الثائرون من جمهرة الكادحين، واستولت قوات الانتفاضة على دتسهشيانغ؛ ثم محافظة تشيشيان كاملةً، وتوغلوا في مناطق المحافظات المجاورة، وقاموا بحشد الفلاحين من كل حدَبٍ وصَوْبٍ يمرون عليه، وفي خلال شهر واحد تعاظمت قوتهم العسكرية؛ لتحتوي على حوالي من ستمائة إلى سبعمائة مَركَبة عسكرية، وأكثر من ألف فارس، وعشرات الآلاف من المُشاة، وعلى أرض محافظة تشيشيان قامت أول سلطة لدولة المعارضة، وأرسل «تشين شنغ» و«وو قوانغ» رُسلَهم إلى مناطق شمال النهر الأصفر، وشبه جزيرة شاندونغ، وحوض اليانغتسى، لحثِّهم على الانضمام للحراك الثوري، فهبَّ الفلاحون في معظم ولايات هذه المناطق، وأَجْهَزوا على الولاة المحافظين وقتلوهم، وقاموا بالاستيلاء على المُدن الرئيسية(118) .

مُلصَق تعليمي صيني يُصوِّر انتفاضة «تشين شنغ» و«وو قوانغ».

توحّدت المناطق الثائرة، وضمت الثائرين الكَتِف طَرَف الكَتِف، وزحفوا بسرعة حتى وصلوا إلى ما قبل العاصمة بخمسين كيلومترًا، وصلت أخبار التقدُّم إلى الإمبراطور الثاني المُدلل «تشين إير شي»، الذي ارتعب من هَوْل ما سمع، وبسبب عنصر المفاجأة؛ لم يتمكَّن من تجميع قواته بالسرعة المطلوبة، فأمر العاملين في بناء الضريح بترك ما في أيديهم وحمل السلاح، وعين قائده «تشانغ هان» لقيادتهم في هجوم مضاد استمر شهرين، وفي النهاية، هُزم العَريفَان، وقُتل «وو

قوانغ» على يدِ أحد المتآمرين، ثم هاجمت قوات الإمبراطور محافظة تشيشيان، وبينما كان الرفيق «تشن شنغ» يقودُ قواته لمواجهة الهجوم؛ اغتاله سائقُ عرَبته في مؤامرة دبرها قصر الإمبراطور؛ لتنتهي الموجة الأولى من الثورة بالسَّحْق(119) .

برغم موت الرفيقَين الثائرين والكثير من الفلاحين الكادحين؛ اشتَعَلت المقاومة مجددًا، وانتقل لواء القيادة إلى «ليو تشن»، أحد ضباط الانتفاضة المقربين من المُغتال «تشن شنغ»، فتمكَّن من إحباط الهجوم المضاد، واستعاد محافظة تشيشيان، وأحضر سائق العربة الخائن الذي اغتال «تشين شنغ» إلى الساحة، وقتَله نظير خيانتِه، واتَّحد مع باقي الثائرين لمواصلة النِّضال، ورفع الجميع اسم قائدَي الثورة المغتالَين، «تشن شنغ»، و«وو قوانغ»؛ وقدَّسُوا فكرتهما.

زادت شوكة الموجة الثانية من الثورة، وانضمت إليهم بعد ذلك قوتان عظيمتان، دخلتا السِّباق أخيرًا لحسم المعارك؛ الأولى قادها «ليو بانغ»، وكان موظفًا صغيرًا في عائلة تشين، والثانية قادها «شيانغ يوي»، وكان نبيلًا من عائلة أرستقراطية في ولاية تشو؛ تمرد مع عمه «شيانغ ليانغ» ضد أسرة تشين بـ«موقعة وو»، في سبتمبر ٢٠٩ ق.م، ومع حلول عام ٢٠٧ ق.م؛ تمكَّنت قوات الثاني من هزيمة القوات الرئيسية لأسرة تشين بقيادة «تشانغ هان» بعد استسلامه في معركة جولو، وتم أسر ٢٠٠ ألف جندي ودفنهم أحياء، كان هذا بسبب خوف «شيانغ يوي» من التمرُّد ضده(120) .

الانهيار ونهاية الحكم

على الرغم من هذه الهزائم الكبيرة، لم يأخذ الإمبراطور الثاني خبر الهزيمة على مَحمَل الجِدِّ؛ لأنه كان موهومًا بسبب ادعاءات وزيره الأكبر والأكثر ثقة: «زهاو قاو»، بأنهم يمتلكون أكثر من مليون جندي، وأن تشانغ هان (المستسلم دون علم الإمبراطور) قادرٌ على سَحْقِ التمرد، لكن بعد ورود خبر هزيمة معركة «جولو» ودفن الجنود، اعترَف «زهاو قاو» بالحقائق المُرة للوضع المؤسِف، وكان يعتقد أن الملك سيلومه أو يوبِّخه فقط لقُربه منه، لكن لم يتمالك الإمبراطور غضبه؛ وأمر بقتل زهاو، لكن باغته زهاو وحاصره مع خادمه ومجموعة من الحرس؛ وأجبره على الانتحارِ، وأثناء الاحتضار سأل الإمبراطور الخادم عن سبب إخفاء الناس الحقيقة عنه، فرد الخادم متأثرًا: لقد أمَر زهاو بإعدام كل من يُخبر جلالتك بالحقيقة(121) .

على كل حال، مات الإمبراطور مُنتحرًا بالإجبار في عام ٢٠٦ ق.م، وتسلَّم في هذه الظروف الصعبة الإمبراطور الثالث والأخير «تشين سان شي» لمدة ٤٥ يومًا فقط، وهو ما يُشبه الوقت الضائع غير المحتسب، حيث كانوا كافيين لوصول القوات الأولى التي قادها الموظف السابق «ليو بانغ»؛ من أجل اقتحام العاصمة وقتله، وسيطرة القوات على عاصمة أسرة تشين معلنةً زوالها النهائي، وفي هذا الوقت قرَّر القائدان «ليو بانغ»، و«شيانغ يوي»، تَقاسُم سلطة الإمبراطورية، فأصبح شيانغ ملقبًا باسم «ملك تشو الغربية المسيطر»، أما «ليو» فأصبح لقبه «ملك

الهان»(122) .

بعد وقت بسيطٍ نَشِب الخلاف بين الحاكمين الجديدين، وطمِع كلٌّ منهما في مكاسب الآخر، فاندلعت «حرب تشو-هان»، والتي استمرت لمدة أربع سنوات بين «شيانغ يو»، و«ليو بانغ»، وانتهت بانتصار الأخير، باسم أُسرة هان الغربية، بعد صراع دام ٤ سنوات(123) .

* * *

٢- الإمبراطورية المتقدمة

(العصر الذهبي الأول)

اعتبر العلماء عهد سُلالة «هان» عصرًا ذهبيًّا أولًا في تاريخ الصين؛ لما أنتجَته من إصلاحات اقتصادية وتطورات علمية وثقافية، وحدَّدوا ذروة هذا العهد المميز في ٥٤ عامًا من حكم السلالة (١٤٠-٨٧ ق.م)،كانوا تحت حكم الإمبراطور «هان وو دي».

* * *

تأسست «أُسرة هان» الحاكمة في عام ٢٠٢ ق.م؛ على يد المنتصر «ليو بانغ»؛ بعد الغلبة في «حرب تشو - هان الأهلية»، التي أعقبت سقوط أسرة تشين، وأصبحت إمبراطورية الهان الغربية موحِّدة للصين مجددًا، وأطلق «ليو بانغ» على نفسه لقب الإمبراطور «هان قاوزو تسو هان»؛ («غاوزو» في ترجمات أخرى).

لوحةٌ بورتريه للإمبراطور «قاوزو» صمَّمها فنانٌ من سُلالة «تشينغ» في القرن الثامن عشر.

حكم قاوزو الإمبراطورية على نفس نهج الإمبراطورية الإقطاعية المُحَلّة، لكن بعد وقتٍ قصير، شرَع في إجراء تعديلات تُناسب مصالحه الإقطاعية وتُجنبه مصير السابقة، خاصةً بعد ما استنفذت الحروب كمية هائلة من ثروات الإمبراطورية، حيث حدَث ركود اقتصادي؛ تَبِعه ارتفاع حادٌّ في الأسعار، وانتدح الفقر بين الرعايا بشكل ملحوظ، وكمحاولة لمحاربة الانهيار؛ طرح «لو جيا» مستشار الإمبراطور خطته بمحاولة تفادي أخطاء السابقين، ولفت انتباه الإمبراطور إلى أن السلطة العسكرية وحدها لا تكفي، فيجب تعديل القوانين لتحقيق الاستقرار وتعزيز سلطة الإمبراطورية، واستشهد بأن الناس كانوا يعانون خلال أسرة «تشين» من استغلال اقتصادي قاسٍ وفظيع؛ واضطهاد سياسي على يدِ الطبقة الحاكمة، وبرغم استحكامات السابقين فقد انتفض الناس وتحدّوا القوانين، وعندما قامت «أسرة تشين» بقَمعهم، لم يُزِد ذلك إلا اشتداد المقاومة؛ لذلك يجب النظر في وضع سياسة تقوم على تطوير الإنتاج الزراعي كوسيلة أساسية للتصدِّي للانهيار الاقتصادي، وتغطية احتياجات الناس. في النهايةِ تفهَّم الإمبراطور أُطروحاته، وشرَع في إصدار قوانين جديدة(124) .

على أساس هذا المُقترح، سَنَّ الوزير الكبير «شياو خه» قانونًا اشتق جزءًا منه من قوانين تشين نوعًا ما؛ مع إضافة بعض التعديلات حتى تقيَهم تمرُّد الرعية، وهو قانون خاص بالضرائب والعمل القسري والتجنيد الإجباري وغيرها من الأمور المتوترة، والمعروف باسم «قانون الأبواب التسعة»، لكن برغم محاولة هذا القانون معالجة الأمور الاقتصادية؛ وإرضاء الناس بدلًا من قمعهم؛ فقد تم فرض أعباء جديدة على الشعب، حيث نصَّت الأبواب الأربعة الخاصة بما ذُكر على ما يلي(125):

أ - ضريبة الأراضي الزراعية وكانت بواقع ١/١٥ من الإنتاج، تم البث فيها لاحقًا وتخفيضها إلى ١/٣٠، وتستخدم عائداتها لتغطية نفقات الدولة.

ب- ضريبة الرأس: وتُفرض على المواطنين بنسبتين؛ الأولى: لمن تتراوح أعمارهم بين ٧ سنوات و١٤، والثانية: لمن تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٥٦ عامًا، وتستخدم عائدات هذه الضريبة لتغطية النفقات العسكرية.

ج- السُّخرة: تُفرض على الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين ٢٣ و٥٦ سنة، وتشمل بناء المدن والقصور، وحفر قنوات الري، وتمهيد الطرق، وإقامة المقابر الإمبراطورية، ومدتها شهر واحد كل عام، ومن يدفع تعويضًا نقديًّا يُعفَى من السُّخرة.

د - التجنيد الإجباري: يجب أن يتراوح عُمر كل رجل بين ٢٣ و٥٦ سنة، ومدة الالتزام به عامين، يقضي أحدهما في مسقط رأسه والآخر خارجه.

كذلك خلق قانون «شياو» نظامَ مسحٍ للحقول، وفرض الرسوم الزراعية من قِبل المسئول المالي «تشانغ تسانغ»، كما طبَّق «شياو» تنفيذ نظام التسجيل السكاني الذي يحظر حرية حركة الفلاحين وبعض مُلاك الأراضي وصغار الموظفين، وأجبروا أولئك الذين تركوا أراضيهم على العمل

القسري لدى السلطات المحلية بوصفهم أقنانًا(و).

على الرغم من أن الكادحين كانوا طامعين في حياة أفضل، لكن جلب النظام القانوني الجديد الذي أنشأه «شياو خه» بعضَ التحسُّن في حياة الكادحين؛ مقارنةً بظلم عائلة تشين(126) .

وكالأسرة السابقة، واجهت «أسرة هان» نفس التحديات التي تعوقُ توحيد البلاد، والمتمثلة في ضم القوميات والعرقيات المتعددة، ففي هذه الأثناء تصاعد نفوذ الاتحاد القبلي البدوي تحت حكم «إمبراطورية شيونغنو» المشاغبة؛ شمال سور الصين العظيم، فشَنَّ الإمبراطور «قاوزو» حملات عسكرية كبرى من أجل الحدِّ من نفوذ هذا الاتحاد، وبعَث إليهم جيشًا قوامه نحو ٣٢٠ ألف جندي في شتاء عام ٢٠٠ ق.م، لكن هؤلاء الجنود كانوا ضحية كمينٍ مُحكم، وتم قطع الإمداد عنهم لمدة سبعة أيام في «معركة بايدنغ»، حاول الإمبراطور إنقاذ المحاصَرين؛ لكنه لم ينجح، ثم أدرك أن حكومته لا تزال غير قادرة على مواجهة هذا العدو، فاضطر إلى التراجع والمساومة، ومع تلطيف العلاقات وجهودهم لوقف الغارات الحدودية؛ أرسل لهم الإمبراطور نساء عاديات عشوائيات لا علاقة لهُن بلقب «أميرات»، وأعضاء من عائلة «هان» الإمبراطورية عدة مرات؛ في محاولات للصهر والنسب والاندماج وبصحبتهم الهدايا القيمة، لكن قادة شيونغنو طالبوا بالزواج من قَصر الإمبراطور نفسه(127) .

في عام ١٩٨ ق.م رضَخ الإمبراطور لمطالبهم، وزوَّج أميرة هان من «تشانيو» (تسمى هيكين)، بالإضافة إلى الهدايا الدورية لشيونغنو من الحرير والمشروبات المقطرة والأرز، ووعود بوضع متساوٍ بين الولايات، والاعتراف بالجدار الحدودي كحدود متبادلة، وأبرم معهم اتفاقية تجارية تنص على استبدال حرير المدن الداخلية بالماشية والفراء في منطقتهم، وبهذه التنازلات حاول الإمبراطور الحدّ من هجمات شيونغنو، وفي نفس الوقت، وطَّد جهود الدبلوماسي والمُستكشف السياسي «تشانغ تشيان»، وعيَّنَه كمبعوثٍ إمبراطوري إلى العالم خارج الصين، ليمتد نطاق نفوذ إمبراطورية هان إلى الدول في حوض تاريم، كذلك فتح طريق الحرير الذي يربط الصين بالغرب؛ مما حفَّز التجارة الثنائية والتبادل الثقافي.

أما في الجنوب، فبعد وفاة «قاوزو» في عام ١٩٥ ق.م؛ تمكن خلفاؤه من دمج العديد من الممالك الصغيرة البعيدة عن وادي نهر يانغتسي رسميًّا في الإمبراطورية، كما شُنت سلسلة من الحملات العسكرية ضد قبائل «بايبو»؛ تلك المجموعات العِرقية المختلفة التي سكنت مناطق جنوب الصين وشمال فيتنام خلال الألفية الأولى قبل الميلاد والألفية الأولى بعد الميلاد (128) ، كما قامت إمبراطورية هان بضم «مينيو» في عامي ١٣٥ ق.م و١١١ ق.م، و«نانيوي» في عام ١١١ ق.م، و«ديان» في عام ١٠٩ ق.م (129) ، أدت هذه الحملات العسكرية؛ وكذلك الهجرات إلى الاستيعاب الثقافي للجنوب الصيني ودمجه(130) ، كما أنها جعلت الهان على اتصال مع ممالك في جنوب شرق آسيا، وظهرت أشكال الدبلوماسية، وأساليب التجارة الحديثة(131) .

كانت الأساسات التي وضعها الوزير النَّشِط «شياو خه» قبل وفاته -في بداية التأسيس- متوارثة

ومعمول بها في هذه الأجيال المُتلاحقة، فكانت إصلاحاته الأولى التي شدَّدت حينها على تطوير الإنتاج الزراعي قبل أي مجال آخرَ، واقتراحه الناجح بجعل العمل في بناء مدينة تشانغآن - عاصمة أسرة هان الغربية - مقتصرًا فقط على مواسم الفراغ من الزراعة الموسمية لهما مفعول السحر، وعلى هذا المنوال استمرت سياسة الأباطرة الأوائل، واستمرارًا للاهتمام بالزراعة كان الأباطرة في بداية هذه السلالة مهتمين بالإنتاج الزراعي وتربية دودة القَزِّ، فقد حث الإمبراطور «هان جينغ دي» (حفيد الإمبراطور الأول قاوزو) على العمل الزراعي وتربية دودة القز، حتى وصف زراعة الحبوب والحرير والكَتان بأنها أهم من إنتاج الذهب واليشم والمجوهرات(132) .

بهذا الشكل حققت الزراعة تقدمًا ملحوظًا في بداية هذه السلالة وحتى عهد «جينغ دي»، حتى اكتظت مخازن الدولة بكميات هائلة من احتياط الحبوب، وزاد المال؛ وبلغ الرخاء الاقتصادي ذروته في وسط هذه الأسرة، وبشكل أدق حدد العلماء هذا العصر المتطور على أن ذروته كانت زهاء ٥٤ عامًا (١٤٠-٨٧ ق.م)، كانوا تحت حكم الإمبراطور «هان وو دي»، فبعد سياسات عدم التدخل الأولية للإمبراطورين الخامس والسادس لهذه السلالة «وين» و«جينغ»، أوصَل الإمبراطور السابع الطموح «هان وو دي» الإمبراطورية إلى ذروة نجاحها، وكنوعٍ من أنواع تعزيز السلطة، حرَّم غالبية أقاربه الإمبراطوريين من حقوقهم، وعيَّن حُكامًا عسكريين للسيطرة على أراضيهم السابقة(133) .

من أهم الخطوات البارزة التي اتبعها الإمبراطور «هان وو دي»؛ رعايته الواضحة للكونفوشيوسية، التي تؤكد على الاستقرار والنظام في مجتمع جيد التنظيم، وقد بُرر نجاحه على أنه تنفيذ لسياسات الوزير الكبير «دونغ تشونغ شو» في المجال الثقافي والديني، حيث عرف هذا الوزير باهتمامه البالغ بالفكر الفلسفي والديني، وقد أنشأ لحساب الطبقة الحاكمة مجموعة كاملة من الرؤى المستمدة من الكونفوشيوسية، والتي أكَّد فيها أن الإمبراطور يجب أن يتصرف وفقًا لوحي من السماء، بعد أن تم وهبه «سياسة العطف على الجماهير»، ومكافئته بمنحه محصولًا زراعيًّا أعلى، وروَّج لفكرة «التواهب بين السماء والإنسان»، وكان غرضه من ذلك ظهور الإمبراطور داخل منظور الأُلوهية، لترسيخ حكمه وحمايته من ردود الفعل الشعبية، كان هذا متوافقًا مع ما تقوله الكونفوشيوسية المُعدلة على هوى السادة بالضبط، ولتلبية هذه الحاجة؛ تم إنشاء الجامعات الإمبراطورية لدَعم دراستها؛ وعدد كبير من المدارس لكي يُدرس فيها الكُتب الكونفوشيوسية، التي لم تكن منتشرة في جميع أنحاء المجتمع الصيني، وتم منع تعميم المدارس الأخرى، وعلى يديه أصبحت الكونفوشيوسية مع الوقت أيديولوجية المجتمع الصيني الإقطاعي لأول مرة، وتم رفعها رسميًّا إلى مرتبة الأرثوذكسية(134)

بلا شك يعتبر المؤرخون الصينيون أنّ هذا الوقت هو العصر الذهبي في التاريخ الصيني، حيث عززت فترة الاستقرار والازدهار الطويلة التي عاشتها «أسرة هان»؛ أساس الصين كدولة موحدة؛ في ظل بيروقراطية إمبراطورية مركزية، والتي كان من المقرر أن تستمر بشكل متقطع

طوال معظم الألفي عام التالية.

في هذا العهد (خاصة عهد وو) ظهر الازدهار في كل أركان الإنتاج، فتَلْعْلعَت صناعة النسيج وتطوَّرت بسرعة؛ خاصة صناعة الحرير، وانتشر استخدام الخيول والأبقار للحرث على نطاقٍ واسع، من بحر «بوهاي» إلى ممرات «خشي» في مقاطعة قانسو، ومن السور العظيم إلى نهر يانغتسي، وتطورت الأدوات الإنتاجية؛ فظهرت الأدوات الحديدية واندثرت الأدوات البدائية، بما في ذلك المحراث الحديد، ذي الطول البالغ ٤٠ سم وعرضه ٤٢ سم، كما تم إنشاء مشاريع الري في جميع أنحاء البلاد، بما في ذلك مشروع «قناة تشنغقوه» الذي كان يتكون من مجرًى رئيسي؛ يتفرع من أعلاه ست تُرع لري الحقول، ومن الأسفل «قناة بايتشيوي» التي يبلغ طولها ١٠٠ كم، فتلألأت الفنون الزراعية (135) .

في هذه الأثناء كثر الانزعاج القادم من قومية شيونغنو بعد خرق الاتفاقات التي أبرمها الجد الأكبر، حيث قرّر الأرستقراطيون الغاضبون هناك مواصلة غاراتهم على مناطق الشمال النائية؛ طمعًا في حصد نصيبٍ أكبر من هذه الخيرات، كان هذا تحديًا كبيرًا للإمبراطور «وو»، فالآن أصبحت الظروف السياسية والمادية متاحة لشن الحرب ضد هذه القبيلة الخطيرة، فبدأت سلسلة من المعارك العنيفة طويلة الأمد، بلغت ذروتها عام ١١٩ ق.م، عندما أرسَل لهم جيشين عتادهما ١٠٠ ألف فارس، ومئات الآلاف من المشاة بقيادة «وي تشينغ»، و«خيو تشيوي بينغ»، وبدأ القتال المرير، ودكَّ الجيشان حصون «شيونغنو»، بعدها أمر الإمبراطور «وو» بتهجير أكثر من مليون شخص إلى مناطق ممرات «خشي» و«خوتاو»، بعد تأمينهم من فلول العدو، وزُرعت هذه الأراضي البور لأول مرة آنذاك، كان هذا انتصارًا حاسمًا؛ لكنه لم يكن القضاء النهائي على شيونغنو، بسبب الصعوبة المستقبلية لخلفاء الإمبراطور في إبقاء قوات خاصة هناك(136) .

خلال عهد أسرة هان، امتد النفوذ إلى معظم أراضي الصين وإلى مناطق أقصى الغرب، وعلى يد «وو» تم شق الطريق إلى المناطق الغربية من الصين ودمجها في الكيان الإمبراطوري، وظهرت جولات سياسية إلى البلاد التي كانت تسيطر عليها قومية شيونغنو المهزومة، كانت هذه الجولات بمثابة تطورٍ جديد في المجالات الاقتصادية والثقافية والتجارية؛ وتنمية العلاقات بين أسرة هان ودول غرب الصين، وبعدها تمَّ نقل تقاوي بذور الكروم والجزر والجوز من غرب الصين إلى تشانغآن، وتم نقل المنسوجات الحريرية والأدوات الحديدية من تشانغآن إلى غرب الصين، ومنذ هذا الوقت تم نقل الحرير الصيني عبر المناطق الغربية إلى ما يعرف حاليًا بإيران وغرب آسيا وأوروبا الرومانية، حيث تم افتتاح «طريق الحرير» المعروف؛ بين الصين وغرب آسيا وأوروبا، ولاحقًا تمَّ ربط هذه المناطق الغربية بالحكومة المركزية؛ وبالتالي دخلت في دائرة التطور الحضاري لعموم الصين، ومع التأثيرات العميقة والدائمة لهذه الفترة من التاريخ الصيني، تم اتخاذ اسم أسرة «هان» كاسم للشعب الصيني وقتها، الذي أصبح الآن المجموعة العِرقية المهيمنة في الصين الحديثة، وكان يستخدم بشكل شائع للإشارة إلى اللغة الصينية وشخصيات

مكتوبة(137) .

الثقافة والعلوم

خلال غالبية حكم أسرة الهان الغربية؛ ازدهرت الفنون وارتفعت الثقافة ووصلت العلوم إلى مستويات غير مسبوقة، ولعل السبب الرئيسي هو النمو السريع لقوى الإنتاج الاجتماعي وتعزيز الاتصالات بين القوميات الصينية، وتطور النشاط العلمي والثقافي في مختلف مجالاته على المستويين النظري والتِّقني؛ بالتبعية بعدما ازدهرت الفنون الزراعية.

في مجال الزراعة: بسبب التطور الفائق؛ ظهرت مؤلفات تتناول التجارب التي استوعبها المزارعون أثناء الإنتاج، مثل كتاب «تشي تشنغ تشي»؛ الذي يُعد من أقدم الكتب الزراعية في الصين، وكتاب «الأساليب الزراعية للفلاحين» الذي ظهر في عصر لاحق، ليتضمنَ المواضيع التي يُغطيها كتاب «تشى تشنغ تشي» مع إضافة تطورات(138) .

وفي الرياضيات: ظهر كتاب «الحساب ذو الفصول التسعة «، وهو كتاب رياضي يحتوي على ٢٤٦ مسألةً رياضية، تُعلِّم الدارس كيفية قياس المساحة والبُعد، وكيفية حساب حجم حفر البناء، وسعة المخازن، إلى جانب العديد من المسائل الحسابية والجبرية والهندسية.

كما ظهر الورق في هذا الزمان لأول مرة، فقبل ذلك كان الناس يكتبون على شرائح من الخيزران أو الحرير أو الخشب، حتى عهد «أسرة هان الغربية»، حيث تم استخدام الورق المصنوع من ألياف الحرير- الورق الليفي - الذي أصبح مُستخدمًا على نطاق واسع حول العالم، وكان مَن اخترعه «تسلي رون» وهو عبدٌ مِن عبيد البلاط، بعد أن صنعه من ألياف النباتات، مستفيدًا من الخبرات السابقة(139) .

ومن أبرز رموز هذا العصر المؤلف «سيما تشيان»، الذي وَرِث التأريخ عن والده المؤرخ الرسمي آنذاك؛ حيث كان مسئولا عن تحرير الكتب التاريخية للدولة، استقال «سيما تشيان» من منصبه بعد سوء تفاهم مع الإمبراطور «هان وو دي»، فاعتكف لمدة عشر سنوات، لتأليف كتاب شامل عن تاريخ الصين، وهو الكتاب الشهير: «سجلات المؤرخ الكبير»، الذي يُغطي أكثر من ألفي عام بدءًا، (من صعود الإمبراطور الأصفر الأسطوري حتى الإمبراطور وو هان)، وهو أول تاريخ عالمي للعالم كما كان معروفًا لدى الصينيين القدماء(140) ، وقد ساعده في ذلك السماح له بالسفر لكل مكانٍ أراده داخل الإمبراطورية، ليجمع مادته من الحكايات الشعبية، وتحدث فيه عن الدور الكبير للانتفاضة الفلاحية، وأشاد بالشاعر الكبير «تشيو»، وأدان جرائم الأباطرة والمسئولين، بل وسَخِر من الإمبراطور «هان وو دي» نفسه بسبب شغفه بالخرافات، و كتاب :»سجلات المؤرخ الكبير» من المصادر التي اعتمد عليها كتابُنا هذا، وضم هذا الكتاب العريق ٧٠ مقالةً مخصصة للترجمات التي ضمت مشاهير الأطباء والعلماء والتجار والكهان، وغيرهم من الشخصيات الاجتماعية بما فيها العُتاة (141) .

وصول البوذية

ذكرنا من قبل أن المُعتقد الديني السائد في الصين في هذه الفترة والفترات السابقة؛ كان يركز على شين (التي تُترجم تقريبًا إلى «أرواح» أو «آلهة»)، وبين (التي تُترجم «الظلال»)، وتشير إلى العالم الآخر الذي اعتقدوا أن هؤلاء الآلهة يعيشون فيه (142).

كانت الممارسات والطقوس الدينية تُقام عادةً في الأضرحة المحلية والمناطق المقدسة، خاصةً التي تحتوي على مذابح قرابين، وأثناء ممارسة الطقوس والتضحيات كان يلزم لها أن تكون حواس جميع المشاركين والشهود باهتة وغير واضحة بالدخان والبخور والموسيقى، كان المُضحِّي الرئيسي يصوم ويتأمل قبل الأضحية لزيادة ضبابية حواسه، وزيادة احتمالية إدراك الظواهر الأخرى، وكان المشاركون الآخرون على استعداد مماثلٍ؛ ولكن ليس بنفس الصرامة، وبسبب تشويش الحواس مارس الوسطاء الروحانيون نشاطاتهم، فكان ممارسو هذا الفن يقعون في غيبوبة، أو يرقصون لأداء مهام خارقة للطبيعة، غالبًا ما يصل هؤلاء الأشخاص إلى السلطة نتيجة لفنِّهم المُتملق، فقد ذُكر أن «لوان دا»؛ أحد وسطاء أسرة هان، مُنح أكثر من ٢٠٠٠ أسرة كهدية، وكان مؤرخ الهان الشهير، «سيما تشيان»، والذي ذكرناه، يحتقر مثل هذه الممارسات، ويصفها بأنها خدعة حمقاء(143)

وعلى الرغم من أن تاريخ دخول البوذية إلى الصين أول مرة، غير محدد بشكل دقيق، وفيه اختلاف، لكن بلا شك أجمع العلماء على أن دخوله كان في عهد سلالة الهان الغربية، وقد قال الكثير منهم إنها دخلت في يومٍ ما من أيام القرن الأول من فترة حكم سلالة الهان، على يد المبشرين البوذيين الهنود؛ الذين قاموا بنشاطهم بهدوء وعلى استحياء(144) .

أما عن انتشارها وممارستها وتعاليمها فسوف نتحدَّث عنهم في موضعهم لاحقًا.

الانهيار ونهاية الحكم

بعد موت الإمبراطور «وو»، انزلقت الإمبراطورية إلى الركود والانحدار التدريجي، خاصةً من الناحية الاقتصادية لعدة أسباب، منها: وصول خزانة الدولة للضغط بسبب الحملات والمشاريع المفرطة التي قام بها «وو» قبل موته، فتطور الاقتصاد الإقطاعي في أسرة هان الغربية كان معتمَّدًا على النقل الكامل لملكية الأراضي من الفلاحين إلى المُلّاك، وبسبب التكاليف الباهظة لحملاته العسكرية وتوسعه الاستعماري، كان قد قام بتأميم العديد من الصناعات الخاصة، وأنشأ احتكارات حكومية مركزية يُديرها إلى -حدٍّ كبير- تجار سابقون، وشملت هذه الاحتكارات إنتاج المِلح والحديد والمشروبات الكحولية، بالإضافة إلى العملة البرونزية، استمر احتكار المشروبات الكحولية فقط من ٩٨ إلى ٨١ ق.م، حيث توقف عندما اكتسب فَصِيل سياسي يُعرف باسم «الإصلاحيين» نفوذًا أكبر في الساحة السياسية، عارَض هؤلاء الإصلاحيون الفصيلَ الحداثي الذي برز بوضوح وسيطر على سياسة البلاط في عهد «وو»، وفي النهاية؛ ومع المزيد من

الضغط تم إلغاء احتكارات الملح والحديد، وفي عهد خلفائه ظل إصدار العملات المَعدنية حِكرًا على الحكومة المركزية(145).

مع نهاية هذه الأسرة كان الذين يمتلكون مئات الآلاف من الحقول الخصبة في ازدياد سريع، وهم عبارة عن مُلّاك ونبلاء ومسئولين وتجار؛ تمكَّنوا من تكوين كتلة قوية، وقد دفع نفوذ هذه الكتلة إلى تمكينها من أن تكون هي القوة المهيمنة في المجتمع كله. أما الفلاحون الذين فقدوا أراضيهم؛ فقد أصبحوا إمّا أقنانًا أو مشردين، وبهذا الشكل زادت الفروق الطبقية إلى حدٍّ يُنذر بالخطر، في حين أدّى استحواذ عائلات النخبة على الأراضي إلى استنزاف القاعدة الضريبية تدريجيًّا، وخلال فترة الوصاية اللاحقة على «هوو غوانغ»، دافع الحداثيون التابعون للبلاط عن سياسة خارجية عدوانية وتوسعية، مدعومة بالعائدات الناتجة عن التدخل الحكومي الكبير في الاقتصاد الخاص، لكن الإصلاحيين قلبوا هذه السياسات، وفضَّلوا اتباع نهج حذِرٍ وغير توسُّعي في التعامل مع السياسة الخارجية، وإصلاح الميزانية بشكل مقتصد، وخفض معدلات الضرائب المفروضة على أصحاب المشاريع الخاصة(146).

من ناحية أخرى - كانت هناك انحدارات أخرى تسبب فيها ممارسات «عشائر القرين(زِ) « المختلفة، حيث أصبح لهم سيطرة متزايدة على سلاسل من الأباطرة غير الأكفاء، وبدت تخبطات واضحة في القصر، لا سيما في عهد أول إمبراطورة «وانغ تشنغ جون» (٧١ ق.م - ١٣ م)، وأخيرًا الإمبراطورة الأرملة الكبرى في عهد الأباطرة: «يوان» (حكم من ٤٩ إلى ٣٣ ق.م)، و«تشينغ» (حكم من ٣٣ إلى ٧ ق.م)، و«آي» (٧-١ ق.م) على التوالي، وخلال هذا الوقت؛ كان أقاربها الذكور يحملون لقب الوصي(147) .

بعد وفاة الإمبراطور »آي»، تم تعيين القرين «وانغ مانغ»، ابن أخ «وانغ تشنغ جون» وصيًّا على العرش، في عهد الإمبراطور «بينغ» (حكم من ١ ق.م - ٦ م)(148) ، وعندما توفي بينغ في ٣ فبراير ٦ م، تم اختيار «روزي ينغ» وريثًا للعرش، وتم تعيين «وانغ مانغ» ليكون بمثابة الإمبراطور الوصي بالنيابة عن الطفل، وفي ظل انتفاضات الفلاحين وتوترات البلاد؛ بعد أن وعد «وانغ» الجميع بالتخلي عن صلاحيته للوريث القاصر بمجرد بلوغه سن الرشد، في ١٠ يناير عام ٩٠ م؛ قرَّر وانغ اغتصاب العرش، وادعى أن تفويض السماء الإلهي دعا إلى نهاية أسرة هان؛ وبداية عهده المعروف بـ : «أسرة شين» (٩ م- ٢٣م)(149)

* * *

سلالة شين القصيرة

اختَلس «وانغ مانغ» (٥٤ ق.م - ٢٣م) السلطة العُليا من «أسرة هان»، وأعلن قيام أسرته الجديدة، وبرغم اغتصابه للعرش؛ فقد بدأ «وانغ مانغ» برنامجًا واسع النطاق لإصلاحات الزراعة والتعديلات الاقتصادية الأخرى، وقام بحظر العبودية وتأميم الأراضي، وأقدم على تدعيم حُكمه

بسَن قوانين سريعة، حاول من خلالها التخفيف من خطورة الوضع القائم بين الفلاحين ومُلّاك الأراضي، وكان أول قانون قد وضعه هو أن الأرض كلها ملك للإمبراطورية؛ لا يجوز بيعها أو شراؤها، وسمح لكل زوجين باستخدام بعض الأراضي من الحقول، وأصدر قانونًا بمنع بيع الأقنان، فكان هذا انتصارًا واضحًا للفقراء والكادحين(150) .

من أهم عثرات وانغ؛ إقدامه على صكِّ عملات جديدة، وكان لهذه الخطوة تأثير كبير على ضعف قيمة العملات المعدنية، بسبب تغيير فئات النقود أكثر من مرة؛ ومن ثمَ إصدارها بتسعيرات متغايرة؛ وتسبب ذلك في إفلاس الكثير من الناس، لكن فشل هذا الإجراء لم يؤثر على الفقراء منعدمي الأموال التي تغيرت حياتهم للأفضل؛ على قدر ما كان له تأثير بالغ على الأغنياء ومتوسطي المدخول(151) .

كما هو متوقع، اعترض الأغنياء، ووقفت ضده الأسر المالكة للأراضي؛ وضغط عليه الأرستقراطيين، فتراجع عن هذه القوانين بعد ثلاث سنوات فقط، فشعر الفقراء بالتخلي عنهم، فأصبحت كل الطبقات ناقمة على الإمبراطور، ومع هذا التخبط ظهرت بعض الإخفاقات التي زجت باسم وانغ، وأدى ذلك إلى عدم استقرار السلطة؛ فعمَّت الفوضى وانتفض المجتمع بكل طبقاته ضده، وأدت الانتفاضات إلى فقدان الأراضي، وعلى الرغم من أن هذه الإصلاحات أثارت معارضة كبيرة، وتسبَّبت في محاربة وانغ من مفاصل الدولة؛ إلا أن نظام وانغ واجه سقوطه النهائي بالفيضانات الهائلة، فقد أدى تراكم الطمي التدريجي في النهر الأصفر إلى رفع منسوب المياه فيه، وفشلت محاولات السيطرة على الفيضانات؛ حتى تسبب الطمي في انقسام النهر الأصفر إلى فرعين جديدين: أحدهما يصب في الشمال والآخر إلى الجنوب من شبه جزيرة شاندونغ(152) .

أدى الفيضان إلى طرد الآلاف من المزارعين الفلاحين، ونزوح أعداد كبيرة منهم تاركين الأراضي، كان هذا الوضع مناخًا جيدًا للمتمردين؛ الذين تمركزوا في الغابات؛ ولذلك أطلقوا على أنفسهم اسم: «جيش الغابات الخضراء»، وانغمس هذا الجيش في نهب خيرات الحكومة وإعادة توزيعها على الفقراء، فاستقطبوا المزيد من الكادحين؛ وانضم الكثير منهم إلى قُطّاع الطرق المتجوِّلين والجماعات المتمردة، وفي مقاطعة جيويشيان في مقاطعة شاندونغ ظهر تمردًا آخرًا قاده «فان تسونغ»، سُمي باسم «جيش الأهداب الحمر»؛ لأن مقاتليه كانوا يصبغون رءوسهم باللون الأحمر، وهؤلاء كانوا متخصصين في الرد على انتهاكات الإقطاعيون ومحاربتهم(153) .

«وانغ مانغ»، الإمبراطور الأول والأخير لأسرة «شين» الصينية القصيرة.

كانت جيوش «وانغ مانغ» غير قادرة على قمع هذه الجماعات المتمردة بشكل واسع المدى، وانتهت الانتفاضات باقتحام حشد من المتمردين قصر «وييانغ»، وأقدم المتمردون والفلاحون الغاضبون على قَتلِ الإمبراطور «وانغ مانغ» في عام ٢٣ م، لتنتهي بذلك أسرة شين القصيرة(154) ، والتي استمرت ١٤ عامًا فقط، وهي تُعد أقصر سلالة حاكمة في تاريخ الصين،

حيث إنها أقصر بعام واحد من سلالة تشين أصحاب الإمبراطورية الأولى، والفرق بينهما أن هذه السلالة هي «أقصر سلالة غير رئيسية حاكمة»، أما سلالة تشين فهي «أقصر سلالة رئيسية حاكمة»

في هذا الوقت، قدِم «ليو شوان»، و«ليو شيو» من قبيلة هان الغربية، وانضمَّا إلى صفوف المنتفضين من أجل رغبتهما في استعادة مجد «أسرة هان» المنتهي، وتمكن بالفعل «ليو شيو» من التسلُّق فوق قيادة جيش الغابات الخضر، وإحداث الفتنة بين قادته، كان غرضه الباطني من ذلك إضعاف الجيش وتفكيك قوته، وبالفعل قتَل عددًا كبيرًا من زعمائه، حتى تمكَّن في النهاية من اغتصاب ثمار ثورة الفلاحين وقتال منافسيه في القيادة، ثم نصَّب نفسه إمبراطورًا؛ ليكون هذا إعلانًا عن سلالة هان الشرقية، والتي اتخذت لويانغ عاصمة لها(155) .

* * *

سلالة الهان الشرقية الحاكمة

عاد العرش إلى أحضان قومية هان، ففي ظل الفوضى العارمة؛ قامت عائلات مُلّاك الأراضي والتجار في لويانغ شرق العاصمة السابقة شيآن، بالاجتماع على دعم «ليو شيو» (الإمبراطور جوانجوو لاحقًا) ورجوع أسرة هان على العرش، مع الوعود بحماية ممتلكاتهم، وجعل لويانغ هي العاصمة في عام ٢٥ م، وبحلول عام ٢٧ م، أجبر ضباطه المنقسمين «دنغ يو» و«فنغ يي» على الاستسلام، وأمرهما بإعدام قادة قواتهم بتهمة الخيانة(156)، كان هذا خلال فترة حربه ضد أمراء الحرب الإقليميين الآخرين الذين ادعوا لقب الإمبراطور في الفترة من ٢٦ م حتى ٣٦ م، وعندما هزم «ليو شيو» أُمراء الحرب هؤلاء، تمكَّن من توحيد الصين تحت حكم أسرة هان، ليبدأ عصر جديد، سُمي تاريخيًّا باسم «أسرة هان الشرقية» التي أسسها تحت اسم الإمبراطور «جوانجوو»(157) .

漢光武像

بتمكين الإمبراطور الجديد ودعمه من مُلّاك الأراضي والتجار؛ أصبحت طبقة ملاك الأراضي الكبيرة هي القاعدة الاجتماعية لأسرة هان الشرقية، وأصبح لهم امتيازات سياسية واقتصادية متعددة، وبعد وقت بسيط؛ احتكروا مساحات واسعة من الأراضي الخصبة، وعمل فيها الفلاحون الأقنان بالإجبار، وأنشئوا مزارع وبساتين ومراعيَ ضخمة؛ انتشر فيهم زراعة أشجار التوت، وزراعة الكتان، وتربية دودة القز، ونسج الحرير والكتان، وتخمير الخمور، واستخلاص السكر، ولمنع العبيد من الهروب وقمع مقاومتهم؛ أُقيمت قلعة ضخمة في كل قرية صغيرة محاطة بأسوار عالية، عليها حراس من جوانبها الأربعة، ومن خلفهم الخنادق العميقة، وسيطر مُلّاك الأراضي بشكل مباشر على السلطات المحلية وتوارثوها، وأقيمت مشاريع الري في كافة أنحاء البلاد - خاصة في مجرى النهر الأصفر - وبرزت الصناعات اليدوية بشكلٍ مثير للإعجاب؛ والتي تشمل نسج الحرير، وحققت صناعة الفخار وصناعة الأواني الخشبية تقدمًا ملحوظًا، وبهذا الشكل، شهدت القوى الإنتاجية في هان الشرقية - منطقة الوسط على وجه الخصوص - تطورًا كبيرًا مقارنة بهم بــ هان الغربية، وبرغم أن كل هذا تم بأيدي الفلاحين؛ لكنهم لم يَسْلموا من الضرائب المضاعفة(158) .

نجح مجتمع هان الشرقية الإقطاعي في امتصاص دماء الطبقة الكادحة، ومع الإدارات الحازمة للإمبراطورين «مينغ» و«تشانغ»؛ تمت استعادة أمجاد الأسرة السابقة؛ مع بزوغ إنجازات عسكرية وثقافية رائعة.

في هذا الوقت، كانت قد هيمنت قومية شيونغنو مجددًا على الغرب الصيني، وقطعت الاتصالات بينه وبين مدن الإمبراطورية الداخلية، وقامت بفرض الضرائب والإتاوات على سكانه من مختلف العرقيات، مما نتج عنه توجيه قوات ضخمة بقيادة الجنرال «دو قو» من مقاطعة قانسو إلى الكيان الغربي، وتمكَّنت هذه القوات من اجتياح منطقة أوولو؛ جنوب غرب شينجيانغ، وأعادت إليها الحكومة المركزية، بعدها خرجت حملة لاحقة عام ٨٩ م؛ تحت قيادة الجنرال «دو شيان»، والذي قضى على ما تبقَّى من شيونغنو بالكامل، وتمت السيطرة على طريق الحرير مرة أخرى، فجلَب هذا الطريق التجارات المختلفة، والثقافات الأجنبية المتنوعة، إلى جانب وصول البوذية بشكل أكبر، وتمكَّن الجنرال والدبلوماسي «بان تشاو» من توسيع الفتوحات عبر البامير إلى شواطئ بحر قزوين(159) ، وتواصل مع الغرب دبلوماسيًّا، وتم تسجيل أول سفارة رومانية في الصين في المصادر الصينية، قادمة من الطريق البحري في عام ١٦٦ م، وحاملة معها هدية ثمينة من العاج للإمبراطور «هان هوان دي»(160) .

الثقافة والعلوم

كانت «أسرة هان الشرقية» واحدة من أكثر عصور العلوم والتكنولوجيا غزارة في الصين القديمة، حيث اتسم هذا العهد بكثرة العلماء والمفكرين، ولعل من أبرزهم:

الطبيب «تشانغ تشونغ جينغ»: عالم الطب الذي كتب كتابًا عن الأمراض وتناولها من الناحيتين النظرية والعملية، وسجل فيه حوالي ٤٠٠ وصفة علاجية، وكان يُعرف باسم «الطبيب المقدس»(161) ، ولا تزال نظرياته هي المحور الأساسي للطب التقليدي في الصين(162) .

الفلكي «تشانغ هنغ»: وهو من أهم علماء الفلك والرياضيات في الصين، حيث يُنسب إليه اختراع الكرة الحلقية لرصد النجوم ومعرفة مداراتها، والمهزاز لكشف الزلازل، ومن المعروف أن هذا الجهاز لم يظهر في أوروبا إلا بعد ١٧٠٠ سنة من وجود تشانغ هانغ(163) .

الطبيب «هوا قوه»: وكان طبيب متجوِّل اشتهر بخبرته في الجراحة والعلاج الوخزي، ويذكره الطب الصيني بأنه أول طبيب عالج الصداع بالإبرة الفضية، ومن أهم اختراعاته «مخدر ما في»، وهو عبارة عن مسحوق مخلوط بالخمر يؤخَذ بالفم، ومن المعروف أن التخدير في أوروبا لم يظهر إلا بعد ١٦٠٠ سنة من وجود «هوا قوه»، وهو مؤسس العلاج بالتمارين البدنية في الصين، التي تُقلد حركات النمر والدب والإيل والقرد والطيور، لذلك سميت بـ «مصارعة الحيوانات الخمسة»(164) .

المفكر المادي «وانغ تسونغ»: الذي اعتزل وظيفته الحكومية وقرَّر الانغماس في التعليم والبحث؛ فخرج بأفكار متقدمة رد فيها على الخرافات التي كان يروجها مثقفو الحكومة والبلاط، وقد بيّن فلسفته في «كتاب لونهنغ»، الذي هاجم فيه معتقد أن الألوهية متشخصة في إنسان؛ حتى ولو كان الإمبراطور نفسه؛ وأن الانسان يفني بمجرد موته، وكان مؤمنًا بالقضاء والقدر(165) .

دينيًّا، لم تشق الكونفوشية طريقها الكامل حتى تصبح ديانة بالمعنى المعروف، فكان ينقصها وجود هياكل أساسية؛ وطبقة من الكهنوتية؛ وأسس دينية عميقة، فهي بمثابة فلسفة روحانية أكثر منها ديانة؛ لذلك زاد توغل الديانة البوذية بشكلٍ أكبر نسبيًّا.

الانهيار ونهاية الحكم

كمثل سابقيها؛ اتسمت نهاية هذه الأسرة بالركود، والسبب في ذلك أن في نُهيةِ زمانها كانت السلطة الفعلية في أيدي أقارب الإمبراطور وحاشية القصر، وبينما ينعم الأرستقراطيون بالعز والجاه؛ كان الفلاحون يعتصرون دمًا، وقد لخص حال الكادحين بيت شعري لشاعر مجهول من هذه الحقبة في قوله:

«تتعفن الخمور والنبيذ واللحوم في القصور الفاخرة،

وعلى الشوارع تتجمد الجثث جرعًا وبردًا»

وعليك أن تتخيل أنه في ظل هذه الأوضاع المميتة، فُرض على الجياع حمل السلاح، وهم لا يجدون ما يأكلونه(166).

كانت هذه الأوضاع نيرانًا راقدة، مترقبة أي فرصة للاشتعال، وبحلول عام ١٨٤ م؛ سنحت الفرصة لاستفاقة هذه النيران، بعدما ضعفت الحكومة المركزية لأسرة هان؛ بسبب إساءة استخدام

«خصيان البلاط» لسلطتهم على الإمبراطور لإثراء أنفسهم، وكان الشعب يعتقد أن الفساد الحكومي هو السبب في غضب السماء وبلائهم بالأوبئة والكوارث الطبيعية وضعف المحاصيل الزراعية، مما يعكس أن الإمبراطور فقد ولايته من السماء، خاصةً بعدما أجبرت الفيضانات -على طول النهر الأصفر-المزارعينَ والمستوطنين العسكريين على التوجُّه نحو الجنوب، وأدى فائض العمالة إلى تحفيز الاستغلال، وتمَّ الإبلاغ عن تفشِّي الأمراض في ١٧١، ١٧٣، ١٧٩، ١٨٢، و١٨٥ م، خاصةً الطاعون الأنطوني من ١٦٥ إلى ١٨٠م، والجدري أو الحصبة المنتشرة على طول طريق الحرير (167) .

حرب أصحاب الأوشحة الصفراء

أدت الحالة المُزرية للناس إلى السخط والضجيج، وتوحدت صرخات المناكيد في المزارع والحقول، فهبَّت الانتفاضة في وادي يانغتسي الأسفل والأوسط وشبه جزيرة شاندونغ ضد «حكم الهان»، وزلزلت أصواتهم الأرض بأنشودة ثورية تقول:

«ينبت الشعر بعد قصه مثل الكراث..

ويستمر الرأس ليصيح بعد أن انقطع مثل الديك..

فلا تخف من المسئولين ولا تستهين بقوة الشعب».

هتفوها خلفَ قائد الحراك «تشانغ جياو» من مقاطعة خبي، فيما يُعرف باسم: «تمرد الأوشحة الصفراء»، والذي يُترجم أيضًا باسم: «تمرد أصحاب العمامات الصفراء»، اندلعت الانتفاضة في بداية عام ١٨٤ م، في عهد الإمبراطور «لينغ»، تحت قيادة «تشامغ جياو» سرًّا(168) .

والقائد تشانغ لم يكن قائدًا ثوريًّا وحسب، بل إنه قد استحدث دينًا جديدًا، اسمه دين «تاي بينغ تاو»، واستغل إنصات الناس له لنشر دينه الجديد؛ أثناء معالجته هو وأتباعه للناس من الأمراض السارية، وخلال عشر سنوات من الوعظ؛ كانت كافية لإرسال تلاميذه إلى جميع أنحاء شمال الصين استعدادًا للثورة(169) ؛ انضم إليه مئات الآلاف، ونظمهم «تشانغ جياو» في ٣٦ وحدة، يتراوح أعضاء كل وحدة بين عشرة آلاف وستة آلاف شخص، وبعد هذا التنظيم قرَّر دعوتهم للقيام بانتفاضة شاملة؛ معلوماتها سرية بينهم، وكان المُقرر القيام بها في شهر مارس المقبل، لكن أحد أتباعه غير المتدينين أوشى عليه لدى السلطة، فاعتقلوا أحد قادة الحركة ومعه حوالي ألف شخصٍ، وتم إعدامهم جميعًا(170) .

بسبب الخيانة وبسبب كشف مخطط الثورة، قرَّر «تشانغ جياو» المباغتة وتقديم الموعد إلى شهر فبراير، وشنت قواته هجومًا سريعًا على المواقع الحكومية، فاستولوا على كثير من المُدن في مقاطعة خبي ومقاطعة خنان، بل ودفعتهم جرأتهم إلى محاصرة العاصمة لويانغ، وطوّقوا القوات الإمبراطورية القادمة من خارج العاصمة ووضعتهم في القلب؛ فيما يشبه الكمَّاشة، وثار عشرات الآلاف من الرجال في وجوههم، وتم نهب وتدمير المكاتب الحكومية أمام عجز القوات النظامية،

واضطرت الجيوش الإمبراطورية على الفور إلى اتخاذ موقف دفاعي(171) .

خلال هذه الفوضى اضطرت القوات الحكومية التي كانت خارج العاصمة للعودة مسرعةً، وهزت ضرباتهم عضد فلاحي الأوشحة الصفراء، لكن الفلاحين صمدوا رغم اهتزازهم، وبدأت سلسلة من المعارك القاتلة، وبرغم وفاة القائد «تشانغ جياو» بسبب المرض المفاجئ، كان النصر الأولي من نصيب الفلاحين، بعدما تولّى قيادتهم الشقيق الأصغر لـ «تشانغ جياو»؛ المدعو «تشانغ ليانغ»، الذي واصل مهمته بنجاح، ولم يَعُد العدو قادرًا على الرد، فقرَّر المتمردون أخذ قسطٍ من الراحة، بعدها فوجئوا بهجوم مضاد بعثَر صفوفهم، وقُتل فيه زعيمهم الثاني «تشانغ ليانغ»، واستمر القتال طيلة سبعة أشهر، كان الجيش النظامي قد دعَّم صفوفه فيهم بمساعدة مُلّاك الأراضي، وانتهت الحرب بهزيمة ساحقة لأصحاب الأوشحة الصفراء، ورغم هذا النصر، سيبقى لهذه الحرب دور كبير في أُفول نَجم «أسرة هان الشرقية»، بعدما بعثرت أمور الدولة التنظيمية واستنفذت قوتها السياسية والاقتصادية(172) .

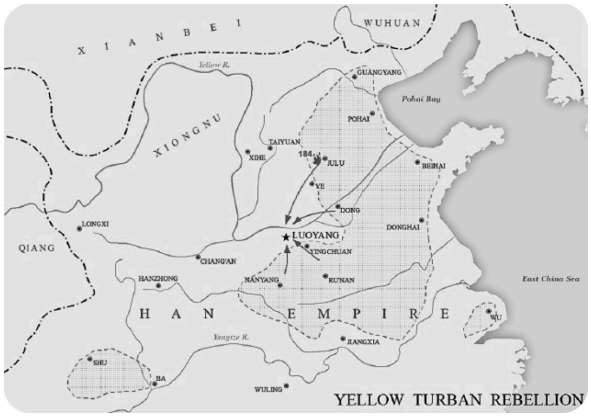

خريطة توضِّح مدى توسُّع تمرُّد العمامة الصفراء في عهد أسرة هان الشرقية.

مع هذا المنعطف الانزلاقي؛ قررت الإمبراطورية تدعيم أفكار جديدة ضد انتفاضات الفلاحين مستقبلًا، وقررت إنشاء جيوش أهلية عبارة عن خليط من المُلّاك، ليقفوا ندًّا في وجه أي تمرد من الفلاحين، وكانت هذا الخطوة فرصة واضحة لتضخيم نفوذ مُلّاك الأراضي في الإمبراطورية، فقد أصبحوا أمراء حرب وليسوا مجرد أرستقراطيين، وقد دفعهم نفوذهم بعد ذلك، لمحاربة بعضهم البعض، للسيطرة على مناطق النفوذ في البلاد، وأصبحت الإمبراطورية شبه مفتتة، لا يملك إمبراطورها الحكم على قِنٍّ واحدٍ(173) ، لتنجرف البلاد نحو الانقسام من جديد.

* * *

المُضي نحو تفكيك الحكم الإمبراطوري

من ضمن هؤلاء المُلاك وأمراء الحرب شاع نجم أميرين: «يوان شاو»، و«تساو تساو»، اللذان تمكَّنا بالفعل من فرض كيانهما العسكري في شمال الصين على المجرى الأوسط والأسفل

للنهر الأصفر، لدرجة أن الأمير «تساو تساو» تمكّن في عام ١٦٩م؛ من اختطاف الإمبراطور الصيني «هان شيان دي» نفسه، وقاده إلى شيويتشانغ، وبدأ في إصدار الأوامر باسم الإمبراطور المختطَف؛ وتمرير الأوامر لأمراء الحرب الآخرين، وبدأ يمهّد الظروف نحو قيادته للبلاد، حتى تمكن من احتكار كرسي الإمبراطور، وأصدر الأوامر بصفته قائدًا للبلاد، ثم أدخل بعض التنظيمات في المجال الزراعي والعسكري، ونتيجة لذلك تطور وضعه الاقتصادي؛ مما ساعده في توسيع نفوذه وترسيخه لسلطته، وبهذا الشكل يتضح أن ثورة أصحاب الأوشحة الصفراء كان لها تأثير كبير سيستمر لأكثر من ٢٠ عامًا بعد إخمادها(174).

لم يرضَ أمراء النفوذ الشمالي عن موقفِ «تساو تساو»، وأضحَى كل واحد منهم راغبًا في حكم الإمبراطورية المُهلهلة، وفي عام ٢٠٠ م؛ أقبل الأمير الثاني «يوان شاو» على الصدام العسكري مع «تساو تساو» في قواندو بخنان، لكن مجهوداته باءت بالفشل بعد ما انتصر تساو ورسخ حكمه؛ بفضل خيانة أحد مستشاري «يوان»، وانتهت الحرب بإبادة أكثر من ٧٠ ألف نفس من جيشه، وهرب «يوان شاو» بأعجوبة.

بعد تعزيز موقفه بهذا النصر؛ تطلع تساو لتوحيد شمال الصين كله تحت إمرته؛ وتفتيت جميع الكيانات السياسية الأخرى، وخلال سنوات معدودة تمكَّن بالفعل من ذلك، وحاول التوغل ناحية الجنوب، فقاد جيشه عام ٢٠٨م؛ وتمكن من الاستيلاء على بعض أجزاء جينغتشو(ح) ، وهزم أميرها «ليو بي»، وأرغمه على الهروب مع من تبقَّى من فلول جيشه الذين لم يتعدوا ١٠ آلاف جندي فقط؛ نحو مدينة أهتشنغ شرق مقاطعة هوبي، بينما واصل المنتصر «تساو تساو» على رأس قواته المكونة من ٢٠٠ ألف - بعد أن أضاف إليهم قوات جينغتشو المفتوحة بالقوة - باتجاه الشرق على متون السفن الحربية في نهر يانغتسي، وقتها قرَّر «ليو بي» المهزوم إرسال مستشاره «تشو قه» إلى الأمير «سون تشيوان»، ذاك الأمير الذي كان يسيطر على المناطق الجنوبية الممتدة على مجرى نهر يانغتسي الأسفل، وحثه على الاتحاد لمقاومة ابتلاع قوات تساو لنفوذهما، وأسفرت نتيجة المبعوث على الخروج باتفاق لضم الجيشين؛ في جيش مشترك تحت إمرة «تشو يو» القائد العام لقوات سون الحليف الجديد.

بعد دراسة استراتيجيات عدوهما؛ اكتشف الحليفَين أن قوات «تساو تساو» الشمالية معظم جنودها لا يفقهون في الحروب النهرية، وهذا كان سببًا في أن «تساو تساو» قد تعمد ربط سفنهم النهرية بسلاسل حديدية لمنعهم من الهرب، وضع الحليفان هذه الثغرة تحت النظر؛ إلى أن اصطدما مع عدوهما في تشيبي جنوب مقاطعة هوبي، فاستغل الحليفان هذه الثغرة؛ وجابهوا سفن تساو بعشر سفن مسرعة مع اتجاه الريح؛ تحمل القش المزيت المغطى بأقمشة تمويهية نُصبت عليها الأعلام، فاصطدمت بقوة الريح مع سفن تساو، وتمكنت من إيقاد النيران فيها حتى احترقت تباعًا، وهُزم «تساو تساو»؛ وفر مع فلول قواته إلى الشمال من حيث جاء(175) .

قيام الأسر: «وي - شو - وو»

بعد النصر؛ اقتسم الحليفان مناطق النفوذ، فبسط «سون تشيوان» نفوذه على الكيان السياسي في مجرى نهر يانغتسي الأسفل والأوسط، أما «ليو بي» فبسط نفوذه على غالبية أجزاء مقاطعتي هوبي وهونان؛ ولاحقًا سيتشوان، أما «تساو تساو» المهزوم العائد إلى الشمال، فكان تحت نفوذه البقاع الشاسعة المحيطة بالنهر الأصفر، وأما عن الإمبراطور «هان شيان دي» المحتجز، فقد تم نفيه على يد «تساو بي»، ابن الأمير «تساو تساو».

بعدها نصّب «تساو بي» نفسه إمبراطورًا، معلنًا عن قيام «أسرة وي»؛ وعاصمتها لياڼغ.

بينما في العام التالي، أعلن «ليو بي» نفسه إمبراطورًا هو الآخر؛ وقيام «أسرة شو»؛ وعاصمتها تشنغدو.

وكذلك أعلن «سون تشيوان» نفسه إمبراطورًا ثالثًا في نفس الوقت؛ وقيام «أسرة وو» وعاصمتها أهتشنغ.

وبهذا الشكل أصبح للبلاد ثلاثة أباطرة، وثلاث أسر حاكمة، وثلاث عواصم مستقلة، وعادت للتفتيت من جديد، فيما يسمى بـ «عصر الممالك الثلاثة»(176) .

* * *

٣- التفكك من جديد

(عهد الأسر المتعددة)

في ظل هذه الصراعات، أدركت الصين أنها على موعد مع الانقسام الأول منذ توحيدها في عهد أسرة تشين؛ على يد الإمبراطور «تشين شي هوانغ» في ٢٢١ ق.م، وبرز حكم الأسرات الثلاثة: «وي - شو - وو»، وأضحت كل واحدة منهم ناهية آمرة في نفوذها، مع فُقدان الإدارة المركزية للصين التاريخية؛ فيما يُعرف بـــ «عهد الممالك الثلاث».

* * *

الممالك الثلاث

بهذا الشكل، أصبح التقسيم الثلاثي للصين بين هذه الولايات الثلاث، منذ عام ٢٢٠ إلى ٢٨٠ م(177) ، وتُعد دولة «يان» قصيرة العمر في شبه جزيرة لياودونغ، التي استمرت من ٢٣٧ إلى ٢٣٨م، مملكة رابعة في بعض السجلات(178)

برغم أن هذه الممالك اتسمت باللامركزية التدريجية للدولة التي كانت موجودة خلال عهد سلالتي تشين وهان؛ وزيادة في قوة العائلات الكبيرة، فإنّها تسارعت على التنافس؛ لا سيما تطوير الزراعة، وما يؤكد ذلك قدرة أسرة «وي» على إنشاء شبكات ري على جانبي هوايخه؛ خاصةً بعد ابتكار أداة سقي جديدة يمكنها توصيل المياه العذبة إلى المرتفعات لري المزارع، وكذلك تمكَّنت أسرة «شو» من ترميم سدود دوجيانغيان بالقرب من تشغندو، وتميزت كذلك في صناعة الحرير، واستطاعت إدخال جنوب سيتشوان وبعض الأجزاء من قويتشو ويوننان والكثير من المناطق النائية؛ إلى دائرة التطور الحضاري والسياسي لعموم الصين(179) .

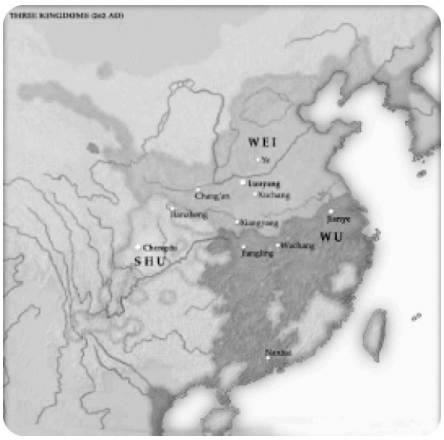

الممالك الثلاث عام ٢٦٢ م.

في هذه الفترة اتسمت مناطق جنوب نهر يانغتسي بالتخلفِ مقارنةً بمناطق حوض النهر الأصفر، وتُركت الأراضي الشاسعة جنوب يانغتسي دون استصلاحٍ، وتعطلت عجلة الإنتاج الزراعي هناك بشكلٍ ملحوظ، ومن أعظم مساوئ فترة الممالك الثلاث ككل: كثرة الحروب والاقتتال، حيث اعتُبرت واحدة من أكثرِ الفترات دموية في تاريخ الصين(180) .

في نهاية المطاف، بسبب نشاط «أسرة وي» السياسي المكثف؛ تمكَّنت من التفوق على «أسرة شو»، حتى ضمتها لكيانها السياسي رويدًا رويدًا؛ مع بلوغ عام ٢٦٣م، وكانت المجهودات ترجع لوزيرها النشط «سي ما يات»، وبسبب حكمه النافذ تمكَّن من انتزاع السلطة العُليا في «وي»، وأقام أسرة جين في عام ٢٦٦م، وبعد ١٥ عامًا؛ وتحديدًا في عام ٢٨٠م، تمكَّن من إسقاط الأسرة الثالثة والمُتبقية «وو»، وفي هذا الوقت توحّدت أراضي الصين كلها (ولو لفترة مؤقتة) في عام ٢٨٠ م، تحت إمرة أسرته المعروفة باسم: «أسرة جين الغربية»(181) .

* * *

سلالة جين الغربية

صورة الإمبراطور «جين وو دي» (وو من جين)، تم رسمها خلال عهد أسرة تانغ.

سُمي مؤسس الأسرة «سي ما يات» بـ الإمبراطور «جين وو دي»، الذي أصدر حُزمة قوانين جديدة، من أهمها: تسليم الأراضي وتوزيعها على الفلاحين، مقابل اقتطاع الضرائب السنوية، مع الامتثال لنداء السُّخرة حين وجوب ذلك، وقام بتقسيم البلاد إلى ٢٧ مقاطعةً، وعين عليهم حكامًا من أقاربه، وأطلق على كل حاكم لقب أمير، ومنحهم الصلاحية في تعيين الموظفين وتنظيم القوات العسكرية لكل مقاطعة، وعندما توفِّي الإمبراطور عام ٢٩٠ م؛ تصارع هؤلاء الأمراء وتناحروا مع الإمبراطور الوريث «هوي جين»، الذي كان يُقابله إعاقة في النمو الجسدي، وطوال فترة حكمه التي استمرت ١٧ عامًا ، كان هناك قتال داخلي مستمر بين الحكام والأمراء الإمبراطوريين (أعمامه وأبناء عمومته) وزوجته الإمبراطورة «جيا نانفنغ»؛ من أجل الحق في السيطرة عليه وعلى قراراته، ولم يتمكن أبدًا من تأكيد سلطته بمفرده(182) .

خلال هذه الاضطرابات انتشرت الفوضى، وفيها تم خلع الإمبراطور لفترة وجيزة من قِبل الحفيد «سيما تشي»، الذي اغتصب العرش منه في ٣٠١ م، ولكن في وقت لاحق من ذلك العام أُعيد إلى العرش، وتسبَّب الصراع في معاناة كبيرة للشعب، وتقويض كبير لاستقرار سلالة جين الغربية، وقد بدأ هذا الصراع منذ السنة الأولى من وفاة المؤسس «جين وو دي»، فمنذ عام ٢٩١ م؛ تفاقم الصراع بين هؤلاء الأوصياء، ونشبت حرب أهلية؛ سُمِّيت «حرب الأمراء الثمانية المدمرة»، وتم إضعاف الأسرة بشكلٍ كبيرٍ بسبب هذا الصراع المدني، وسرعان ما واجهت الإمبراطورية المزيد من الاضطرابات عندما بدأت ثورة القبائل البدوية، المعروفة باسم: انتفاضة «البرابرة الخمسة» في عام ٣٠٤ م، (تحت قيادة قومية شيونغو) على البدو الرُّحّل الذين أُعيد توطينهم في المناطق الداخلية الصينية منذ عهد أسرة هان الشرقية (شيونغو -تشيانغ - شيانبه - جيه - دي (183)).

انتفاضة البرابرة الخمسة

في الوقت الذي كان الصراع في القصر على أشُده، ووصل لحدِّ موت الإمبراطور مسمومًا في عام ٣٠٧ م، (على الأرجح من قبل الوصي «سيما لون يو»)، كان لقومية شيونغو البدوية التاريخية سلطة قوية على القوميات البدوية الأخرى، وكانت هذه القوميات المضطهدة مقيمة على الأطراف الصينية، وخاصةً الحدود الغربية والشمالية، وبرغم ذلك كان لهم أنساب وأصهار قد اندمجوا داخل الصين الموحدة منذ أسرة الهان الشرقية كما ذكرنا من قبل، وصل عددهم في هذه الفترة إلى ما يقارب مليون شخص، كان غالبيتهم من المتشردين الذين أرغمتهم حكومة جين الحالية على العمل القسري في الأراضي، فقاموا بتنظيم انتفاضة مسلحة، وبسبب الصراعات القائمة، تم نهب عاصمة جين لويانغ على يد الجيوش غير الهانية الغازية، وتم تدمير غالبية الأسرة تقريبًا في كارثة يونغجيا عام ٣١١ م، وتم القبض على «سيما تشي»؛ المعروف بعد وفاته باسم الإمبراطور «هواي» (إمبراطور جين المفقود)؛ وإعدامه لاحقًا، كما تم أيضًا القبض على خليفته

«سيما يو»، والمعروف بعد وفاته باسم الإمبراطور «مين جين» (إمبراطور جين المعاناة)؛ وإعدامه على يد القوات البدوية، كان هذا الحدث بمثابة نهاية لجين الغربية، وبسبب الحروب التي دارت بينهم قبل هذا الاجتياح؛ تم وضع البلاد على حافة الهاوية، وعاد خطر الانقسام يهدد الصين؛ بعدما كانت توحدت ولو لفترة بسيطة على يد أسرة جين(184).

فر أفراد عائلة جين الإمبراطورية الباقين على قيد الحياة؛ بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الصينيين الهان؛ من سهل شمال الصين إلى جنوب الصين، وكان لهؤلاء اللاجئين تأثير كبير على الأراضي التي انتقلوا إليها، وبسبب الحروب كان قد نزح الفلاحون بأعداد كبيرة من مجرى النهر الأصفر إلى جنوب نهر يانغتسي للبحث عن مكان آمن؛ فزادت الأيدي العاملة حول مناطق نهر يانغتسي التي كانت متخلِّفة؛ مقارنةً بمحيط النهر الأصفر، وقاموا باستصلاح رقعة كبيرة من الأراضي البور، وتعمم استخدام الأبقار في الحراثة، وعم الازدهار، لدرجة أن بعض المناطق زرعت محصولين في العام الواحد(185) .

تفكَّكت وحدة البلاد مجددًا، وظهرت الفوضَى في كل مكان، ومع حلول عام ٣١٧م؛ ظهر أحد أقارب الإمبراطور، الذي يُدعى «سي ما روي»، وأعلن قيام أسرة جين الشرقية، وعاصمتها نانجينغ.

* * *

سلالة جين الشرقية

أعلن «سي ما روي» نفسه كإمبراطور في نانجينغ، والمعروف بعد وفاته باسم الإمبراطور «يوان جين»، وفي نفس الوقت ارتفع صوت نبلاء سلالة جين؛ كلٌّ يبحث عن مصالحه؛ راغبين في مكاسب جديدة، وفي ظل الاضطراب انقسمت طبقة مُلّاك الأراضي إلى قسمين:

القسم الأول: النبلاء.

والقسم الثاني: عامة الشعب.

وبرغم أن هذا التقسيم كان قد ظهر منذ بداية أسرة جين الغربية السابقة؛ لكنه في هذه الأسرة الشرقية شهد تطورًا متفاقمًا، لدرجة أن النبلاء كانوا قد تحكَّموا في الأمور السياسية للإمبراطورية الجديدة من الوهلة الأولى، وكانوا يتقاسمون الحقوق السياسية كلٌّ على حسب نَسَبه، أما العامة فلا يوجد أمامهم غير الوظائف التقليدية، وكان النبلاء قد ابتدعوا أعرافًا خاصة بهم؛ من أجل الحفاظ على سلالتهم النقية من وجهة نظرهم؛ منها عدم الزواج من العامة، ولا حتى الجلوس معهم أو مصاحبتهم، ولا التشبه بهم في اللباس، أو الحديث معهم كليًّا، وكوّنوا مجتمعًا معزولًا خاصًّا بهم(186) .

أما سياسيًّا - لم يكن الإمبراطور الجديد «سي ما روي» قادرًا على توحيد البلاد كما كانت، وأصبحت سلطة الأباطرة في جين الشرقية محدودة، بينما كانت الشئون الوطنية تحت سيطرة

عشائر النخبة المهاجرة القوية؛ فتعددت التكتلات على حسب القوميات، وكان للنبلاء الدور الأعظم في ذلك، وأنشأت كل قومية دويلة مستقلة، وفي مناطق مجرى النهر الأصفر فقط ظهرت ١٥ دويلةً، أما في الجنوب الغربي فقد أعلنت «أسرة تشنغ» قيامها هناك، وقد عُرفت هذه الفترة تاريخيًّا باسم حقبة الدويلات الستة عشر، (جين الشرقية + ١٥ دويلة).

الدويلات الستة عشر

بهذا الشكل انقسم شمال الصين إلى سلسلة من الدويلات المستقلة المعروفة باسم «الممالك الستة عشر»، والتي أسَّس معظمها حكامُ القبائل البدوية: شيونغنو وشيانبي وجي ودي وتشيانغ، أولئك الذين قد سُمح لبعضهم - لا سيما تشيانغ وشيونغنو - بالعيش في المناطق الحدودية داخل «سور الصين العظيم» منذ أواخر عصر هان.

خلال هذه الفترة اجتاحت الحربُ الشمالَ، ودفعت الصينيين الهانيين مجددًا إلى الهجرة على نطاق واسع جنوبًا إلى حوض نهر يانغتسي، ومع أواخر القرن الرابع الميلادي قامت «قومية دي» بالتوحيد تحت ظل أكبر أسرهم المعروفة باسم: أسرة تشيانتشين، والتي تمكنت من توحيد مناطق النهر الأصفر؛ وأصبحت قوة لا يُستهان بها، وفي عام ٣٨٢ م؛ قامت بمهاجمة أسرة جين الشرقية، تحت قيادة أمير تشيانتشين المدعو: «فوجيان»، الذي قام بالاشتباك مع قوات جين الشرقية في نهر فيشوي بآنهوي، وبفضل خُطة جنرال جين «شيه شيوان»؛ تم عمل كمين مُحكم لقوات تشيانتشين المتفوقة كمًّا وكيفًا، وشهد النهر على هزيمتهم والقضاء على الكثير من جنودهم، وفرَّ فوجيان مهرولًا إلى الشمال، وعاد الوضع كما هو عليه، أسرة جين الشرقية الضعيفة - رغم انتصارها - والخمس عشرة دولة.

مع حلول عام ٤٢٠ م؛ استغل أحد زعماء أسرة جين الشرقية «ليو يوي» ضعف الأسرة وتفككها، وقام بنفى الإمبراطور «جونغ» آخر إمبراطور لأسرة جين، وأعلن نفسه إمبراطورًا بدلًا منه، وبالتالي قيام «أسرة ليو سونغ»، كأوَّل أسرة من الأسر الجنوبية (187) (188) .

في ظل الفوضى؛ ظهرت أسر أخرى لتنافس أسرة ليو سونغ في الجنوب، فبعد مرور ما يقرب من ٦٠ عامًا؛ وتحديدًا في عام ٤٧٩ م؛ ظهرت «أسرة تشي».

ثم أسرة ثالثة في عام ٥٠٢ م، وهي «أسرة ليانغ».

ثم أسرة رابعة في عام ٥٥٧ م، وهي «أسرة تشن».

وانحصر نفوذ الأسر الأربعة في جنوب الصين، وسميت تاريخيًّا باسم «أسر الصين الجنوبية»، للتشارك في حكم الجنوب أثناء حكم الأسر الشمالية في الشمال، فيما يُعرف بـ «حكم الأسر الشمالية والجنوبية».

* * *

حكم الأسر الشمالية والجنوبية

بهذا الشكل انضمت مجموعة أسر جديدة في الجنوب على غرار التي قامت في الشمال؛ لكي تساهم في انعزال الصين شمالًا وجنوبًا بشكل أعمق.

ومن أجل وضوح خريطة المشهد بشكلٍ مُرتَّب:

الأسر الجنوبية

كانت الأسر الجنوبية، (باستثناء أسرة تشن الأخيرة)، تُهيمن عليها بقوة «الشيغيا»، وهي العائلات الكبرى التي تمكنت من السطو على السلطة السياسية حتى منتصف القرن السادس(189) ، من ناحية أخرى، أدّى هروب أسرة جين جنوبًا إلى تفاقم ضعف الحكومة المركزية بشكل كبير، وكانت العائلات الكبيرة التي رافقت الإمبراطور في رحلة نفيه - مثلهم مثل عشائر المستوطنين الأوائل على طول ساحل تشجيانغ - هم أصحاب السلطة والأساسيين في البلاد، أما سلالات ليو سونغ، وتشي، وليانغ، وتشن اللاحقة، فقد حكمها قادة عسكريون من خلفيات اجتماعية متواضعة، وجرّدوا -تدريجيًّا- العشائر القوية من القوة العسكرية والسلطة والثروة، كما نشر الأباطرة جيوشًا إقليمية في جميع أنحاء البلاد تحت قيادة أقاربهم الإمبراطوريين، وقاموا بتجنيد ضباط من خلفيات متواضعة، وعينوا مسئولين من ذوي الرتب المنخفضة لمراقبة النخب القوية التي تشغل المناصب الحكومية العُليا، وبهذا الشكل تراجعت الطبقة الأرستقراطية الجنوبية؛ مع صعود التجارة في المحيط الهندي في منتصف القرن الخامس، مما أدى إلى تحول إيرادات البلاط إلى التجارة؛ واختفاء الطبقة الأرستقراطية على يد «أسرة تشن(190) «.

احتل التجار الكبار نفوذًا اقتصاديًّا؛ مكنهم تِباعًا نحو النفوذ السياسي؛ مما أدى إلى تشريد الأرستقراطيين القُدامى، من ناحية أخرى، دفَعت التطورات الاقتصادية أيضًا الفلاحين غير القادرين على مواجهة التضخم أو دفع الضرائب نقدًا إلى أن يصبحوا جنودًا مرتزقة بالوكالة، يتجولون في البلاد ويبيعون خدماتهم للأمراء المتحاربين، ويسرقون وينهبون السكان، في النهاية دمَّرت هذه الاضطرابات الجنوب؛ مما سيسهل سقوط الجنوب في يد «أسرة سوي» لاحقًا(191)

وفي عهد الأسر الجنوبية، شهدت بعض المناطق تطويرًا واضحًا، خاصةً جنوب جيانغسو، وتشجيانغ، وجيانغشي، وهوبي، وهونان، أما مناطق قوانغدونغ وفوجيان وقوانغشي فكانت أكثر تخلفًا مقارنةً بالسابقين، ومع أواخر عهد الأسر الجنوبية كان السكان قد اختلطوا بالسكان المجاورين، وانتشرت الدبلوماسية بين القوميات المختلفة، حتى صدّروا لبعضهم أساليب الزراعة التي تطورت آنذاك، وفي هذه الفترة كان مُلاك الأراضي الكبار يعيشون في مجتمع خاص بهم في جنوب جيانغسو وتشجيانغ؛ وزادوا ثراءًا على ثرائهم، أما الفلاحون الذين لا يملكون أرضًا والذين لم يرتضوا حمل السلاح أو النهب؛ فقد كانوا في الغالب يستأجرون الأراضي من مُلّاكها مقابل نصف محصولهم، وأكثر من ذلك في بعض الأحيان، وبرغم ذلك، كان مجتمع النبلاء الذي كان قد ظهر في عهد أسرة جين الشرقية، وتعظّم بعد ذلك وانفصل عن العامة وعاملهم كطبقة حقيرة قد بدأ يتلاشى تدريجيًّا، مما أتاح للأسر العامة أن تسحب زمام السلطة من تحت أقدامهم رويدًا رويدًا(192) .

الأسر الشمالية

بالعودة إلى الوضع في الجبهة الشمالية، ففي نفس الإطار الزمني تقريبًا كانت قد تأسست «أسرة

وي الشمالية» عام ٣٨٦ م، على يد قبيلة «توه با»؛ من قومية شيانبي في غربي منغوليا الداخلية وشمال شانشي، ومع ترسيخ حكمها هناك؛ تمكنت من توحيد وادي النهر الأصفر عام ٤٣٩ م،، وبفضل هذه الأسرة عرف أهل الأقليات القومية الزراعة وتربية المواشي، وتحولوا من الحياة البدائية إلى حلية الإنتاج الزراعي، وفي سنة ٤٨٥ م، أعلن الإمبراطور «شياو ون» عن مشروع قانون توزيع الأراضي على كل زوجين؛ للرجل ضِعف نصيب المرأة، وكان غرضه من ذلك ضمان العائد المالي، ووفقًا للقانون يدفع الزوجان ضريبة سنوية، ويتعيَّن على الرجال تأدية الخدمة العسكرية، فانتعشت الزراعة على إثر ذلك، وعلى الرغم من أن الأعباء لم تَزُل كليًّا، فإن هذا النظام كان أفضل من غيره بالنسبة للفلاحين.

الأسرات الشمالية والجنوبية حوالي ٤٦٠ م.

ومن الإجراءات الأخرى التي اتخذها «شياو ون»، جرأته التي تُحسب له في نقل عاصمته إلى لويانغ في عام ٤٩٤ م؛ من أجل الاندماج مع القوميات المختلفة، والاستفادة من ثقافة قومية هان المُتقدمة، وكذلك طلبه من نبلاء قومية شيانبي أن يتخذوا أسماء العائلات الهانية والتحدُّث بلهجتهم، والتحلي بمظهرهم ولباسهم، علاوة على أن سلطة «وي الشمالية» قلدت نفس سياسة الطبقة الحاكمة لقومية «هان» بسبب تفوقها؛ ولهذا الإمبراطور فضلٌ كبيرٌ في دخول الأقليات القومية في النظام الاقطاعي، وتسييس شمال الصين، ودمج قومياته المختلفة(193) .

برغم إصلاحات شياو، لم يستطع قانونه الجديد الخاص بتوزيع الأراضي منع سياسة الاتجار والسمسرة، وأصبح عدد مُلّاك الأراضي الكبار في ازدياد ملحوظ، وكبر مجتمعهم وانعزل أكثر مما كان. وفي نفس الوقت، كانت الحصون العسكرية التي أقامتها الأسرة في الشمال تحتوي على زعماء قساة القلوب، استعبدوا الجنود واختلسوا الميزانية، فانتفض الجنود وانضم إليهم الكادحون، وفي عام ٥٢٣ م عمّت الانتفاضات مناطق الحدود الشمالية وشمال «سور الصين العظيم»، وصولًا إلى مناطق شنشي وقانسو ونينغشيا، لكن تمكّنت الحكومة من إهباط هذه الانتفاضات، وشرّدوا المتمردين البالغ عددهم ٢٠٠ ألف، لكن هؤلاء المشردين قاموا بتحريض الأهالي في

شانغقو (يانتشينغ الحالية)، وأقدموا على انتفاضة أكبر، انفجرت في عام ٥٢٥ م، واستمرت زهاء ثلاث سنوات، كانت كافية لتعزيز العلاقة الكفاحية بين مختلف القوميات المضطهدة، وزادت من سرعة اندماجها في الحضارة الصينية، وبرغم انتهائها بالفشل؛ لكنها أضعفت الحكومة المركزية في الشمال، وأنزلت ضربات قوية على كِيَاسة حُكم الأرستقراطيين من قومية شيانبي، وتمكّنت من إضعاف نفوذ مُلّاك الأراضي من قومية هان؛ حتى أثرت في نظام حكم «وي الشمالية»، الذي أصبح نظامًا هشًّا وضعيفًا(194) .

على إثر ذلك، انقسمت أسرة وي الشمالية على نفسها، وتفرع منها فرعان: وي الشرقية، ووي الغربية، وبسبب ضعف القسمين نظير الانفصال؛ ذابا في صراع البقاء المحتدِّ، حيث تمكَّنت أسرة تشي الشمالية (السابق ذكرها) من ابتلاع وي الشرقية، وكذلك أسرة تشو الشمالية (السابق ذكرها) ابتلعت وي الغربية، وفي نهاية المطاف تمكنت أسرة تشو الشمالية من ابتلاع تشي الشمالية التي بدورها كانت قد ابتلعت وي الشرقية؛ وبالتالي ابتلاع الجميع، ليتبقى فقط أسرة تشو الشمالية من أصل خمس أسر، سُميت تاريخيًّا باسم «أسر الصين الشمالية»، وعلى الرغم من تقسيم الصين كلها شمالًا وجنوبًا، فقد انتشرت البوذية في جميع أنحاء البلاد، وبحلول نهاية العصر، أصبح البوذيون والطاويون أكثر تسامحًا مع بعضهم البعض(195) .

انتشار البوذية

دينيًّا؛ ظهرت البوذية لأول مرة على يد المبشرين البوذيين، في نهاية أسرة هان الغربية كما ذكرنا، وكان انتشارها محدودًا، ولم تصل إلى انتشارٍ ملحوظ إلا في عهود الأسر الشمالية والجنوبية؛ عندما اعتنقها الكثير من الأباطرة وبنوا أديرة للعبادة، وأصبحت البوذية تحتل مكانة سياسية عالية(196) .

من أهم الأحداث المؤثرة في انتشار هذه الديانة في هذه الحقبة، عندما قام الراهب الصيني» فاشيان كوماراجيفا» بعمل جولة دينية خارج البلاد، حيث انطلق إلى شمال الهند عام ٣٩٩ م، ثم إلى سيلان، ووصل إلى المناطق الغربية وآسيا الوسطى، وبعد ذلك عاد إلى الصين عن طريق البحر لتنتهي جولته عام ٤١٣ م، وخلال رحلته كان قد تمكّن من ترجمة كتبٍ بوذية مقدسة، وألَّف كتابًا بعُنوان «البلدان البوذية»، وهذا الكتاب هو دراسة تاريخية مهمة للمنطقة الغربية والهند آنذاك، وحَظِي بدعم من الدولة، ولاحقًا تم منح فاشيان لقب «المدرس الوطني»(197) ، و كان للترجمات العديدة عالية الجودة لفريق الترجمة الخاص به تأثيرٌ كبيرٌ على البوذية الصينية، والتي كانت في مهد ظهورها متأثرة بشدة بالفلسفة الطاوية(198) .

عارض البوذية فئة قليلة من الناس خاصةً في البداية؛ لأنها كانت غير مفهومة بشكل جيد، وغالبًا ما تمَّ الخلط بينها وبين الطاوية(199)، كان هناك أيضًا الكثير من الانتقادات الموجهة إلى الدين الأجنبي الجديد من قِبَل النُّخب الكونفوشيوسية، أشهرهم الفيلسوف المادي البارز «فان

تشين»، الذي عارض مبدأ البوذية القائم على أن الإنسان يفنى وروحه تظلّ موجودةً، ومن منظور رؤيته للصورة الباطلة للبوذية كتب مقالة مشهورة عنوانها «فناء الروح»، ووضح فيها رؤيته بأن الروح والجسد كائن واحد، إذا فَنِي الجسد تفنى معه الروح، كانت هذه المقالة على غير هوى الحكّام الذين يخدعون شعوبهم بشعارات البوذية، فأمر الإمبراطور «شياو تسي ليانغ» نخبة من الرهبان والمثقفين من أجل مناظرة أفكار «فان تشين»، لكنهم فشِلوا في زحزحته عن موقفه، بعدها أرسل له الإمبراطور عرضًا مفاده:

«إذا تخلَّيتَ عن أفكارك فستُعيَّن مساعدًا لكبير الوزراء».

لكنه رد قائلًا: «لو كنت أبيع أفكاري مقابل منصبٍ رسمي، لكنت حصدت أعلى المراتب منذ زمن بعيد».

لاحقًا، جند الإمبراطور «وو دي ليانغ» مجموعة كبيرة من النبلاء والحكام، وكتبوا أكثر من ٧٠ مقالةً من أجل تفنيد آراء «فان تشين»، لكنهم لم يتمكنوا من هزيمته(200).

الثقافة والعلوم في هذه الأحداث المتسارعة

برغم التوتر الذي ساد البلاد في هذه الفترة، فقد تقدمت التكنولوجيا بشكل ملحوظ منذ عهد الممالك الثلاث؛ فقد اخترع مستشار شو، «تشو قه ليانغ»، الثورَ الخشبي، الذي يُعتبر شكلًا مبكرًا من عرَبة اليد(201) ، وقام بتحسين القوس والنُّشاب المتكرِّر، كما اخترع المهندس الميكانيكي «وي ما»، مسرحًا للعرائس ميكانيكي الصُّنع يعمل بالطاقة الهيدروليكية، كهدية للإمبراطور «مينغ وي»، ومضخات سلسلة مربعة لري الحدائق في لويانغ، والتصميم المبتكر للعربة التي تُشير إلى الجنوب، وهي بوصلة اتجاهية غير مغناطيسية تعمل بواسطة التروس التفاضلية (202) .

كما شهد عهد الممالك الثلاث تطورًا ملحوظًا في صناعة السفن، فظهرت السفن الحربية الضخمة التي تتسع لـ ٣٠٠٠ مقاتلٍ، وظهرت المراكب الفاخرة المكونة من خمسة طوابق، وتطوَّرت الأساطيل التجارية والحربية بشكل ملفت، وسُجلت زيارة من أسرة «وو» إلى تايوان في عام ٢٣٠ م، عبارة عن أسطول يحمل عشرة آلاف شخص، بنيةِ توطيد العلاقات بين الطرفين(203) .

ومع الوصول لعهد الأسر الشمالية والجنوبية سنجدُ أن التقسيم كان له أثرٌ ايجابيٌّ في مسألة اندماج القوميات المختلفة في الحضارة الصينية، وانتشار الزراعة من شمال الصين التاريخية، وحتى جنوب نهر يانغتسي، كما وُلد في هذه الأحداث علماء كبار لهم أثرهم الواضح في المجتمع الصيني.

في علوم الزراعة: وُلد «جيا سي شي»، صاحب كتاب «شيمين ياوشو»، والذي ألفه بين أعوام ٥٣٣ م - ٥٤٤ م؛ واحتوى الكتاب على ١٠ أجزاء يضمون ٩٢ فصلًا، وهو مرجع شامل عن كل

علوم الزراعة، من انتقاء البذور، واستخدام السِّماد المناسب، والمناوبة بين المحاصيل، وزراعة المحاصيل المتنوعة، كذلك تربية الحيوانات الأليفة والطيور، وتربية الأسماك وما شابَهَ، ويُعتبر الكتابُ مرجعًا شاملًا لكل ما يخص علوم الزراعة، وهو من أقدم وأكبر الكُتب في تاريخ الزراعة العالمي، وقد تم اعتباره في كثير من الأحيان نصًّا كلاسيكيًّا لدراسة التغيرات في الأنواع، خاصةً عندما كان «تشارلز داروين» يبحث في نظرية التطور(204) (205) .

وفي الرياضيات: وُلد «تسو تشونغ تشي»، في عام ٤٢٩ م، وهو عالم رياضي ساهم في الفلك والتقويم والميكانيكا، وهو صاحب النسبة التقريبية لمحيط الدائرة (ط)، وقد استمد أبحاثه من دراسات سابقة أجراها عالمٌ آخر من عهد الممالك الثلاث، هو العالم «ليو هوي»، وألَّف «تسو» كتابًا تحت اسم «تشويشو»، وهذا الكتاب سيكون هو المادة العلمية الأولى في الرياضيات طوال عهد «أسرة تانغ» في الصين (٦١٨ م - ٩٠٧ م)؛ وسيصل إلى كوريا واليابان في العصور الوسطى(206) (207) .

أما في الجغرافيًا: وُلد «لي داو يوان» في عام ٤٦٦ م، العالم الجغرافي الأبرز في تاريخ الصين؛ وهو صاحب التعديلات والملاحظات على كتاب «شوي جينغ» النص الأصلي القديم، الذي كان يصف ١٣٧ نهرًا مختلفًا في الصين، ويُنسب الفضلُ في كتابته تقليديًّا إلى الباحث والجغرافي من هان الشرقية «سانغ تشين»،(208) لكن تم تدعيم هذا النص على يد «لي داو يوان»، بعد أن وصف فيه معلومات عن أكثر من ألف نُهَير وقناة ريٍّ، وهذه التعديلات سُميت بـ «ملاحظات شوي جينغ»؛ وهي باقية حتى يومنا هذا، وقد دوّنها بعد أن راجع أكثر من ٤٠٠ نوع من الكتب التاريخية والسجلات القديمة، ويصف في ملاحظاته بدقة توزيع الأنهار والقنوات والتغييرات الجغرافية، وملاحظاته يعتبرها الصينيون الحاليون من أهم المراجع القديمة حول الجغرافيا، ويستخدمونها في تخطيط مشروعات خزانات المياه واكتشاف الموارد(209) (210) .

أما الخط اليدوي: فقد تطور من مجرد خط إلى فنٍّ، في أواخر عهد «أسرة هان الشرقية»، ويُنسب إلى «تشونغ يو» المولود في عام ١٥٠ م، محاولاته الناجحة في تغيير أسلوب «ليشو» البدائي إلى أسلوب «كايشو» المتوازن في خطوط منتظمة في عهد الممالك الثلاث، وعندما جاء زمان «أسرة جين الشرقية»، ظهرت مجهودات «وانغ شي تشي»، في ابتداع أسلوبٍ خاص به(211) .

أما في فن الرسم: فقد انتشر الرسامون المُحترفون في عهد أسرة جين الشرقية، ومن أبرز الرسامين المهرة حينها الفنان «قو كاي تشي»، والذي اشتهر بالرسومات البوذية في الأديرة، لم يصل إلينا منهم حاليًّا إلا عملين فقط، وهم: «نصيحة المعلمات إلى سيدات البلاط»، و «ربة نهر لو»

أما في فن النحت: فكان النحاتون في عهد الأسر الجنوبية والشمالية، قد ورثوا تقاليد النحت الخاصة بأسرتي «تشين وهان»، وأضافوا عليها طابعًا جديدًا مستَمَدّ من الخارج - خاصةً من الهند

- فوُلِد فنٌّ جديد جامع للرسم والنحت في عمل واحد، وكان الحكام يقومون بإجبار الكادحين على حفر الكهوف الحجرية؛ من أجل الترويج للبوذية، وأبرز مَثَل على ذلك، كهوف يونقانغ في مدينة داتونغ، حيث وُجِد فيها تماثيل مختلفة الأحجام لبوذا، ومن ضمنها كهف مرقم برقم ٢٠، يوجد به تمثال ضخم ارتفاعه ١٣٠.٧ مترًا، وجهه ممتلئ وكَتِفاه عريضتان بشكلٍ واضح، وفي بعض الكهوف الأخرى حُفرت على الجدران تماثيل، وعلى السقوف تمّ نحت تماثيل لحوريات تطير وترقص في الفضاء، مُتشبهة بالسُّحب في السماء، والأسماك في المياه(212) .

أما في الأدب: فمن أهم شعراء هذا الزمان؛ الشاعر: «تاو يوان مينغ»، كان يعمل موظفًا صغيرًا، ثم استقال عن منصبه، بسبب سخطه على ظلم الحكام، فانعزل عن الناس، وبدأ يُشير إلى نفسه باسم «تشيان»، ويعني «الاختباء»، كدِلالة على انسحابه النهائي من الحياة الهادئة في البلاد وقراره بالرحيل، متجنبًا أي مشاركة أخرى في المشهد السياسي(213)، وعوضًا عن ذلك عكَف على كتابة الأشعار، وقد كتب قصيدة شهيرة بعنوان «تاو هوا يوان جي»، الذي وصف فيها حياة افتراضية في جنة خيالية، بعيدًا عن ظلم الحكام(214) .

أما فن الأغاني: فقد تطورت الأغاني الشعبية في عهد الأسر الجنوبية والشمالية بشكل ملحوظ، ومن أبرز هذه الأغاني الشعبية أنشودة «تشيله»، وكذلك القصيدة الغنائية المعروفة باسم «مولان»، والتي تحكي عن شجاعة النساء في الصين القديمة، حيث تحكي عن فتاة اسمها «مولان» قرَّرت أن تؤدِّي الخدمة العسكرية بدلًا من أبيها العجوز(215) .

الانهيار ونهاية حكم الأسر

بعد أن ابتلعت تشو الشمالية أسر الشمال الخمس «أسر الصين الشمالية»، كان لها الغلبة في النفوذ وسيادة القرار، وإلى حدٍّ ما أصبحت القوميات هناك شبه متحدة، أما أصحاب القوميات في الجنوب فقد بدَا وكأنهم قد ارتضوا بالاندماج، خاصةً بعد أن وفر التطور الاقتصادي هذه الفكرة، وكان البقاء الوحيد في الجنوب لأسرة تشن، التي كانت قد سيطرت على الأسر الجنوبية بالكاد، مثلما فعلت تشو الشمالية، وبعد مرور ٢٧٠ عامًا من التفتت، كانت كل العوامل تؤدي إلى الاتحاد، حيث بقي من أصل تسع أسر في الشمال والجنوب هاتان الأسرتان القويتان فقط.

كان أول حدَث أدَّى إلى تغيير الأوضاع؛ هو استيلاء كبير وزراء أسرة تشو الشمالية القوية «يانغ جيان» على الحُكم، وإعلانه نفسه كإمبراطور تحت اسم «ون دي»، معلنًا انتهاء أسرة تشو الشمالية، وقيام أسرة جديدة تُدعَى «أسرة سوي»(216) .

* * *

الفصل الثالث

الصين الإمبراطورية الوسطى

١ - التوحيد من جديد

(عودة الإمبراطورية)

خلال أواخر فترة الأسر الشمالية والجنوبية، غزت مملكة تشو الشمالية منطقة تشي الشمالية في عام ٥٧٧ م، وأعادت توحيد شمال الصين كما ذكرنا، وفي نفس الوقت، أصبح «يانغ جيان»، جنرال تشو الشمالية هو الوصي على محكمة تشو الشمالية، بعدها انقلب على المحكمة واغتصب العرش من حكام تشو الشمالية، وأعلن أنه الإمبراطور «ون دي سوي»؛ وفي عملية تطهير دموية، تم القضاء على ٥٩ من أمراء تشو، على عكس سمعته اللاحقة باسم «الإمبراطور المثقف» (217) ، وكان هذا إيذانًا بقيام «أسرة سوي»، والتي استعادت الحكم الإمبراطوري بقبضة من حديد.

* * *

سلالة سوي الحاكمة

من العاصمة تشانغآن؛ وفي عام ٥٨١ م بدَأ «ون دي» تأسيسَ أسرة «سوي»، بعد أن ألغى السياسات المناهضة للهان في شمال تشو، واستعادة لقب هان الخاص به، وهو «يانغ»، وبدأ الإمبراطور «ون دي» سلسلة من الإصلاحات التي تهدف إلى تعزيز إمبراطوريته؛ من أجل الحروب التي من شأنها إعادة توحيد الصين(218) .

صورة)الإمبراطور)«ون)دي)سوي»،)تم)رسمها)خلال)عهد)أسرة)تانغ.

بعد سبع سنوات من التمكين، وتحديدًا في عام ٥٨٨ م، قرّر ضم الجنوب لنفوذه الشمالي، فأرسل حملة إلى الجنوب من أجل ضم «أسرة تشن» الوحيدة المتبقية هناك؛ ولهذا الغرض جمع آلاف القوارب من أجل مواجهة القوات البحرية لأسرة تشن على نهر يانغتسي، وإلى جانب توظيف تشينابي والمجموعات العرقية الصينية الأخرى للقتال ضد تشن؛ وظف الإمبراطور «ون» أيضًا مقاتلين من جنوب شرق سيتشوان؛ التي غزاها أسرته مؤخرًا(219) .

حشد الإمبراطور «سوي» ٥١٨ ألف جندي على طول الضفة الشمالية لنهر يانغتسي، وفي ظل الاجتياح، لم تتمكن أسرة تشن من الصمود في وجه هذا الهجوم، وبحلول عام ٥٨٩ م دخلت قوات سوي إلى جيانكانغ(ط)؛ واستسلم آخر إمبراطور لتشن، وبهذا الشكل عاد عهد الصين الموحد مرة أخرى(220) .

بعد التوحيد شرع «ون» في بناء دولة جديدة موحدة إداريًّا، وكان قادرًا على ذلك، حيث استحدث أنظمة جديدة كان من شأنها إعادة مركزيَّة الدولة، وقام بعمل مسحٍ شامل لكل عموم الإمبراطورية، وأعاد تقسيم المقاطعات والمحافظات، كما قام بتعديل بعض القوانين، وألغَى ممارسات التعذيب والقتل إربًا إربًا، كذلك قضى على المحسوبية بإصداره قانون لاختبار الموظَّف قبل تعيينِه، وتوقَّف تعيين الموظف على حسب حسَبه ونسَبه، أمّا عن قانون توزيع الأراضي فلم يُدخِل جديدًا، فقد ظلّ التوزيع كما كان في السابق؛ الأراضي العامة والبور كانت مِلكًا للفلاحين مقابل الضرائب وأعمال السُّخرة، لكنه خففها نوعًا ما (221).

بسبب الاستقرار؛ توسَّعت رقعة الأراضي المزروعة توسعًا هائلًا خلال أول عشرين عامًا، وازدهر الإنتاج الزراعي بشكل ملحوظٍ، كما كان للحِرف اليدوية ظهورٌ بارزٌ في هذا الزمان، وخاصةً صناعة السفن، فظهرت لأول مرة سفينة حربية عسكرية ضخمة مخصَّصة للقتال، مكونة من خمسة طوابق، وتسع ٨٠٠ جندي وأدواتهم الحربية (222).

ومن الأشغال المهمة الكبرى التي حدَثت في هذا الزمان؛ عندما بدأ خليفة الإمبراطور «ون دي» - الإمبراطور «يانغ دي» - حُكمَه بنشاط واضح على حساب آلام المُسَّخرين، وفي عام ٦٠٥ م أمر رؤساء السُّخرة بحشدِ المغلوبين على أمرهم؛ من أجل شق قناة ضخمة لربط شمال الصين بجنوبها، مِن نهر هايخه إلى النهر الأصفر ونهر اليانغستي ونهر تشيانتانغ بطول ٢٠٠٠ كم، والمعروفة لدى الصينيين باسم قناة :»جينغ-هانغ» أو «قناة بكين - هانغتشو الكبرى»، والتي تعتبر أطول قناة أو نهر اصطناعي في العالم(223) .

كان قد أرسل كلًّا من الإمبراطورَين «ون» و«يانغ دي» حملات عسكرية إلى فيتنام، استمرارًا لعمليات الدمج التي حدثت في السابق، كدمج «أنام» في شمال فيتنام في الإمبراطورية الصينية قبل أكثر من ٦٠٠ عام؛ خلال أسرة هان (٢٠٢ قبل الميلاد - ٢٢٠ م)، وكانت الحملات الجديدة تستهدف «مملكة تشامبا» في وسط فيتنام، وأصبحت هذه الغزوات تُعرف باسم «حملة

ليني - شامبا» (٦٠٢-٦٠٥)، وعلى الرغم من انتصار قوات سوي، فإنَّ العديد منهم سيستسلمون لاحقًا بسبب المرض؛ لأن الجنود الشماليين لم يكن لديهم مناعة ضد الأمراض الاستوائية مثل «الملاريا»(224) .

بعد نجاحات الإمبراطور «يانغ دي»؛ قاده غروره إلى جنون العظمة، وكان مولعًا بالسُّخرة والاستعباد، لقد امتلك أسطولًا إذا امتد شغل مساحة ١٠٠ كم، وكان إذا أراد التنزه في القناة، صاحبته قوّاته على متن آلاف المراكب التي تحرسه على طول هذه المساحة؛ وأكلهم وشرابهم كان واجبًا على السكان على ضفاف القناة طِيلة وقت الرحلة.

امتدادًا لهوسه بالسُّخرة؛ دونَ سببٍ واضح قرَّر «يانغ» نقل العاصمة إلى لويانغ، فسيق مليوني عاملٍ من أجل جَلْب المواد المطلوبة لبناء العاصمة من أخشاب وأشجار، وبسبب تطلعات الإمبراطور لبناء مدينة ضخمة؛ كان يتعيَّن على كل ألفي شخص حمل شجرة ضخمة مما اختارها المهندسون، كما أجْبَر الفلاحِين المُسخَّرين على استخدام قواربهم لنقل الأسلحة والتموين، من أجل التحضير لشن هجومٍ عسكري على «مملكة جوجوريو»، (إحدى الممالك الثلاث في الجارة كوريا)، وخلال عام من التحضيرات للحرب، امتدت قواربهم في صف بلغ طوله ٥٠٠ كم؛ تسببت هذه التجهيزات العاجلة والقاسية في موت الكثير من المُسخَّرين، وتلفت المحاصيل على جانبي القناة، كما كان يتعين على صُناع السفن العمل دون راحة من أجل تنفيذ الخطة، لتصبح نسبة الوفيات فيهم ثلاثة من أصل عشرة(225) .

بدأ الهجوم الذي تم تحضيره بالعتاد والدماء لمدة عام كامل، واشترك مليوني شخص في هذا الاجتياح، وبرغم كل ذلك لم يستطع هذا الأسطول الانتصار على كوريا، فعاد من بقي من قوات «سوي» وعلى كتفيه الهزيمة الساحقة.

برغم الهزيمة؛ دفع الإمبراطور غروره لمحاولة الهجوم على كوريا مرتين بعد ذلك ولم تفلح محاولاته، وقَبِل الإمبراطور «يانغ» المغرور عَرْض «يونغ يانغ» للسلام، وسحب قوات «سوي» من أراضي جوجوريو، وبرغم التفاوض الناجح؛ لم يحضر ملك جوجوريو أبدًا ليقسم الولاء، الأمر الذي أثار غضب الإمبراطور يانغ، وتم ثنيه بصعوبة عن شن غزو رابع ضد جوجوريو(226)

الثقافة والعلوم

على الرغم من أن هذه السلالة كانت قصيرة ولم يتعدَّ حكمها زهاء ٣٧ عامًا، فإنها شهدت أعمالًا عظيمة مقارنةً بعمرها القصير، كان عنوانها الرئيسي «دماء الكادحين والمُسخَّرين»، وأبرز دليل على ذلك: «قناة بكين-هانغتشو الكبرى»، التي تعتبر أطول قناة أو نهر اصطناعي في العالم إلى يومنا هذا، علاوة على الجسور، ولعل من أبرزهم جسر «تشاوتشو الحالي» المُزين بشكل فريد، ليعكس روعة فن النحت في عهد هذه الأسرة، بل وفي عهد الصين كله، كما امتاز هذا العهد بظهور فنِّ الطباعة باللوحات المنقوشة.

أما اقتصاديًّا: فكان لهذه القناة دور بارز في الربط الاقتصادي بين الشمال والجنوب، وبالتالي الزيادة من امتزاج القُطرين.

أما في المشاريع الكبرى: عمل يانغ على الربط بين وسط الصين مع المناطق الحدودية، لا سيما تايوان والمناطق الغربية، وتم أيضًا توسيع سور الصين العظيم، في الوقت الذي أدت فيه سلسلة من الفتوحات العسكرية والمناورات الدبلوماسية إلى تهدئة حدود الإمبراطورية(227) .

وملخصًا: على الرغم من أن أُسرة «سوي» كانت قصيرة العمر نسبيًّا، ولم يظهر لها تأثير ثقافي بارز، فإنها كانت تمثل مزيجًا ثقافيًّا مختلطًا من الشمال والجنوب، وتعتبر محطة انتقالية من العصور السابقة، حتى توسيع العديد من التطورات الثقافية التي يعتبر بدايتها خلال أسرة «سوي»، وتوحيدها خلال عهد أسرة «تانغ» (التي ستأتي بعدها)، والعصور اللاحقة، وهذا لا يشمل فقط الأشغال العامة الكبرى التي بدأت، مثل سور الصين العظيم والقناة العظيمة، ولكن أيضًا النظام السياسي الذي طوَّره سوي، والذي تبنَّاه نظام تانغ اللاحق، مع تغييرٍ أولي بسيط بخلاف قمة التسلسل الهرمي السياسي، كما شملت التطورات الثقافية الأخرى لسلالة «سوي» الدينَ والأدبَ، فقد صُبغ الأدب في هذه الأسرة بصِبغة أهل الشمال البسيطة والمباشرة، وظهرت الأشعار المباشرة والحيوية، ومن الأمثلة على تلك البوذية والشعر(228) .

الانهيار ونهاية الحكم

بسبب الاستعباد المفرط للسُّخرة والفلاحين؛ وهلاكهم الدائم سواء في مشروعات السِّلم أو مشروعات الحرب؛ هرب الكثير منهم تاركين مِن خلفهم الأراضي الزراعية، وقلوبهم مثقلة بالحقد والكراهية حِيال الإمبراطور، حتى بدت قلوبهم وكأنها تصرخ من الظلم والطغيان؛ فلجئوا للتمرد، حيث أدى إجهاد الاقتصاد بسبب المشاريع الضخمة إلى إثارة غضَب القوى العاملة المستاءة، وخلال السنوات القليلة الأخيرة من حكم «أسرة سوي»، أدى هذا التمرد الذي اندلع ضدها إلى إخراج العديد من الرجال الأصحاء في الصين من المزارع الريفية والمهن الأخرى، الأمر الذي أدى بدوره إلى تدمير القاعدة الزراعية والاقتصادية بشكل أكبر، كان الرجال يكسرون أطرافهم عمدًا لتجنُّب التجنيد العسكري، وأطلقوا على هذه الممارسة اسم «الكفوف المؤاتية» و«الأقدام المحظوظة»(229) .

تُرجمت صرخات قلوب المناكيد وتمرداتهم على شكل انتفاضات مجلجلة، كان أوَّلها انتفاضة عام ٦١١ م؛ التي نَشبتْ في جبال تشانغباي(يِ) ، والتي تمكّنت من حشد آلاف الفلاحين، وبكل غضب تمكنوا من الانتصار على قوات الإمبراطور، ولما شاع صِيتها وصداها حذا حذوها انتفاضات أخرى صارخة، فعمَّت الفوضى غالبية المدن والقرى؛ وأصبح من المألوف أن ترى مشاهد تنفيذ حُكم الإعدام في حق المسئولين والنبلاء الفاسدين؛ مقابلَ عجز تامٍّ من الإمبراطورية في السيطرة على الأوضاع، خاصةً بعد أن قام الفلاحون بتشكيل وحدات عسكرية للدفاع عن

انتفاضاتهم، كانت أقوى هذه الوحدات؛ وحدة «واقانع» بقيادة «تشاي رانغ»، ووحدة «الانتفاضة» في «خبي»، وبمنتهى السرعة أصبحت الوحدتان جيشين، وتمكَّن جيش «تشاي رانغ» من اغتنام مُقدرات الدولة التجارية، والسيطرة على مراكب الحرير والحبوب، فتوسَّع نفوذه أكثر، مما استدعَى الإمبراطور «يانغ» لإرسال جيشٍ لسَحْقه بقيادة الجنرال «شيو توه»، لكن عند وصوله بقواته إلى «ينغيانغ»؛ وجد نفسه ضحية كمينٍ مُحكم، أدى إلى هزيمة جيشه وقتله شخصيًّا.

خلال شهور من النجاحات تعملق جيش «واقانع» بقيادة «تشاي رانغ»، وضم آلاف الفلاحين، واستولى على مناطق إمبراطورية عديدة، وقام بتوزيعها على الفلاحين، وبعد إبادة القوات الحكومية توغَّل الجيش في المحافظات والمقاطعات الواقعة بين النهر الأصفر ونهر هوايخه، وبرغم النجاحات العسكرية الواضحة؛ فقد كانت هناك مطامع لدى زعماء الجيش الثوري جرَّته لنفقٍ التقسيم، وظهر قائد من قادة الجيش يُدعى «لي مي» وقام بقتل الزعيم «تشاي رانغ» نفسه، ونأى بالقيادة لنفسه في عام ٦١٧ م.

أدى هذا الاضطراب إلى ضعف جيش الثوار، وفي الوقت الذي كان فيه الإمبراطور «يانغ دي» لا يزال يلتقط أنفاسه ويرتب أوضاعه، باغته أحد جنرالاته «يووين هواجي» في ١٨ يونيو ٦١٨ م وقتَله؛ ليُنهِي مُلك أسرة «سوي» القصير، بعد مرور ٣٧ عامًا فقط، حينها استغل هذه الفوضى أحد كبار الموظفين في أسرة «سوي»، ويُدعى «لي يوان»، وقام ببناء تكتُّل عسكري في «تايوان بشانشي»؛ مانَع تجديد الحكم في آل سوي، واستولى بجيشه على تشانغآن، وأعلن أنه الإمبراطور الجديد؛ لينذر بإعلان سلالة تانغ(230) (231) .

٢ ـ تاريخ استثنائي

(العصر الذهبي الثاني)

اعتبر العلماء حكم سلالة تانغ (في أوقات ازدهارها وليس العصر ككلٍّ) من أعظم العصور التي مرت على الحضارة الصينية القديمة؛ بسبب انفتاحها اقتصاديًّا وعلميًّا وثقافيًّا، بل ودينيًّا، وفي أوج ازدهار عاصمتها وتحضرها، كانت أكثر مدن العالم من حيث عدد السكان بسبب الطفرة الحضارية، وعهد تانغ الذهبي يساوي أو يزيد على ذهبية سلالة «الهان»؛ بسبب انفتاحه على الثقافة العالمية.

* * *

سلالة تانغ الحاكمة

في شتاء عام ٦١٧ م احتلّ «لي يوان» العاصمة تشانغآن، وأعلن نفسه إمبراطورًا لسلالة تانغ الجديدة، وكون «لي يوان» جيشًا نظاميًّا، وأطلق على نفسه الإمبراطور «قاو تسو» (غاوزو من تانغ)، واعتبر نفسه سلفًا لسلالة تانغ في عام ٦١٨ م(232) .

تمكّن «قاو تسو» من إجهاض انتفاضات الفلاحين، وتِباعًا قضى على فلول الإمبراطورية السابقة، وكان ذراعه الأيمن ابنه «لي شي مين»، الذي بالتَّبعية سيتولى السلطة خلفًا لأبيه بعد إطاحتِه به من الحُكم فيما بعد عامَ ٦٢٦ م، وسيحكم باسم الإمبراطور «تانغ تاي تسونغ» (تايتسونغ من تانغ)، (أحد أعظم الأباطرة في تاريخ الصين)(233) .

شهد هذا الزمان عودة لنفوذ طبقة مُلّاك الأراضي، وأصبحوا هم الطبقة الحاكمة، وفي نفس الوقت؛ استرجع بعض الفلاحين أراضيهم التي استولت عليها البيروقراطية الديوانية التابعة للأسرة المنقضية، وبشكل ملحوظٍ تم تحريرهم جزئيًّا من الضرائب الصارمة وأعمال السُّخرة، ولجأ الفلاحون الذين لا يملكون أرضًا إلى استئجار الأراضي من المُلاك مقابل نصف المحاصيل، وتحرَّر الأقنان وأصبحوا فلاحين أحرارًا، بل وأصبحوا قادرين على الخروج من المزارع عقب تسليم الضريبة المفروضة.

كان عهد المؤسس «قاو تسو» مُصلحًا إذا ما قارناه بعهد «يانغ تاي» السابق، فكان متريسًا في قراره، مستشيرًا لحكمائه، ومن أبرز مستشاريه: «وي تشنغ»، الذي قدم له تحليلًا مفصلًا لأسباب فساد وسقوط الإمبراطور السابق، لتفادي الوقوع في نفس الأخطاء، وهو مَن أوصاه باتخاذ سياسة الاعتدال مع الفلاحين، وتطبيق ما يمكن تحمُّله، وأن تكون أعمال السُّخرة في مواسم الفراغ فقط، ووصف حينها أن:

«علاقة الحاكم بالمحكوم كالقارب والماء؛ فالقارب سبب جريانه الماء، وسبب إغراقه الماء كذلك».

في بداية عهده، طبّق «قاو تسو» نفس قانون تقسيم الأراضي، مقابل الضرائب من الحبوب والحرير والقماش، والعمل بالسُّخرة عشرين يومًا فقط في كل عام، لكنه وضع قانونًا اختياريًّا لمن يريد أن يعفي نفسه من السُّخرة؛ بتعويضها بالحرير والقماش(234) .

كل هذه الإجراءات وإن كانت تظهر كأنها انتصار لعَرَق الكادحين؛ لكنها تَصُب تلقائيًّا في مصلحة مُلّاك الأراضي، حيث سيتفرغ الفلاحون لها بعد أن قلَّت أعمال السُّخرة، والأهم من ذلك، كان يحِق لمُلّاك الأراضي الاحتفاظ بأراضيهم، بل وأصبح الأمراء لديهم صلاحية في اغتصاب الأراضي وإضافتها لممتلكاتهم، بناءً على درجتهم الأسرية، وكانوا بجميع طبقاتهم مَعْفِيِّين من الضرائب، وطبعًا من أعمال السُّخرة(235) .

وبالرغم من أن الطبقيةَ قد عادت، فإنّ كد الفلاحين شهِد مُتنفسًا لم يُشم رائحته في الوقت السابق، وعادوا للعمل الجمِّ والإنتاج الكثيف، وحفزت هذه القوانين العمل الزراعي؛ فزادت المحاصيل، وبسبب ذلك، طورت الحكومة المركزية مشروعات الري، ومن أهمها مشروع القناة الذي أمر به الإمبراطور «قاو تسنغ»، من تونغتشو(ك) إلى النهر الأصفر، وبجانب القناة المحفورة في يانغتشو وتُرع الريِّ المحفورة في تايوان بشانشي؛ والبرك المحفورة في شيوبه ببوتيان؛ تم تطوير القنوات القديمة وتطهيرها، مما أدى كل ذلك إلى نهضة زراعية واضحة.

بسبب النهضة الزراعية تطوَّرت أساليب المعيشة وزاد عدد السكان، ليصبحَ تعدادهم أكثر من ٩ ملايين نسمة، وزاد المخزون العام لدرجة أن الطبقة الحاكمة كانت مستودعاتها مكتظة بمنتجات الكادحين، وازدهرت الصناعات اليدوية، فأنشأت الحكومة معامل ضخمة للمشغولات اليدوية، إلى

جانب الورش الصغيرة التي نشط فيها نسج الحرير، وصناعة الورق، وصهر الحديد، والصباغة، وغيره.. وبجانب التطور الهائل في إنتاج الحرير المزركش بالزهور، شهدت صناعة الخزف تقدمًا ملحوظًا، وظهر الخزف ثلاثي الألوان، كما كان لصناعة الورق تطورٌ جليّ، حيث وصلت أعداد الكُتب التي ألفتها المكتبة الرسمية في لويانغ باستخدام أوراق ولاية ييتشو الكتانية؛ أكثر من ٢٥ ألف مجلدٍ(236) .

إلى جانب كل ذلك، تطورت أساليب الملاحة والمواصلات، وبسبب القنوات تم ربط البلاد ببعضها، وعلى جنبات هذه القنوات ظهرت الفنادق التي تُقدِّم خدماتها للمارة والوافدين، أما بريًّا؛ فتم الاهتمام بالمواصلات البرية الخارجية، واتسعت الطرق لتصل إلى الجيران؛ كوريا والهند، وكذلك إلى البلاد العربية وشرق إفريقيا غربًا من حوض تاريم وجبال البامير، وقد ساعد ذلك في ازدهار الحياة الحضرية في المدن، خاصةً بعد أن قامت الحكومة بإنشاء الهيئات الخاصة التي تنظم وتُدير التجارة والملاحة في الداخل والخارج، كما شهدت العاصمة تشانغآن تبادلًا ثقافيًّا واسعَ النِّطاق، وصل صداه إلى جميع بلدان آسيا، وتطورت المنشآت، وأصبح للإمبراطور فيها عدَّة قصور، بالإضافة إلى المباني الحكومية الحديثة، والأكاديمية التي لا تقبل غير أبناء الأرستقراطيين والبيروقراطيين والنبلاء ومُلاك الأراضي، وتزينت الشوارع بالمحال التجارية المتنافسة، وحوانيت الحرف، وعلى أطراف المدينة بُنِيت الفنادق والمستودعات والمخازن.

بهذه الصورة المُذهلة، اعتبر المؤرخون سلالة «تانغ» عمومًا، بمثابة نقطة عالية في الحضارة الصينية، وعصرًا ذهبيًّا للثقافة العالمية(237) .

لعلَّ من أهم أسباب ازدهار العاصمة، هو الانتهاء من حَفْر «بحيرة قوانغيونتاغ»؛ التي أصبحت هي مرسَى السفن في المدينة، فجلَبت السفن منتجات رائعة، كالمرايا النحاسية، والمنتجات البحرية، والمنسوجات الحريرية المتميزة، والعاج واللؤلؤ، وأخشاب الصندل، والأوراق والأقلام، ومرارة الثعابين، والزمرد، وتمتع التجار والوافدون بمنظر المدينة المتطورة، لا سيما «برج دايان» البالغ طوله ٦٠ مترًا،؛ شرق شارع تشوتشيويه، وهو موجود على حاله شامخًا إلى الآن؛ ولهذه الأسباب المتطورة كانت تشانغآن عاصمة آل تانغ؛ المدينة الأكثر اكتظاظًا بالسكان في العالم خلال معظم فترة وجود الأسرة الحاكمة(238) .

أسهمت مشاريع المواصلات والملاحة وربط البلاد بريًّا وبحريًّا في امتداد يد التنمية إلى مناطق الأقليات القومية في مناطق الحدود النائية (توتشيوي، وهويخه، وموخه، ونانتشاو، وتوفان)؛ وبالتالي تم توحيد الدويلات العديدة، وقد صَبَّت هذه العلاقات بالنهاية في تطوُّر الوطن الصيني كله اقتصاديًّا وثقافيًّا.

كان من ضمن الصعوبات التي قابلتهم أثناء عملية الدمج؛ محاولة دمج قبائل توتشيوي التركية (خاقانية تركية)، والتي كانت قد انقسمت على نفسها في الفترة السابقة (فترة سوي) إلى شرقية وغربية، وفي هذه الأثناء تمرَّد خان توتشيوي الشرقية «إليج قاغان» على أسرة «تانغ» في عام

٦٢٩ م، وحشَد جيشًا ناحية الجنوب، فأرسل له الإمبراطور الثاني «تانغ تاي تسونغ» قوة مُضادة بقيادة «لي جينغ»، (الذي أصبح فيما بعد مستشارًا لسلالة تانغ) على رأس ١٠٠ ألف فصد نفوذ الأتراك، وضرب قبيلتهم وأسر الخان، وأحكم الأمن عليها، وعينت الإمبراطورية عليها واليًا منها، خاضعًا لمركزية الإمبراطورية، وأطلقوا على الإمبراطور «تانغ تاي تسونغ» لقب «الخان السماوي»، وهو اللقب الذي تم تقديمه باسم «تيان كيهان»؛ بالإضافة إلى حكمه كإمبراطور للصين تحت اللقب التقليدي « ابن السماء «(239) .

أما توتشيوي الغربية - فخشي الخان «دونغيهو» من نفس مصير نظيره، فأرسل للإمبراطور معلنًا الولاء، فخضعت القبيلة للإمبراطورية وأصبح الخان واليًا رسميًّا من الإمبراطور، ومع حلول عام ٦٥١ م؛ تسلَّم الولاية الخان «شابلوه» الذي أعلن التمرد والانفصال مجددًا، وهاجم المناطق الغربية بقواته، فأرسل الإمبراطور « تانغ تاي تسونغ» قوات حاشدة بقيادة الجنرال «سو دينغ فانغ» من أجل قمع المتمردين؛ وانتهى من القضاء على تمردِهم في عام ٦٥٧ م(240) .

مع الوقت، آمنت بقية القبائل أن الاندماجَ أمرٌ واقعٌ، وإن لم يحدُث بالسِّلم سيحدُث بإزهاق الأرواح، فاندمجت بشكل سِلْمي قبائل توتشيوي مقابل زواج حاكمها «سونغتسان» من الأميرة «ون تشنغ»، وكان لهذا الزواج عامل مهم في تعزيز العلاقات بين قوميتي الهان والتبت، وتطوير الاقتصاد والثقافة في توفان، ولاحقًا تزوج ملك توفان التالي «تشتسودتسان» من الأميرة «جين تشنغ»، مما وطَّد العلاقات بشكل أكبر، وتمّ رفع نُصب تَذكاري بينهما، معروفًا باسم «نصب الحِلْف»، وهو موجود إلى الآن أمام «معبد زوغلا كنغ» في لاسا، وبهذا الشكل أصبحت هذه القبائل التي كانت منفصلة من قبل، مندمجة في الكِيان الموحَّد، وزعمائهم في يدهم السلطة كما هي، لكنهم أصبحوا ولاة تابعين للمركزية الإمبراطورية، مُستجيبين للمؤسسات الإدارية التي تم بناؤها على أراضيهم، ومنظمين لعمليات دفع الضرائب، ومجيبين لطلبات الإمبراطورية في عملية توسيع الأراضي(241) .

بعد الاندماج التام

الإمبراطورة «وو تسه تيان»، هي الإمبراطورة الوحيدة المُعتَرف بها في التاريخ الإمبراطوري الصيني كله.

الذي حدَث مع بداية حكم الإمبراطورة «وو تسه تيان» (وو شتيان)، تدفَّق بعض الأفراد من قوميات المناطق الغربية إلى تشانغآن، من أجل دراسة العلوم والثقافة، وحدَثت عملية نقل للكتُب

من داخل البلدان إلى تشآنغان، فظهر ما يُشبه الكتاتيب، وارتحل الفنانون والرسامون والمطربون، وجَابُوا جميعَ البلادِ(242) ، وعمَّ الازدهار غالبية أراضي الصين، حتى ازدهرت المدن في مِنطقة جيانغنان إلى الجنوب، مثل يانغتشو وسوتشو وهانغتشو؛ بشكلٍ أكبرَ (اقتصاديًّا) خلال أواخر فترة تانغ (243) .

على الرغم من أن الحكومات المركزية والمحلية احتفظت بعدد هائل من السجلات حول ملكية الأراضي من أجل تقييم الضرائب، لكن أصبح مِن الممارسات الشائعة في إمبراطورية تانغ أن يقومَ الأشخاص المتعلمون والأثرياء بإنشاء وثائقهم الخاصة وتوقيع العقود، وكان هؤلاء يحملون توقيعهم الخاص وتوقيع شاهد وكاتبٍ؛ ليثبتوا وقت النزاع أن مطالبتهم بالممتلكات مشروعة، كان النموذج الأوَّلي لهذا موجودًا بالفعل منذ عهد أسرة هان القديمة، لكنه تطوَّر الآن بشكل مهندَم، حتى أصبحت اللغة التعاقدية أكثر شيوعًا؛ وجزءًا لا يتجزَّأ من الثقافة الأدبية الصينية في السلالات اللاحقة(244) .

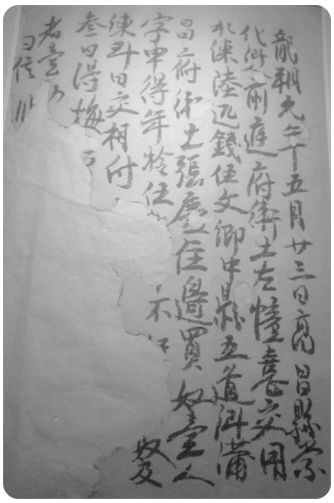

عقدٌ)من)أسرة)تانغ)يُسجِّل)شراء)عبدٍ)يبلغ)من)العمر)١٥)عامًا)مُقابل)ستة)مسامير)من)الحرير)العادي)وخمس)عُمْلات)مَعدنيةٍ)صينية.

كان لسهولة المواصلات واستتباب الأمن أثرٌ واضحٌ في خَلْق علاقات صداقة بين الصين ودول الجوار، حيث نشأت علاقات لا سابقَ لها بين تانغ والبلدان الآسيوية، وحفزت الأجواء المتقدِّمة الكيانات الأجنبية لاكتشاف الحياة المتطورة في الصين آنذاك، على سبيل المثال:

كوريا: أرسلت الوفود الباحثة عن العلم والثقافة، وتعلّم الحِرف اليدوية، مُقابل استيراد البقر، والخيل، والكَتان، والقماش، والورق، والأقلام، والحبر، والمراوح اليدوية، وتصدير الحرير، والشاي، والخزف، والأدوية، والكُتب، ووفد المغنيين القادمين من كولولي وبايكتشي إلى تشانغآن لإقامة حفلاتهم، وتمَّ تدوين بعض الأغاني الكورية في موسوعة «تانغ الموسيقية»، وأدَّى هذا الاختلاط إلى طفرة ثقافية وتجارية بين البلدين(245) .

اليابان: أرسلت أكثر من ١٣ بعثةً، تضم كل واحدة ما بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ شخصٍ، من أجل

دراسة العلوم والفلسفة والتاريخ ونظام الحكم والأدب وغيرها، وقد وُصِف هذا الاندماج في قصيدة الشاعر الصيني «لي باي»؛ المعروفة بعنوان «رثاء الخِلّ الوفيِّ تشاو هنغ»؛ والتي كُتِبت لرثاء صديقه الياباني «ناكامار»؛ والذي سُمِّي بهذه الاسم الصيني خلال إقامته في الصين، وأثَّرت الصين في اليابان ثقافيًّا في هذه الفترة بشكلٍ بالغ من حيث العمارة والبناء والإدارة، والمأكل والملبس، والثقافة والآداب، وقد ساهم علماء الصين في وضع لغة لليابان مُعتمدة على المقاطع الهانية، والجدير بالذكر، أنّ الشاعرَ «لي باي» كان من أبرز الشخصيات التي ساهمت في ازدهار الشعر الصيني في عهد أسرة تانغ، والتي غالبًا ما يُطلق عليها «العصر الذهبي للشعر الصيني»، ويُشِير تعبير «العجائب الثلاث» إلى شعِر «لي باي»، ومبارزة «باي مين» ، وخط تشانغ شو (246) .

أما من ناحية الغرب الهندي: فقد أوفدت الهند مبعوثِين للصين، وفي نفس الوقت أرسلت الصين مبعوثِين للهند، وتمّ إثراء الصين بعلوم قادمة من الهند؛ كالطب والفلك والموسيقى وفنون أخرى من الحرف اليدوية، وفي نفس الوقت؛ استفادت الهند من العلوم الصينية؛ خاصةً الورق والكتب، وكما كانت رحلة الراهب الصيني «فاشيان كوماراجيفا» في الماضي من عام ٣٩٩ م إلى عام ٤١٣ م؛ من أعظم الأحداث في تاريخ البوذية الصينية، في عصر تانغ؛ قامت رحلة إلى الهند لا تقل أهمية أو تأثيرًا، والتي قام بها الراهب «شيوان تساتغ» إلى الغرب من أجل جلب الكتب البوذية في أوائل حكم «تانغ تاي تسونغ»، وقد عُدت من أهم الأحداث الدينية والثقافية التي تمت في هذا العصر، فقد عاد شيوان إلى الصين من الهند في عام ٦٤٥ م، ومعه ٦٥٧ مؤلفًا من الكُتب البوذية الهندية؛ ثم عكَف على ترجمتها للصينية، فتمكَّن من ترجمة ٧٥ قسمًا متميزًا هم الأهم؛ من إجمالي ١٣٣٥ فصلًا، في فترة عشرين سنة، ولاحقًا فُقِدت الكتب البوذية الأصلية في الهند؛ فتحولت ترجمات شيوان إلى كنز لدراسة حضارة الهند القديمة، كما كتب شيوان هو وتلاميذه كتابًا مهمًّا؛ باسم «رحلة التانغي إلى الغرب»، وصفوا فيها أحوال ١٣٠ دويلة هندية(247) .

أما من ناحية غرب آسيا وأوروبا: فقد وفد إلى الصين الطلاب من كل مكانٍ، وتمت عملية نقل واسعة للعلوم والفنون من وإلى الصين، أشهرها: الموسيقى والرقص والألعاب البهلوانية، وكذلك وفد التجار في ظل سياسة تشجيعية قامت بها الحكومة المركزية؛ متضمنة توفير الإقامة الآمنة لهم، ولم تسمح أن يُفرض عليهم مكوس باهظة، وأقام في تشانغآن وفي يانغتشو الآلاف من تجار المجوهرات والحرير، وقد تمّ العثور على عملات فارسية فضية وبيزنطية ذهبية، مما يدلُّ على أن الصين كانت مُلتقًى تجاريًّا مهمًّا لكل هذه الشعوب، وشهد طريق الحرير نشاطًا مكثفًا لنقل الحرير والمنتجات الخزَفيّة من الصين إلى غرب آسيا وأوروبا في هذا العصر المنفتح.

لوحةٌ(للسُفراء)الأجانب)الذين)يزورون)بلاط)تانغ:)المعروفة)بـ)«تجمُّع)الملوك»)للفنّان)«تانغ)يان)ليبين»،)انظر)مدى)التنوع)الفني)الرائع)في)تحديد)الملامح)والملابس.

أما من ناحية العرب: فكان للعرب أيضًا الفضل في توصيل هذه الصناعات إلى إفريقيا وأوروبا، وقد تم تدوين أكثر من ثلاثين زيارة لمبعوثين عرب إلى الصين، من أجل التجارة والعلوم، حاملين معهم رسالة الإسلام، وكانت رسائل ناعمة قام بها العرب والفرس المسلمون؛ حيث أُقيم أوّل مسجد في الصين في مدينة قوانغتشو، المعروف باسم «مسجد هوايشينغ» (مسجد المنارة) (248) .

«مسجد)هوايشينغ»)(مسجد)المنارة))من)أقدم)مساجد)العالم.

وصول الإسلام للصين

كانت شائعة التقاليد والعادات القديمة لدى الشعب الصيني؛ تتمثل في اتباعهم الديانة الصينية العامة التي تتكون من عناصر روحانية، وتعدد الآلهة والتي تمثل تكتلًا توفيقيًّا لأفكار البوذية والطاوية والكونفوشية، كما شرحناهم مُفَردين من قبل.

اختلف الباحثون عن كيفية وصول الإسلام للصين؛ فمنهم رواية تقول : إن رجلًا من الصحابة يُدعى «وهاب بن رعشة» سافر إلى الصين بعد الهجرة، وتعلَّم لغتهم ودرس عاداتهم وأخلاقهم، ثم أخذ ينشر الدين الإسلامي، فاستجابت له فئة ليست بقليلة من الناس، وقد قابل الإمبراطور الثالث «غاوزونغ تانغ» عام ٦٨٢ م وتعرّف عليه، ولقِي منه الاحترام والتبجيل، وعندما مات أقام له الصينيون تذكارًا (ربما مقامًا أو ضريحًا إسلاميًّا) تخليدًا لذكره(249) .

الرواية الثانية تقول: كان للتجار العرب دورٌ مهمٌّ في العلاقات التجارية بين الصين والغرب قبل القرن الخامس الميلادي كما ذكرنا؛ لذلك منذ عهد أسرة هان، كان الصينيون يعلمون كل شيء عن بلاد العرب، وفي عهد الخليفة المسلم «عمر بن الخطاب»، وصل مبعوثٌ مسلمٌ إلى الصين ما بين ٦٤١ و ٦٤٢ م، ثم توالت البعثات الإسلامية على الصين حتى بلغت ٢٨ بعثةً، في الفترة ما بين ٦٥١ م و٨٠٠ م، وأخذ الإسلام ينتشر سلميًّا عن طريق البحر من السواحل إلى الداخل، بعدها فتح المسلمون تركستان الشرقية في العصر الأموي، ووصلت غزوات القائد المسلم «قتيبة بن مسلم» إلى الحدود الغربية للصين، وعلى الرغم من أن الفتوحات الإسلامية لم تتوغل في أرض الصين؛

كان لطريق الحرير دورٌ مهمٌّ، في النشر الناعم للدين الإسلامي، فانتشر الإسلام بريًّا بشكلٍ متوازٍ مع الشكل البحري(250) .

الرواية الثالثة: تُشير المصادر التاريخية الصينية مثل كتاب «تانغ القديم» إلى أن الصينيين كانوا يعلمون كلَّ شيء عن العرب، لكنهم لم يسمعوا بأي شيء عن الإسلام؛ إلا في عام ٦٣٩ م؛ وتحديدًا عهد الإمبراطور الثاني «تانغ تاي تسونغ» خلال هذه الأسرة، حينما استنجد به آخر الحكام الفُرس الساسانيين «يزدجرد الثالث»، طالبًا التحالف من أجل صد الجيوش الإسلامية الزاحفة، لكن الإمبراطور لم يقرِّر التورطَ في ذلك، بعدما استشعر أن الخطر بعيدٌ عنه، وأن علاقته مع العرب لا بأسَ بها.

وسواء أنصتنا لأيٍّ من الروايات الثلاث أو لم نُنصت؛ لا يوجد شكٌّ في أن الصين قد سمعت بالإسلام قبل عام ٦٥١ م، ففي ذلك العام سافرت سفارة عربية إسلامية موثقة إلى بلاط أسرة تانغ، على شكل اتصال مباشر بين الصينيين والمسلمين، حيث ذُكر في المصادر الصينية، وتحديدًا كتاب «التاريخ الحديث لأسرة تانغ»: «استقبل بلاط الإمبراطور مبعوثًا رسميًّا عربيًّا، وقدَّم العربيُّ التحيةَ من ملك العرب أمير المؤمنين للإمبراطور»(251) .

وصول المسيحية للصين

وصلت المسيحية إلى الصين كذلك خلال عهد سلالة تانغ؛ من خلال البعثات التبشيرية لكنيسة المشرق النسطورية في عام ٦٣٥ م، (252) ، ضمن التقليد المسيحي السرياني في المسيحية الشرقية، وحقَّق مشروع الإنجيل درجة مُرضية من النجاح بشكل مبدئي.

لا يوجد دليلٌ واضحٌ يُثبت أن المسيحية دخلت الصين قبل القرن السابع الميلادي، لكن هناك أدلة واضحة على وجودها في عهد تانغ، وأن الدين المسيحي عُرف باسم «الدين المضيء»، وقد ورَد ذِكره في بعض الكتابات الصينية؛ وكذلك النقوش المعروفة باسم «النصب التذكاري النسطوري»، وكمثل الإسلام؛ كانت حكومة تانغ متسامحة مع المسيحية، في ظل مسامحتها الكلية تجاه حرية جميع الأديان.

النُّصب)النسطوري)التانغي)الذي)تم)تشييده)في)عام)٧٨١)م،)وهو)يوثق)١٥٠عامًا)من)تاريخ)المسيحية)المبكرة)في)الصين.

سُجلت زيارة «ألوبين» كأول مبشِّر مسيحي أشّوري مسجّل يصل إلى الصين؛ خلال عهد تانغ،

حاملًا ٦٣٥ نسخةً من الكتاب المقدس؛ كمندوبٍ من كنيسة المشرق «الكنيسة النسطورية»، من خلال «لوحة شيان»، التي تَصِف وصوله إلى عاصمة تانغ تشانغآن في عام ٦٣٥ م، وقبوله من قبل الإمبراطور الثاني»تانغ تاي تسونغ» (تايزونغ) (253) وهذا هو أقدم اسم معروفٍ يمكن ربطه بتاريخ كنيسة المشرق في الصين.

بعد ثلاث سنوات، وتحديدًا في عام ٦٣٨، أصدَر الإمبراطور «تانغ تاي تسونغ» إعلانًا رسميًّا لحماية كنيسة المشرق، وأقام أولَ كنيسة مسيحية في الصين، واعترف بواحد وعشرين كاهنًا لإدارتها؛ جميعهم كانوا من الفُرس على الأرجح، ومع عهد خلفائه؛ واستكمالًا لسياسة التسامح، توسّعت مكانة «ألوبين» بشكلٍ أكبر، وتم تعيينه أسقفًا على الكنائس العديدة التي بنتها الإمبراطورية(254) .

الثقافة والعلوم

ثقافيًّا: بلغت حضارة الصين إلى مدًى ثقافي لا مثيلَ له في هذه الأسرة، خاصة بعد اندماج الداخل والاتصال بالخارج، وظهر علماء بارزون من القوميات المختلفة، وكان لقومية الهان النصيب الأكبر، بعد ما توارثوا الثقافات المتتالية من الأسر الملكية السابقة.

في مجال الأدب: كان لظهور اختراع الطباعة على المنحوتات الخشبية طفرة عظيمة في مجال حفظ العلوم والفنون، ولعل من أشهرها: الكتاب البوذي «المحاورات الماسية»، الذي يُعتبر من أقدَم المطبوعات في العالم.

أما مجال الشعر: فقد شهِد تطورًا بالغًا، تتجلى روعته في ٥٠ ألف قصيدة باقية حتى الآن، لا يزال الناس في الصين يردِّدون بعضها، ومن كبار شعراء هذا الزمان «لي باي»، الشاعر المولَع بالسفر والترحال، والذي قدَّم عبر قصائده صورة بليغة للمناظر الطبيعية في الصين، أما مِن ناحية البؤس والكتابات الكئيبة؛ فقد كتب الشاعر «دو فو» عن الظلم الذي ساد الطبقة الدُّنيا والحياة الواقعية للكادحين، خاصةً بعد أن مات ابنه من الجوع، فكتَب قصائد تتسِم بالمشاعر المكبوتة والمقهورة، وعلى نفس نهجه كتَب «باي جيوي»، الذي كتَب عن التناقضات الطبقية، وقام بنقد الساسة الظالمين(255)

وفي مجال الرسم: برزت الرسومات في ثوب جديد متطوِّر وزاهٍ، وأبدع «يان لي بن» في رسم الأشخاص، ومن أهم رسوماته لوحة للإمبراطور «تاي نسونغ تانغ»، وهو يجلس على عرَبة مُستقبِلًا رسولَ «سونغستان»، الذي طلب يد الأميرة ابنته، وهي محفوظة إلى الآن في قصر الإمبراطور بـ«بكين»، كذلك وُلد الرسام «وو داوزي» الملقب باسم «النبي الرسام»؛ بسبب تميزه في دقة رسمه للأشخاص، واستخدامه للألوان الحمراء في التعبير عن الأضلاع المفتولة شأنها شأن التماثيل، وقد أدّى ذلك لوضوح الرسومات وكأنها تبدو حقيقية، وله إلى الآن ٣٠٠ لوحة جدارية في معابد تشانغآن ولويانغ، وقد اعتَبره مؤرخ الفن البريطاني «مايكل سوليفان» أحد «أساتذة

القرن السابع»(256) .

أما في فن النحت والحفر: فقد شاع حفر وتزيين الكهوف الحجرية بشكل بارز خلال هذه الأسرة، وأبرز هذه الأعمال الجمالية «كهوف موقاو»، الملقبة باسم «كهوف الألف تمثال بوذي»، يصل ارتفاع بعضها إلى ٣٣ مترًا، وعلى الكهوف رسومات تجسِّد شكل الحقول والمزارع وتربية المواشي والغناء، وصور زعماء القوميات المختلفة، كما يوجد أيضًا حوالي ٤٨٠ كهفًا متبقِّينَ من أصل ١٠٠٠ تم تشييدهم في جنوب شرقي دونهوانغ بمقاطعة قانسو، معظمهم من عهد «سوي» و«تانغ»، وكل هذه الكهوف تصف أحوال الاقتصاد المزدهر في عهد أسرة تانغ، فمن ناحية؛ تصف حياة الترف والثراء لدى الطبقة الحاكمة، ومن ناحية أخرى، تصف حياة الكادحين والفقراء المتدنية(257) .

علميًّا: اخترع عالم الفلك «سنغ يي شينغ» بالتعاون مع صانع المقاييس «ليانغ لينغ تسان» جهازًا فلكيًّا لتحديد مواقع النجوم والكواكب، واقترح «سنغ» على حكومة تانغ عام ٧٢٤ م، إرسال مجموعة من العلماء لإنشاء ١٣ محطة للأرصاد موزعين على عموم البلاد؛ من أجل تحديد موقع القطب الشمالي وطول خط الزوال الشمسي، كان من بينهم عالم الفلك «نان قونغ يويه»، وفي النهاية توصلوا إلى إيجاد طول خط الزوال، وتعتبر هي المرة الأولى التي تم تحديده فيها تاريخيًّا(258) .

أما في مجال الطب: فقد وُلد الطبيب طاوي المذهب «وانغ شو لين»، والطبيب «يويآن يواندان»، وكذلك «سون سي مياو» الطبيب المشهور صاحب كتاب «الوصفات الطبية»، وجميعهم أسهموا في مجال الطب الذي شهد تطورًا عظيمًا، وظهرت مدارس الطب ذات الأقسام المخصصة، وفي هذا العصر كُتب «كتاب الأعشاب في أسرة تانغ»، وهو أول موسوعة في علم الصيدلة تاريخيًّا، وكان لكتاب «سون سي مياو» الفضل الكبير في هذا المجال، حيث كان يتسلّق الجبال من أجل جمع الأعشاب وإجراء تجاربه، ومن ثَم تدوينها في كتاب «الوصفات الطبية» عام ٦٥٢ م؛ احتوى هذا الكتاب على ٨٠٠ صنفٍ متنوعٍ من الأدوية، و ٥٣٠٠ من الوصفات الطبية، كما وضع «ثلاثة عشر تدبيرًا للحفاظ على الصحة»، والتي زعم من خلالها أن أفعالًا مثل: لمس الشعر، وتقليب العيون، والمشي، وهز الرءوس، تحسِّن الصحة، وفي النهاية تم تلقيبه باسم «ملك الطب الصيني»(259) .

في النهاية كان لهذا التطور والتقدُّم والتنوع والاختلاط؛ تسمِية مُستحقة باسم «العصر الذهبي للصين»، والذي بلغَ أوج ازدهاره من عهد «تانغ تاي تسونغ» ٦٢٦ م، وحتى بداية عهد «تانغ شيوان تسونغ» عام ٦٨٥ م (260).

الانهيار ونهاية الحكم

مما لا شك فيه أن هذا الرخاء قد حُرمت منه الطبقة الكادحة، على الرغم من أن الاقتصاد كان

مُهَيئًا لإرضاء الجميع، لكن كان من المؤسف عدم الاهتمام بمعاناة الطبقة الفقيرة، فكان يحصد هذا الرخاء غالبيةُ الطبقة الحاكمة والأمراء والنبلاء والأرستقراطيين، ومنذ أواسط حكم أسرة تانغ؛ أصبح من المألوف أن تشاهد قصورَهم ومزارعهم وبساتينهم الشاسعة في محيط بتشانغآن ولويانغ، وكعادتهم السابقة؛ زاد الطمعُ في قلوبهم فطلبوا المَزيدَ، ولم يرتضوا بأن يتساوى معهم الفلاحون والكادحون في الملبس والمأكل والمشرب، وسئِموا من أوقات راحتهم، فراحوا يفرضون عليهم الجبايات الزائدة، والأعمال الإضافية(261) .

بهذا الشكل، مع النصف الثاني من عهد هذه الأسرة أصبحت غالبية أراضي الدولة ملكًا لمجموعة ضئيلة من العائلات الثرية، دونَ استفادة الحكومة على قدْرِ استفادة هذه العائلات، فقرّرت الحكومة المركزية وضع قانونٍ يفرض المزيد من الضرائب، بمقتضى مقادير الأراضي والممتلكات التي يمتلكها الدافعون، فطالب القانون مُلّاك الأراضي بدفع الضرائب مرتين خلال نفس السنة، فاستفادت الحكومة ولم يؤثِّر على المُلّاك الذين أجبروا الفلاحين على العمل المُضاعف، فوقع جُل المَرارِ على عاتق الفلاحين؛ الذين أُجبروا على مُضاعفة مجهوداتهم بسبب الضرائب المُضاعفة، وقد تسبّب ذلك في العديد من الاضطرابات السياسية مع بداية القرن السابع، مثلها مثل إمبراطوريات أوراسيا، الذين دخلوا في فترة ١٣ عامًا من الاضطرابات السياسية الكبرى، في سلسلة من الأحداث الثورية التي قادها التجار والحِرفيون المشاركون في التجارة الدولية عبْرَ طريق الحرير (262) .

بسبب هذا التوتر الإقليمي تم كبح التوسع الغربي لإمبراطورية تانغ في عام ٧٥١م؛ بهزيمة قوة استكشافية صينية كبيرة على رأسها الجنرال «جاو شيانزي» في معركة نهر طالاس في وادي فرغانة الحديث(ل)، على يد مسلمو الدولة العباسية الذين وسعوا فتوحاتهم حتى وصلت لأطراف البلاد، ومع ذلك، لم يتقدَّم العرب إلى أبعد من ذلك بعد المعركة، واحتفظ التانغ بأراضيهم في آسيا الوسطى(263) .

كان الأكثر أهمية في هذه المعركة هو أسر بعض صُناع الورق الصينيين، ومنهم انتقل سر صناعة الورق إلى بغداد ودمشق والقاهرة، ثم الأندلس ومنها إلى أوروبا وسائر العالم.

بالإضافة إلى ذلك؛ كان التوسع الجنوبي لتانغ محدودًا بسبب الحملات الفاشلة ضد مملكة نانتشاو، أما في التبت فقد سيطرت أسرة تانغ هناك بشكلٍ واضح، خاصةً بعد اغتيال الإمبراطور التبتي «مي أغتسوم» عام ٧٥٥ م، في خِضم تمرُّد كبير داخل النظام السياسي التبتي.

في الداخل، كان الإمبراطور «شوانزونغ» قد قام بترقية الجنرالات من غير الهان لقيادة جيوش حدودية كبيرة، معتقدًا بأن الجنرالات من غير الهان كانوا أكثر ميلًا إلى أن يكونوا موالين شخصيًّا للإمبراطور نفسه؛ ولن يكون لديهم تشابكات عشائرية؛ وبالتالي لن يهددوا عرشه، من بين هؤلاء الجنرالات الذين ارتقوا في الرُّتب القائد «آن لوشان» الذي سيلعب دورًا واضحًا في الأحداث التالية(264) .

منذ بداية عهد الإمبراطور «تانغ شيوان تسونغ» (شوانزونغ)؛ الذي يُعتبر نهاية العصر الذهبي، كان قد أُصِيب هذا الازدهار بالتقلُّص الواضح، وبينما كان الإمبراطور غارقًا في الخمور والشهوات وسِحر محظيته الحسناء «يانغ قوي في»؛ معتمدًا على شقيقها الفاسد «يانغ قوي تشونغ» في مُتابعة شئون البلاد؛ والذي عُين إكرامًا لجمالها، لمَعت عيني «آن لو شان»، الذي أصبح مُقربًا ومحببًا للإمبراطور، والذي كان مسئولًا عن مِنطقة خبي، شانشي، لياونينغ، بعدما اكتشف خلو المناطق الداخلية من الجيش، وضعف القوة التي تحرس القصر، إلى جانب سلسلة من الكوارث الطبيعية، فقرَّر استغلال هذه العوامل التي صاحبها سخط شعبي تجاه بلاط تانغ القاسي(265).

تمرد آن - شي

أقدم «آن لو شان» على اختطاف السلطة من الإمبراطور المُرفَّه في ١٦ ديسمبر من عام ٧٥٥ م، واندفع بجيشه من فانيانغ(م) ، وأثناء مروره عامل آن لوشان مسئولي تانغ المحليين المُستسلمين باحترام، ونتيجة لذلك؛ انضم المزيد والمزيد منهم إلى صفوفِه، ثم تحرَّك بقواته مسرعًا على طول القناة الكبرى، واستولى على مدينة لويانغ العاصمة الشرقية في ١٨ يناير ٧٥٦ م، وأعلن «آن لو شان» نفسه إمبراطورًا لسلالة «يان العظمى» الجديدة، عازمًا على أن تكون خطوته التالية هي الاستيلاء على عاصمة تانغ الغربية تشانغآن؛ ثم محاولة الاستمرار في جنوب الصين لإكمال غزوه(266) ، وبالفعل وصَلت قواته إلى العاصمة؛ وتمكّنوا من قتل المسئول الفاسد «يانغ قوي تشونغ»؛ شقيق محظية الإمبراطور، ثم أجبروا الإمبراطور نفسه على قتل محظيته المُقربة «يانغ قوي»(267) .

انتفضت قوات الإمبراطورية؛ وأسفرت الاشتباكات التالية عن تمكُّن جنود تانغ في تشانغآن ولويانغ من تحرير المدينتين من المُخرِّبين، بمساعدة بارزة من قبيلة هويخه، لكن اشتعلت الفتنة مجددًا بعدما جاء صديق « أن لو شان»، المدعو «سي شي مينغ» ومعه مجموعة أخرى، وأقبلت على إشعال الثورة والتهاب المواجهات مجددًا، واستمر الخراب والصِّراع طيلة ثمانية أعوام، وانتهى الأمر بقمع المُتمردين في عام ٧٦٣ م(268).

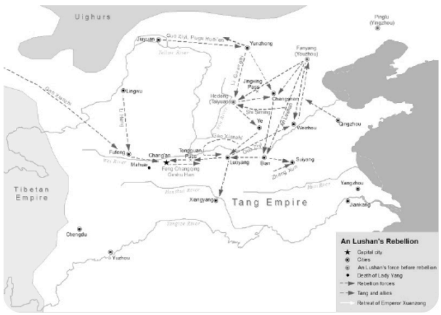

خريطةُ)التحرُّكات)العسكرية)خلال)تمرّد)«آن)لوشان».

بأرت هذه الثورة المسلحة أَخْدُودًا كبيرًا في زهرة هذا العصر الذهبي، وانزلق الشعب في هذا الأخدود من أجل مقابلة مصيره الجديد، وكانت نهاية التمرد عبارة عن عملية طويلة من إعادة البناء والتعافِي، فهذه السنوات الثماني كانت كفيلة لمحاربة الإنتاج الزراعي، بل ومحاربة البِنيات التحتية، فعلى طول مئات الكيلو مترات من لويانغ إلى المحافظات المجاورة ظهرت الأنقاض في كل مكانٍ، ونزح الناس وتركوها مهجورة كمُدن الأشباح(269) .

وبسبب ضعف حالة البلاط الإمبراطوري، اندلعت اضطرابات أخرى داخل وخارج البلاد مستفيدة من ضعف التانغ، على سبيل المثال، استعادت الإمبراطورية التبتية بقيادة «تريسونغ ديتسان» الكثيرَ من أراضيها في آسيا الوسطى، وشرَعت في الاستيلاء على تشانغآن العاصمة نفسها في ١٨ نوفمبر ٧٦٣ م، قبل الانسحاب مرة أخرى إلى حدود إمبراطوريتها(270) .

أدى تمرد «آن لوشان» و «سي شي مينغ» وتداعياته إلى إضعاف البيروقراطية المركزية لسلالة تانغ بشكل كبير، وكُشف الغطاء عن أسرة تانغ التي أصبحت هشة وضعيفة، فاستنجدت بقادتها المُعينين، وكذلك بالمتمردين المُعتقلين، الذين أُفرج عنهم لرغبة أسرة تانغ في الاستقرار السياسي في هذه الفترة المُضطربة، وقامت إمبراطورية تانغ بمنح البعض منهم حامياتهم الخاصة لقيادتها، مما زاد من التخبُّط بسبب عدم مصداقية الولاءات، أما قادتها المُعينون؛ فأمرتهم بتوسيع النفوذ، هؤلاء القادة كانوا في الظاهر داعمين، لكن في الباطن قرّروا النأي لأنفسهم بكل ما هو مُتاح، وتوسع نفوذهم بشكل ملحوظ، ومع الوقت ابتلع هؤلاء القادة والأرستقراطيون ومُلاك الأراضي خيرات العصر الذهبي، وبرغم ذلك لم يُسَد جوفهم من الجوع، فلجئوا لابتلاع مُقدَّرات الفلاحين الفقراء، وأجبروهم على دفع ضرائب باهظة، وظهرت المعاناة من جديد، وضجَّ الفلاحون مناهِضِين في تشانغيوان(ن) ، مقاطعة خنان، كما نشأت مقاطعات تتمتع بالحكم الذاتي تقريبًا، ومنظمات مالية مخصَّصة، مما أدى إلى الحد من تأثير البيروقراطية النظامية في تشانغآن(271) .

ظهرت ملامح الانتفاض في تشانغيوان عام ٨٧٤ م، في خِضم الكوارث الطبيعية الخطيرة - الفيضانات والجفاف المُتناوب - التي أثَّرت بشدة على الوضع الداخلي، حيث لم تتخذ الحكومة الإمبراطورية سوى القليل من التدابير لتخفيف الأضرار، وتزعَّم حركة الفلاحين المُناهضين الثائرُ «وانغ شيان تشي»، وفي وقتٍ بسيط شكل الغضب جيشًا مناهضًا، أعلن عن نفسه من خلال بيان تنديد يفضح الموظفين الفاسدين، وشجب الضرائب الباهظة، والعقوبات غير العادلة.

أول سلطة للفلاحين بالصين

وصل خبر الانتفاضة إلى محافظة تساوشيان في مقاطعة شاندونغ، فاستجاب الفلاحون هناك وهبّوا على خُطَى جيش وانغ، وتزعَّمهم هناك الثائر «هوانغ تشاو»، وتحت قيادته تمكنوا من الاستيلاء على الألوية والمحافظات، وزحفوا من أجل الالتقاء برفقائهم في تشانغيوان بمقاطعة خنان، واندمج الجيشان وتنقلوا من شاندونغ إلى خنان وآنهوي وهوبي، وفي كل مكان مروا به

تركوا أثرًا تلقينيًّا على قوات أسرة تانغ، وكانت ضرَباتهم مبرحة ضد الموظفين الفاسدين ومُلَّاك الأراضي، حيث تمت السيطرة على أموالهم ومُمتلكاتهم وتم توزيعها على الفقراء، كان هذا سببًا بارزًا في استقطاب الفلاحين إلى هذا الجيش(272) .

من ناحية أخرى، حاول قادة وقوات الإمبراطورية الاستفاقة من أجل تصريف السيل الذي كاد أن يُغرِقهم، فتمكَّنوا بالفعل من صدِّ قُوى الانتفاضة، وفي صيف ٨٧٦ م؛ هاجم الجنرال «سونغ وانغ» قوى الانتفاضة وهزمهم في محافظة يي، وقدم سونغ تقريرًا للإمبراطورية يزعم أن قائد الفلاحين «وانغ شيان تشي»، قُتل في المعركة؛ ردًّا على ذلك، قام الإمبراطور «شيزونغ» بتسريحِ القوات وسمح لهم بالعودة إلى ديارهم(273) .

بعد أيام، وصَلت تقارير جديدة تفيد بأن وانغ لم يُقتل، وتم حشد القوات مرة أخرى، مما أثار استياء الجنود وزاد من غضَبهم، حتى تقدَّم وانغ وضم الكثير من المُدن، وأثناء المعارك تمكَّنوا من قتله بالفعل؛ وبعد قتله استمر القتال تحت قيادة القائد الثاني «هوانغ تشاو».

من أجل توسيع رقعة الحرب، وإرباك القوات الإمبراطورية؛ سافر مئات الألوف من المُتحاربين إلى الجنوب قاطِعين مسافة ٤٠٠ كم في شهر واحد خلال عام ٨٧٨ م، وتمكّنوا من الاستيلاء على الألوية والمحافظات في مقاطعات: جيانغشي، آنهوي، تشجيانغ، فوجيان، وبعد أشهر تمكّنوا من الاستيلاء على قوانغتشو، مقاطعة قوانغدونغ، وبعدها انتشر جيش الفلاحين على امتداد نهر يانغتسي ونهر هوايخه، واتسمت هذه التحركات بالانضباط التام؛ فلم يُسجّل أي عمليات سرقة أو نهب، أو أي تعدٍّ على ممتلكات الشعب، وكان هذا عاملًا مهمًّا لالتفاف الناس حول هذا الجيش والانضمام له، حتى أصبح تَعداده يتعدَّى ٦٠٠ ألف محاربٍ مع بداية عام ٨٨٠ م، ثم تمكّن الجَمْع من الاستيلاء على مدينة لويانغ، واختراق مانع تونغقوان الطبيعي، وأصبحوا على مقربة من العاصمة تشانغآن(274) .

لم يكن للإمبراطور «تان شي تسونغ» أي قرارٍ يملكه مع هذا الطوفان إلا الهرب؛ ففر إلى مقاطعة سيتشوان، كان ذلك قبل وصول جيش الانتفاضة إلى تشانغآن في ديسمبر ٨٨٠ م؛ الذي احتفل الناس بقدومه، حينها بادر الجيش بتوزيع الأموال والمؤن على الفقراء؛ لذا كان الترحيب بدخول هذا الجيش بمثابة احتفال شعبي(275) (276) .

في العاصمة تشانغآن، تجمَّع الناس حول زعيم الانتفاضة، وتم الإعلان عن سلطة الفلاحين الجديدة في البلاد، تحت اسم «دولة تشو الكبرى»؛ وتم تعيين الكادحين في المناصب لأول مرة(277) .

بعد إنشاء دولة الفلاحين، من الوهلة الأولى تمت مطاردة فلول تانغ والأرستقراطيين، وتم الاستيلاء على ممتلكاتهم؛ ومِن ثَم توزيعها على الفقراء، فهرب الكثير من فلول تانغ وقاموا بتجميع شتاتهم في الخفاء، وتمكنوا من حشد قواتهم المتبقية، ثم باغتوا السلطة الجديدة بحصارٍ للعاصمة لم يكونوا مُستعدين له، فلم تكن السلطة الجديدة لديها ما يكفي من احتياطي المؤن، فاضطروا للاستلام

بعد وقت قصير، وتمكّنت قوات منطقة شرق تشانغآن من تحرير العاصمة تحتَ قيادة الجنرال «تانغ تشو ون» عام ٨٨٣ م، الذي أتم هزيمة عصب جيش الفلاحين في جبل تايشان، شاندونغ، ثم تلاها هزائم واضحة لانتفاضة الفلاحين التي استغرقت عشر سنوات، كانت قد اقترفت فيها نجاحات مذهلة، لكن مع الهزيمة، استسلمت قوات الفلاحين الأخيرة التي كانت تحت قيادة القائد العسكري «تشو ون» في شمال الصين عام ٩٠٧م، أحدث هذا الاستسلام ذهولًا لدى الفلاحين، فجميعهم كانوا راغبين في مواصلة النضال، ولم يعلموا أن تشو قد عقَد صفقة مع عائلة تانغ، أعاد بموجبها الإمبراطور للحكم مُجددًا، لكنه جعله دُمْيةً في يديه، وفي نفس الوقت أعلن عن قيام «أسرة ليانغ» في شمال الصين، وعيَّن نفسه ملكها الأول(278) .

ظهور الأسر الخمس والدويلات العشر

تلا اغتصاب «تشو ون» وإعلانه عن قيام «أسرة ليانغ» الإعلان عن إعادة تأسيس ثلاث أسر آخرين: «جين، هان، تشو»، إلى جانب «تانغ وليانغ»، وأقاموا دويلاتهم على وادي النهر الأصفر، كما ظهرت دويلة جديدة في شانشي بشمال الصين، وتسع دويلات تالين في جنوب الصين، وقد سُميت هذه الفترة بـ «الأسر الخمس والدويلات العشر»، وهي حقبة من الاضطرابات السياسية والانقسام في التاريخ الصيني من عام ٩٠٧م، إلى ٩٧٩م (279) .

اتسمَت فترة هؤلاء بالصراعات والنزاعات الدموية، وقد حصَد الناس من أبناء القوميات المختلفة لهَبَ هذه النيران في أجوافهم، وفي خِضم هذا التوتر حدَث أمرٌ جَلَل في نطاق نفوذ «أسرة تشو»، وهو الانقلاب العسكري الذي وقع في شمال شرق كايفنغ عام ٩٦٠ م بقيادة القائد العسكري «تشاو كوانغ ين»، حينها اجتمع رجاله على تنصيبه إمبراطورًا للبلاد، فأعلن عن قيام «أسرة سونغ»، وأنه إمبراطورها الأول، تحت اسم «سونغ تاي تسو»، وفور تتويجه شنّ حروبًا ضاريةً على الدويلات الأخرى التي لم يسعفها الوقت للبناء الكامل، وكذلك ظَفِر بالانتصار على الأسر الملكية الأخرى الهَشّة، في محاولة لتوحيد البلاد مجددًا، كبداية لحقبة الإمبراطورية الصينية المتأخرة(280) .

* * *

الفصل الرابع

الصين الإمبراطورية المتأخرة

١ ـ التنافس على حكم الصين

(صراع سونغ مع القوى المسيطرة)

بدأت فترة تُعرف باسم «سلالة سونغ»، والتي ستنقسم تاريخيًّا إلى فترتي: سونغ الشمالية وسونغ الجنوبية.

خلال عهد سونغ الشمالية (٩٦٠- ١١٢٧م)، سيطرت الأسرة على معظم ما يعرف الآن بشرق الصين، مع وجود ممالك منازعة لها على الحكم في باقي البلاد.

بينما فترة سونغ الجنوبية (١١٢٧-١٢٧٩م) هي الفترة التي أعقبت فقدان سونغ السيطرة على النصف الشمالي منها، أمام سلالة جين بقيادة الجورشن في «حروب جين - سونغ»، وهي فترة مليئة بالصراعات والانقسامات، وكل هذه التفرعات سنرتبها كلًّا على حِدته؛ فيما هو قادم.

* * *

انطلق حكم «تشاو كوانغ ين» بقوة، ولمعرفته خطورة قوة القادة العسكريين، حرض رئيس وزرائه «تشاو بو» على انتزاع قيادة الجيش من هؤلاء الجنرالات؛ من أجل استرجاع السلطة المركزية المُطلقة، وبعد فترة بسيطة، جرد ولاة الأقاليم من سلطاتهم العسكرية، ووضع لوائح وأنظمة تنصُّ على إلزام الموظفين بجمع وتوزيع الضرائب والجبايا على مؤسسات الإمبراطورية فقط لا غير، ثم قام بوضع قاعدة متمركزة لحراسة الإمبراطور، ونظّم أسراب الجيوش وأمرها بالتوزُّعِ على حدود البلاد للحماية وترك أي أمورٍ أخرى، كانت هذه مجرد خطوات من أخرى عديدة، بغرض تعزيز وضع السلطة المركزية، ووضع حدٍّ لانفصال الأقاليم النائية، الذي تم في أواخر أسرة تانغ، على إثر التوترات والصراعات(281).

أمضى «تشاو كوانغ ين» المُلقب بالإمبراطور «سونغ تاي تسو» أو «تايزو من سونغ» ١٦ عامًا في غزو بقية الصين، وأعاد توحيد الكثير من الأراضي التي كانت تابعة لإمبراطوريتي هان وتانغ، وأنهى إلى حدٍّ ما اضطرابات فترة الأسرات الخمس والممالك العشر(282) .

كان إنشاء العاصمة في كايفنغ بمثابة بداية فترة سونغ الشمالية، وفي أوائل حكم هذه السلالة انقسم المجتمع إلى قسمين:

مُلّاك الأراضي، وعددهم قليل.

ومستأجرو الأراضي، وعددهم كان أكثر بكثير.

كانت الإيجارات تتعدّى دَخْل الكادح السنوي وأكثر، وبما أن نصف دخله المتبقِّي لم يكن كافيًا لسدِّ حاجته من العيش؛ انتشرت المعاملات الربوية، حيث اضطر المُستأجر إلى الاقتراض من سيد الأرض، مقابل سداد ضِعف المديونية بعد موسم حصاد الخريف، وبرغم أن هذا كان يتطلب من الفلاح عملًا مضاعفًا؛ لكنه بشكل أو بآخر أسهم في الاستقرار المؤقت في طليعة الحُكم، خاصةً أنه كان يُسمح للكادح أن يترك الأرض لسوء معاملة سيدها؛ ويستأجر من غيره بِحُرية بعد وفائه بالدّين إن كان مَدينًا له(283).

تسببت هذه الإصلاحات في سريان نوعِي لعجلة الإنتاج الزراعي التي كانت مريضة من قبل، وتوسّعت مساحات الحقول المنزرعة، كما ازدهرت المِهن الحرفية، على رأسها أعمال الحدادة، والخزفيات، والأواني المميزة مختلفة الأشكال (بعضها يشبه الخوخ والرمان)، وكذلك صناعة الحرير والمشغولات، التي بلغت أرقى مستوياتها في سيتشوان؛ لذلك أمر الإمبراطور «تشاو كوانغ ين» بنقل ٢٠٠ نساج من سيتشوان إلى العاصمة، فازدادت أصناف المُنتجات الحريرية وتعدَّدت ألوانها(284).

من ناحية أخرى، تم استخراج الفحم على نطاق واسع، وتمكّنت بعد ذلك أسرة سونغ من استخراج ٣٥٠٠ طنٍّ سنويًّا من الحديد، كما روَّج الإمبراطور للمشاريع التي ضمَّنت كفاءة

الاتصال في جميع أنحاء الإمبراطورية، وفي إطار تنفيذ هذه المشاريع أنشأ رسامو الخرائط خرائط تفصيلية لكل مقاطعة ومدينة، تم جمعها بعد ذلك في أطلس كبير (285)

الإمبراطور)المؤسس)«سونغ)تاي)تسو»)(تايزو)من)سونغ).

ازدهرت الصناعة بتبني الإمبراطور «سونغ تاي تسو» لها، وقام بدعم وتعزيز الابتكارات العلمية والتكنولوجية الرائدة؛ من خلال دعم أعمال مثل برج الساعة الفلكية الذي صمَّمه وبناه المهندس «تشانغ سيكسون»(286) .

مع ازدهار الزراعة والصناعة؛ ازدهرت التجارة بالتبعية، ومع الاستقرار؛ انتشرت المحال التجارية في المدن الرئيسية، كما ظهرت الأسواق الكبيرة في القرى والبلدات، وبيع فيها الغلال والأقمشة والمواشي والأواني الفخارية والخزفية، حتى توسّعت هذه الأسواق وحولت هذه القرى الريفية إلى مدن صغيرة بعد ذلك، أما العاصمة دونغجينغ(سِ) فكان لها نصيب هائل من التحضُّر؛ وتعددت فيها المحال التجارية والمعامل الحرفية، ومع المزيد من الاستقرار والتطور؛ ظهر فيها المتنزهات وأماكن التسلية، وأماكن أخرى فنية راقية اجتمع فيها الفنانون لعرض المسرحيات، وسرد الروايات، وإلقاء الشعر، وبعض الألعاب البهلوانية والمصارعة، وازدهرت الفنون في هذا المجتمع الراقي، ورسم الفنان الشهير «تشانغ تسي دوان» لوحته الشهيرة «على ضفاف النهر في عيد تشينغمينغ»؛ والتي تُعتبر مرجعًا لازدهار العاصمة دونغجينغ على امتداد ضفتي نهر «بيان» آنذاك؛ حيث أظهرت أجواء التحضر من خلال رسمه للمتاجر بجانبي الشارع، والباعة المهللين، والمارة ذهابًا وإيابًا، كما راجت النقود الفضية النحاسية والحديدية، وظهر في هذا الوقت نقود «جياوتسي»، أقدم النقود الورقية في العالم(287)

أجزاء)مجمَّعة)من)لوحة)«على)ضفاف)النهر)في)عيد)تشينغمينغ»)للفنان)«تشانغ)تسي)دوان».

بالنظر إلى الترتيب الاجتماعي داخل إمبراطورية سونغ؛ فسنرى أن كبار الموظفين ومُلّاك الأراضي تمتعوا بنفوذ واضح، بعدما تمكّنوا من شراء نسبة كبيرة من الأراضي، على سبيل المثال، في سيتشوان وحدها، كانت نسبة الفلاحين المستأجرين ما بين من ٧٠ إلى ٨٠ ٪، وكان السيد الواحد يستعبد عشرات الفلاحين، وأحيانًا كانوا مئات، بل وبعضهم استعبد الآلاف، وكان هؤلاء المناكيد يدفعون ضرائب باهظة بالإجبار، إلى جانب الإيجار المعتاد، وعندما لجأ هؤلاء المغلوبون على أمرهم بزيادة مدخولهم من خلال العمل في الغزل والنسيج وقطف الشاي وغيرها من الأعمال. تصدّت لهم الحكومة بحجة أن هذه الأعمال تخضع للحِكر الحكومي؛ ولا يجوز للأفراد المتاجرة بها، فنحَر الجوع بطونهم(288).

من ناحية أخرى، تمتع الأسياد والموظفون الحكوميون بحياة الترف والبذخ، لدرجة أن هؤلاء الأسياد كانوا ينفقون ببذخ في لعبة مصارعة الدِّيَكة؛ وكانت خيولهم ألجِمتها من الذهب؛ في وقتٍ كان الكادحون ينامون فيه دون غذاء، كانت هذه الأحداث أجواءً مناسبة لعودة حياة الانتفاضات

والنضال(289).

انتفاضة الفلاحين وحلم قيام «شو الكبرى»

أقدم الفلاحون على انتفاضة في عام ٩٩٣ م؛ قادها الفلاحان: «وانغ شياو بوه، و«لي شون»؛ بمدينة تشينغتشنغ، كان سببها المُعلن عدم المساواة بين الغني والفقير، فلحق بهما جموع غفيرة من الفلاحين، وتمكَّنت القوة الفلاحية من احتلال مدينة تشنغدو في عام ٩٩٤ م؛ وإعلان قيام دولة الفلاحين مجددًا، تحت اسم «دولة شو الكبرى»، وهو نفس الاسم الذي استخدمه الثائرون السابقون أثناء قيام السلطة الفلاحية الأولى عام ٨٨٠ م، والتي كانت سببًا رئيسيًّا في نهاية أسرة تانغ(290)، لكن هذه المحاولة الجديدة انتهت بعد شهور من إعلانها؛ على يد حكومة سونغ التي قمعتهم في عام ٩٩٥م(291).

من ناحية أخرى، كانت أسرة سونغ في مشكلة اقتصادية بسبب مواجهة هذه الانتفاضة؛ وكذلك التوسعات العسكرية الأخرى، بالإضافة إلى زيادة الموظفين ورواتبهم التي كلفت خزانة الإمبراطورية أموالًا طائلة، والأكثر من ذلك؛ التكلفة الباهظة تجاه ما تقدمه الإمبراطورية من كَميات هائلة من الفضة والحرير لمملكتي «لياو» و«شيا الغربية» (في فترات السلام)؛ فاضطرت الإمبراطورية لفرض الضرائب الباهظة، التي كانت تَصُبُّ في عناء الفلاحين، على الرغم من أنهم لا يملكون شيئًا، فأكثر من ٧٠ ٪ من الحقول بيد السادة والأرستقراطيين ورجال البلاط أصلًا، ومن عناءٍ إلى عناء؛ واجه الفلاحون أزمة قحطٍ وفيضان؛ أجبرت بعضهم على الاقتراض الربوي؛ وأجبرت البعض الآخر على الهروب والتشريد، وتفاقم الوضع مع بلوغ أواسط أسرة سونغ، وظهرت الاحتجاجات الفلاحية مجددًا، ومع هذه الاحتجاجات واجه أسرة سونغ أزمة سياسية كبيرة، بسبب تهديد مملكتي «لياو» و«شيا الغربية» بحجة نقص الجباية الواردة، كان الحل المُنقذ هو البحث عن إصلاحات سياسية واقتصادية تُخلِّص الحكومة من هذه التورطات.(292)

إصلاحات وانغ آن شي

مع وصول عهد الإمبراطور «سونغ شن تسونغ»؛ ظهرت محاولات ترتيب الخارج والداخل، وفي عام ١٠٦٩ م حدثت بعض التغيرات الوزارية في الإمبراطورية، كان أهمها اختيار الاقتصاديِّ والفيلسوفِ والشاعر والسياسي «وانغ آن شي» رئيسًا للوزراء، وعندما طُلب منه وَضْع إصلاحات سريعة، أجاب بأن فقر الدولة سببه قلة المنتجات، فأقدم على قوانين تضاعف من الإنتاج، بشرط الحد من استغلال أصحاب الأراضي للفلاحين، كان من أهمها(293) (294):

١- عدم الاقتراض من أسياد الأراضي، والإقبال على الاقتراض من الحكومة نفسها، بفائدة لا تتعدى ٢٠ ٪، فوضع بذلك حدًّا لاستغلال الفلاحين.

٢- التشجيع على تشييد منشآت الري، واستصلاح الأراضي البور، وفرض الضرائب بحسب حالة كل أرض وإنتاجها، واقتطاع الأراضي التي استولى عليها أصحاب الأراضي، وضمها

للحكومة، وحقق ذلك انتعاشًا لخزانة الدولة.

٣- سحب وجوب التجنيد الإجباري على الفقراء في حال دفع الأسرة لمبلغ مقابل ذلك، أما الميسورون فكان المبلغ المطلوب منهم أكبر، وكان هذا ضمانًا لحصد الأموال من ناحية، ومن ناحية أخرى تفرغ من يريد الإنتاج لعمله.

٤- نشر الأمن العام في كل مكانٍ، من خلال وضع كل عشر عوائل في وحدة، وكل خمسين عائلة في جماعة، وتعيين فتيانهم خفراء للجماعة، ودربوهم عسكريًّا بعد موسم الحصاد، مع وجوب انضمامهم للجيش في حالة الحرب، وقد خفض هذا البند تكاليف نفقات الجيش

عُرفت هذه التعديلات باسم «إصلاحات وانغ آن شي»، وشكّلت هذه الإصلاحات المفاهيم الأساسية للإصلاحيين في عهد أسرة سونغ.

في أعقاب ذلك؛ قام الإمبراطور «سونغ شن تسونغ» بالاستعانة بمحاربين مسلمين من بخارى أوزبكستان (بعد ما انتشر فيها الإسلام بسبب فتوحات الخلافة الإسلامية) للقتال ضد أسرة «لياو»، وتم استقدام ٥٣٠٠ رجل مسلم من بخارى في عام ١٠٧٠م من أجل المساعدة في محاربة مملكة «لياو» في الشمال الشرقي؛ وإعادة إعمار المناطق التي دمَّرها القتال، وفي وقت لاحق استقر هؤلاء الرجال بين عاصمة سونغ بيانليانغ - كايفنغ، وينشينغ(ع)، وتمت تسوية دوائر الشمال والشمال الشرقي في عام ١٠٨٠م؛ عندما تمت دعوة ١٠٠ ألف مسلم إضافي إلى الصين(295) .

أما عن إصلاحات «وانغ آن شي»، فعشر سنوات كانت كافية لظهور ملامح نجاح هذه التعديلات، بل بمجرد بلوغ السنة السادسة كانت قد بُنيت ١٠ آلاف منشأة من منشآت الري؛ لري ٢ مليون و٤٠٠ ألف هكتار(ف)، وانتعش الاقتصاد، وتعزَّزت القوة العسكرية.

على الرغم من أنه كان نجاحًا مذهلًا في وقتٍ قياسي؛ لم يُعجب هذا الوضع المحافظين، ورفض بعض الموظفين المحليين تنفيذه، وحاربت هياكل الدولة هذه الإصلاحات، وتمرد عليها مُلّاك الأراضي.

إلغاء إصلاحات وانغ آن شي

عندما تولى «سي ما قوانغ» رئاسة الوزراء ألغى هذه الإصلاحات؛ وظهر الفساد مجددًا، وفي ولاية الإمبراطور «هوي تسونغ» كانت الأزمة في تفاقم جديد، خاصةً بسبب بذَخه هو وبلاطه ووزرائه، وتفاقمت معاناة الشعب، لدرجة أنه ذات مرة أراد أن يبني حديقةً مميزة في قصره، فأرسل رجاله إلى جنوب نهر يانغتسي لجمع الأزهار الفريدة، وطلب منهم البحث عن كل ما هو فريدًا، وإذا وجد أحدهم شيئًا مميزًا في بيت أي عائلة يختطفه؛ حتى لو تطلَّب هذا هدم البيت على رءوس ساكنيه، وتحت مسمى «جمع العجائب»، نهَب موظَّفوه مقدَّرات وأموال السكان حتى أفلست العوائل المتوسطة، أما العوائل الفقيرة فوصلت إلى حدِّ بيع بناتها وأولادها من أجل الطعام، ومع كل ذلك توجَّب عليهم دفع ضرائب على الأنفاس، كانت الانتفاضة شيئًا حتميًّا في ظل هذا

الوضع، خاصةً بعد إلغاء القانون الجديد، وهو ما سيحدث لاحقًا(296).

أما خارجيًّا: فإلى هذه اللحظة حافظت إمبراطورية سونغ على علاقات دبلوماسية كبيرة مع الهند، ومع الخلافة الفاطمية التي حكمت من مصر، وسريفيجايا، وخانات كارا خانيد في آسيا الوسطى، ومملكة كوريو في كوريا، واليابان(297) .

وبرغم هذا الاعتراف والتعامل الدولي نافست امبراطورية سونغ دويلات أخرى من الأقليات القومية على حكم الصين؛ كـــ: «أسرة لياو»، و«أسرة شيا»، و«مملكة جين»، وسنتناولهم الآن فُرادى، لربط علاقاتهم بأسرة سونغ بشكلٍ مرتب.

* * *

في البداية استقرت قبائل «خيتان» بوداي نهر لياو، واتصلت بوسط الصين في عهد أسرة وي الشمالية، وكان أفرادها يعيشون على الرعي والصيد، يتاجرون في الماعز والخيل والجلود مع قومية الهان، حتى امتد نفوذها إلى خبي وشانشي في أواخر أسرة تانغ، وبسبب توجُّه بعض الفلاحين الهانيين إلى شمال سور الصين العظيم؛ عندما فروا من الحروب المتتالية؛ اندمجوا مع قومية خيتان وتركوا أثرًا واضحًا على مجتمعها، وعلموهم فنون الزراعة والغزل والنسيج وصناعات أخرى، كما علَّموهم تشييد البيوت وكيفية تسوير المدن، إلى جانب تطور الزراعة وتشييد المدن والتطبيع بالثقافة الهانية(298).

بعد تمرد آن لوشان، أصبح الخيتانيون تابعين للأويغور بينما كانوا يدفَعون الجزية لتانغ في نفس الوقت، وهو الوضع الذي استمر من ٧٥٥ م حتى سقوط الأويغور في ٨٤٠ م، حينها كان الخيتانيون رافدًا وفيًّا لسلالة تانغ، لكن قُرب نهاية تلك الفترة؛ بدأ الخيتانيون سلسلة من الفتوحات الكبرى في ظل ضعف التانغ(299) .

مع قدوم أوائل القرن العاشر تم توحيد قبائل خيتان، في وقت قريب من انهيار أسرة تانغ؛ وتحديدًا في عام ٩١٦ م، ثم تأسست بعد ذلك دولتهم رسميًّا تحت قيادة ملكهم «أوباجي» الذي ادَّعى اللقب الإمبراطوري السماوي، واستبدل اسم خيتان بأسرة لياو، وجعل شانغجينغ عاصمة لها، وبنى معبدًا كونفوشيوسيًّا، وتمت تسميتها بـــ «لياو العظمى»، وحكمت في أقصى اتساعها شمال شرق الصين، والهضبة المنغولية، والجزء الشمالي من شبه الجزيرة الكورية، والأجزاء الجنوبية من الشرق الأقصى الروسي، والطرف الشمالي لشمال الصين(300) .

في هذا النطاق، تجمع تحت حكمها قوميات أخرى بجانب خيتان؛ وهم: الهان وهويخه، وعزز أباوجي بناء ٣٠ مدينةً مسورة أخرى لكي يسكنها رعاياه من عِرْقية الهان، وانضموا إلى العاصمة العُليا «العاصمة الشرقية» (دونغجينغ)، ثم قام بتقسيم إدارة الإمبراطورية بين الإدارة الشمالية التي تشرف على السهوب؛ والشئون القبلية والمؤسسة الجنوبية التي تُشرف على السكان المستقرين، والهان(301) ، واستعان أباوجي بالعلماء الهانيين لوضع القوانين والأنظمة.

بعد أن اكتمل توحيد سونغ للجنوب عام ٩٧٨ م، اتجهت قوات سونغ العسكرية نحو الشمال ضد هان الشمالية، وتمكنت بالفعل من ضمها في عام ٩٧٩ م، وبرغم ذلك، لم تنجح الجهود المبذولة للاستيلاء على المقاطعات الستة عشر، التي اختارت أن تتحد سلميًّا مع مملكة لياو الصاعدة بقوة(302) .

عندما جلس ابن أباوجي على كرسي الحكم، طلب منه «شي جينغ تانغ» (القائد العسكري لأسرة تانغ التي حُلّت وتصارع حاليًّا من أجل البقاء)، أن يساعده في الإطاحة بما تبقَّى من أسرة تانغ بشرط أن يكون وزيرًا له، وهنا أُبرم اتفاق لسَحْق تانغ، (حينها شرع»شي جينغ تانغ» في

تأسيس ما سيُعرف لاحقًا باسم «أسرة جين») وبعد إبادته لفلول تانغ؛ وفّى بوعده، وعرض على مملكة لياو أراضٍ شاسعة في يوتشو ويونتشو، فتحولت سلطة خيتان الى سلطة إقطاعية بزعامة شيوخ القبائل ومُلّاك الأراضي من قوميتي خيتان وهان، وحمل ابن «أوباجي» اسم «ملك لياو»(303) .

عسكريًّا: خاضت لياو حروبًا عسكرية مع كلٍّ من: أسرة سونغ؛ ومملكة كوريو الكورية في عام ٩٨٦، لكن سونغ القوية تمكّنت من شن غزو ثلاثي المحاور على لياو، وسرعان ما تغلّب جيش سونغ على دفاعات الحدود الخيتانية، لكن المد انقلب عندما غامروا بالتوغل في عمق أراضي العدو، فتمت محاصرة جيوش سونغ بطريقة محكمة، مما أدى إلى انتصارات مدوية للياو على الجبهات الثلاث، وعلى الرغم من انتصارهم، فقد تعرضت الحدود لأضرار بالغة؛ وفرَّ الكثير من الناس من منازلهم؛ ولن تتعافى المِنطقة لسنوات(304) .

التحالف على حافة تشانتشو

بعد فترة محدودة من التعافي، شنَّت أسرة لياو هجمات مكثَّفة جديدة ضد أسرة سونغ عام ١٠٠٤ م، لدرجة أنها هددت عاصمة سونغ؛ حينما اقتربت القوات من مدينة تشانتشو شمال النهر الأصفر، وقتها شعر إمبراطور سونغ «تشن تسونغ» بالقلق البالغ، فأشار عليه وزراؤه بالهروب إلى الجنوب، فغضب منهم رئيس الوزراء «كيو تشون» واتهمهم بالخيانة، ودعا إلى حمل السلاح، ثم حثَّ الإمبراطور على أن يكون في مقدمة الجيش(305).

تأهب الجيش وانطلق حاملًا إمبراطوره، وبينما هو في الطريق نصحه أحدهم بالفِرار؛ فتدخل رئيس الوزراء مجددًا لبث العزيمة في قلبه، لافتًا نظره إلى أنه إن عاد سيتسرّب القلق إلى صفوف محاربيه، فواصل الإمبراطور حتى وصل إلى شمال مدينة تشانتشو، وكل ما يدور في ذهنه هو البحث عن أي وسيلة أخرى غير الحرب؛ لا سيما المفاوضات السلمية، حينها أخَذ قراره بالتفاوض، كان هذا التفاوض يُحتِّم على قوات لياو الانسحاب؛ مقابل دفع ١٠٠ ألف أوقية من الفضة، و٢٠٠ ألف بي من الحرير(ص) ، فيما يُعرف تاريخيًّا بـ «التحالف على حافة تشانتشو»، وقد أدى هذا التحالف إلى علاقات تجارية بين الأسرتين(306).

لكن برغم التفاوض المؤقَّت مع لياو وسد أخطارها، لم يتوقف بذلك توتر أمور السياسية الخارجية، فهناك صراعات أخرى مع «مملكة جين»؛ و«مملكة شيا الغربية».

* * *

تحدي مملكة شيا الغربية

كان هناك قبيلة من فروع قبيلة تشيانغٍ اسمها قبيلة «دانغشيانغ»، كانت تتنقل على امتداد مناطق تينغشيا وقانسو وشمال غرب شانشي من أجل الرعي، منذ أواسط أسرة تانغ السابقة، ومع نهاية أسرة تانغ كان قد تمكَّن زعماؤها من احتلال مساحات كبيرة من الممر المؤدي إلى قانسو، وفي

بداية الأمر لم تنجح دولة سونغ في ترويضهم، كان هذا في نفس الوقت التي تمتعت فيه شيا الغربية بدبلوماسية جيدة مع مملكة لياو ، تفوقت على دبلوماسية لياو مع سونغ، وبسبب ترابط العلاقات منحت لياو زعيم قبيلة «دانغشيانغ» لقب «ملك شيا»(307).

حينها حَذَا حذوها أسرة سونغ هي الأخرى وسارعت للتحالف وتوطيد العلاقات معها، حتى تم الإعلان عن «مملكة شيا الكبرى»؛ بقيادة زعيم القبيلة «يوان هاو»؛ في عام ١٠٣٨ م، الذي اختار «شينغتشينغ» عاصمة لها، وهذه المملكة سمِّيت باسم «مملكة شيا الغربية» بسبب وقوعها شمال غربي سونغ، وهي معروفة باسم «مي-نياك» عند التانغوتيين والتبتيين(308) .

أصبحت هذه السلالة البوذية الصينية ذات مملكة يتهافت الجميع على التحالف معها، وفي ذروتها حكَمت السلالة المقاطعات الشمالية الغربية الصينية الحالية نينغشيا وقانسو وشرق تشينغهاي وشمال شنشي وشمال شرق شينجيانغ وجنوب غرب منغوليا الداخلية وأقصى جنوب منغوليا الخارجية، وبلغت مساحتها حوالي ٨٠٠ ألف كم²(٣١٠ ألف ميل مربع)(309) .

مثلها مثل مملكة لياو؛ اعتمدت هذه المملكة على الثقافة والقوانين الهانية؛ وعينت معظم قادتها من الهان، وتدريجيًّا تحوَّلت إلى مجتمع إقطاعي، وكانت تستوعب العديد من القوميات كـــ «الهان، وتوفان، وهويخه»، وقام اقتصادها على الرعي وتربية الأبقار والغنم والخيول والملح وزراعة الشعير، أما المزارعون فكان معظمهم من الهان، وقد حققت هذه المملكة إنجازات في الأدب والفن والموسيقى والهندسة المعمارية(310) .

باحتلال شيا الغربية للمنطقة المحيطة بممر هيكسي؛ أصبح لها نفوذ ليس بقليل على امتداد طريق الحرير، وقد استدعاهم موقعهم الواقع بين إمبراطوريات لياو وسونغ وجين إلى تصميم تنظيمات دفاعية عسكرية فعَّالة، حيث درّبوا سلاح الفرسان والمركبات والرماية والدروع والمدفعية (المدافع المحمولة على ظهور الجمال) والقوات البرمائية؛ على «القتال على الأرض وفي الماء»(311) .

بسبب التعاظم الواضح، شن الملك «يوان هاو» هجمات عسكرية لتهديد نفوذ أسرة سونغ؛ ووقعت الخسائر بين الطرفين، وبعد مواجهات مريرة انجرف الطرفان ناحية هدنة تمكنهم من لملمة خسائرهم، وتحقَّقت فعلًا في عام ١٠٤٤ م، وقد نصَّت على تعيين الملك يوان وزيرًا لإمبراطور سونغ؛ مقابل منحه كل سنة ٨٠ ألف أوقية من الفضة، و١٥٠ بي من الحرير، و١٥ طنًّا من الشاي، فازدهرت التجارة بين الطرفين، وعم السلام بينهما، وانتقلت التجارب الحضارية الصناعية والثقافية من سونغ إلى شيا(312).

انتهى بذلك التحدي الثاني المتمثِّل في نفوذ «مملكة شيا الغربية»، وبقِي تحدي «مملكة جين»، فهل ستنتصر سونغ في التحدي، أم أن لجين رأيًا آخرَ؟

هذا ما سنعرفه.

* * *

انبثقت قومية تُدعَى «نيوتشن» (جورشن) من قبيلة «موخه»؛ التي عاشت على امتداد جبل تشانغباي والوديان الواقعة حول نهري هيلونغ وسولغهو، وكانت قومية نيوتشن تقتات على الزاد المكتسب من خلال الارتحال، وفي حياتها البدوية نصبت نيوتشن خيامها بجانب الأماكن الصالحة للعيش صيفًا؛ وأوت إلى الكهوف شتاءً، واشتهر رجالها بالفروسية والرماية، ثم مع الوقت وُلد من رحِم قومية نيوتشن؛ قبيلة «وانيان» في القرن الحادي عشر، وكان لهذا الخَلف مظاهر حياتية جديدة؛ منها الإقبال نوعيًّا على حياة الحضر، وبجانب الزراعة أجادوا أعمال الحدادة(313).

في عام ٩٣٦ قام «شي جينغ تانغ» القائد العسكري لأسرة تانغ بعد الوفاء بوعده مع لياو؛ بالقضاء على ما تبقَّى من تانغ، وتأسيس «سُلالة جين المتأخِّرة» في تاي يوان بمساعدة مملكة لياو، وفي العام التالي؛ نقل «شي جينغ تانغ» العاصمة من تاي يوان إلى لويانغ، ثم إلى كايفنغ، وأصبحت تاي يوان عاصمة شمالية مؤقتة، ثم توفِّى «شي جينغ تانغ» في ٢٨ يوليو ٩٤٢ م، وقد شهِدت سنواته الأخيرة والسنوات التي تلت موته صراعات واضطرابات في المملكة الوليدة(314)

.

في ظل محاولة توحيد سونغ للبلاد؛ مع حلول أوائل عام ٩٦٩ م حاصرت جيوش سونغ العاصمة تاي يوان من أجل سحق جين، وهزمت التعزيزات التي أرسلتها لياو؛ وكادت المدينة أن تغرق خلال تنفيذ حصار مُحكم، لكن تمَّ رفع الحصار بعد ثلاثة أشهر، حيث تسبَّبت الأمطار الغزيرة في انتشار الأوبئة في الجيش المحاصِر، وبسبب الأحوال الجوية نفدت الإمدادات، فقرّرت قوات سونغ الإخلاء وفك الحصار قبل قدوم قوة إغاثة أخرى من لياو تتقدم نحو المدينة(315) (كان ذلك قبل صُلح سونغ مع لياو المذكور في الفقرة السابقة).

ظلت جين تنضب أمام قوة سونغ وأمام لياو التي خرقت معاهدة السلام، وبدأت تعاملها على أنها من إحدى روافدها، ومع بداية القرن الثاني عشر ظهر من بينهم فارس شجاع اسمه «آغودا من وانيان»؛ لما برز اسمه كمغوار؛ عُين زعيم على قومية نيويتشن كلها، خاصةً بعدما بدا عزمه على قطع أيدي حكام أسرة لياو؛ التي تطاولت عليهم وفرضت عليهم الإتاوات؛ واعتبرتهم رعايا من الدرجة المتدنِّية، فاجتمع أبناء قوميته حوله في عام ١١١٥ م، وأعلنوه ملكًا لدولتهم الجديدة التي سُميت «جين»، وعاصمتها هوينينغ، وتُكتب أحيانًا باسم كين أو تشين ، ويُطلق عليها أيضًا أحيانًا اسم «سلالة جورشن « أو «جورشن جين»؛ لأن أعضاء عشيرة وانيان الحاكمة كانوا من أصل جورشن (ق)(316) .

في ظل النهوض السياسي، برزت تطورات ثقافية جديدة على جين؛ مثل إحياء الكونفوشيوسية، وطوال فترة حُكمهم تكيف أباطرة سلالة جين العرقية الجورشنية مع عادات هان، ومن أهم أعمالهم العسكرية، قيامهم بتحصين سور الصين العظيم ضد صعود المغول الذين بدءوا يدخلون في المشهد.

دخلت جين في تحالف بحري مشترك مع أسرة سونغ الشمالية، واتفقا على غزو «مملكة لياو» وتقاسمها فيما بينهم، وحينما تعثّرت جيوش سونغ؛ دخل جيش جين وحده للقضاء على أسرة لياو في عام ١١٢٥م(317) .

من حسن الحظ، في النفس الوقت هبت الانتفاضات داخل مملكة لياو، بسبب ظلم الناس من طبقة الحكام الذين سرقوا قوتهم، وأجهزوا على الموظفين الفاسدين التابعين للملكة، وبادروا بضربات قاسمة لسلطة المملكة، فاستغل آغودا ملك جين الأحداث؛ واحتل بقواته أماكن شاسعة من أراضيهم، ومع المزيد من التوغل تمكّنوا من أسر ملك لياو الأخير في عام ١١٢٥ م؛ لتنتهي بذلك «مملكة لياو».

بعد وفاة أغودا، علمت مملكة جين أن الوضع داخل إمبراطورية سونغ مُهَلهل، وأن الفساد الداخلي قد زاد من غضب الرعية، وأن التوترات منتشرة في كل مقاطعاتها، فبيتت أسرة جين النِّية على كسر تحالفها مع أسرة سونغ وغزو شمال الصين؛ كبداية لصراع عسكري سيستمر لقرنٍ من الزمان ضد أسرة سونغ، بمساعدة هان جنوب الصين فيما يُعرف بـــ «حروب جين - سونغ»(318)

* * *

نهاية سونغ الشمالية على يد جين

بالرجوع إلى التوترات داخل إمبراطورية سونغ، والتي اشتدت في أيام الإمبراطور المبذر: «هوي تسونغ»، الذي سرَق مقدَّرات الناس تحت مسمَّى «جمع العجائب»، فبعد أن نهب موظفوه مقدرات وأموال السكان، وبعد أن أفلسَت العوائل المتوسطة وكذلك موت الفقراء جوعًا؛ كانت الانتفاضة شيئًا حتميًّا في ظل هذا الوضع.

انتفاضة الفلاحين بقيادة: فنغ لا - سونغ جنانغ

عندما اغتصب مُلَّاك الأراضي ورجال البلاط الخيرات والأزهار العجيبة؛ هرَب الفلاحون الفقراء إلى الجبال بسبب بشاعة المشهد، كان منهم شابٌّ أجير لأحد مُلّاك الأراضي بولاية موتشو(ر) يُدعى «فانغ لا»، حينما أمسك به سيده حبسه في مستودعه، لكنه تمكَّن من الهرَب بمساعدة الفلاحين، فصرَخ في الفلاحين من أجل الانتفاض؛ فاستجابوا له وأعلنوا عن قيام انتفاضتهم في عام ١١٢٠ م؛ منددين بهذه الأوضاع القاسية، بالإضافة إلى رفضهم للمصالحة مع مملكتي لياو وشيا الغربية والجباية التي كانت تدفع لهم (في وقت الانتفاضة)، وتم اتهام «فانغ لا» باعتناق ونشر الديانة العالمية وقتها؛ «الديانة المانوية»، التي تأسست في القرن الثالث الميلادي؛ على يد ما يسمَّى بالنبي «ماني»؛ المولود في في بابل (٢١٦-٢٧٤ م)، لكن اتضح أنه لم يعتنقها(319) .

انطلقت انتفاضة فانغ من تشينغشي، مقاطعة شونان، واستولت قواته على مدينة هانغتشو، ثم

سيطرت بعد ذلك على أجزاء من مقاطعات جيانغسو وتشجيانغ وآنهوي وجيانغشي الحالية، بإجمالي ٥٢ مقاطعةً وست محافظات(320) ، وكالعادة أعدموا الموظفين الفاسدين.

انطلقت قوات الإمبراطورية نحو جنوب شرقي الصين من أجل قمع التمرُّد، وتمكَّنت من ملاحقتهم، حتى أجبرتهم على الاختباء في المغاور(ش) ، لكن من ناحية أخرى، انطلقت انتفاضة فلاحية ثانية بقيادة «سونغ جنانغ» على امتداد خبي، شاندونغ، خنان، وبرغم أنها أبلت بلاءً حسنًا، كان مصيرها الفشل، بسبب قوة جيش الطبقة الحاكمة، وبرغم هزيمة القوتين؛ تركت الانتفاضات أثرًا وشرخًا كبيرًا في صفوف الجيش الإمبراطوري؛ وقد عجَّلت كثيرًا من انهياره على يدِ قوات جين(321).

الانهيار ونهاية الحكم

مع تسارع الأحداث وإضعاف إمبراطورية سونغ من الداخل بسبب الانتفاضات وانتشار الفساد؛ لاحظ الجورتشين (الذين كسروا تحالفهم مع سونغ) الأداء المنحدر والضعف العسكري لجيش سونغ، وبدءوا «حروب جين - سونغ» بين عامي ١١٢٥ و١١٢٧ م؛ التي بدأت بهجمات عنيفة شنها جين؛ أربكت حينها الإمبراطور «سونغ هوي تسونغ» (هويتسونغ)؛ الذي تنازل في نفس الوقت عن العرش لابنه «سونغ تشين تسونغ»(تشنزونغ) (322).

انطلق جيش جين بسرعة عبْرَ سهل شمال الصين إلى كايفنغ؛ واقتربت قوات جين من كايفينج عاصمة سونغ في عام ١١٢٦ م، حينها انقسمت حكومة سونغ الشمالية إلى طائفتين:

طائفة أولى: قررت الاستسلام وتسليم الأراضي إلى حكَّام جين.

طائفة ثانية: (كان معها الشعب) قرّرت المقاومة والنضال، وأجبرت هذه الطائفة الإمبراطور «سونغ تشين تسونغ»، على تعيين «لي قانغ» في رئاسة الوزراء؛ بسبب دعمه الواضح لقرار المقاومة، وبفضل قيادة لي تم صد الهجوم بشكل ناجح، لكن برغم ذلك، أقدم الإمبراطور على قرار فردي بالتفاوض مع قوات جين، ومن أجل إرضائهم عزل كبير الوزراء «لي قانغ» من منصبه، لكن هذا التخاذل لم يَكُنْ ضمانًا لحماية مصلحة الإمبراطور؛ فبعدَ شهور بسيطة استولت قوات مملكة جين على العاصمة، لم يستول الجورتشين على العاصمة فحسب، بل أيضًا أسَروا الإمبراطور المُتقاعد «سونغ هوي تسونغ»، وخليفته الإمبراطور «سونغ تشين تسونغ»، ومعظم البلاط الإمبراطوري، لتنتهي ولاية سلالة سونغ في الشمال في عام ١١٢٧ م(323) .

* * *

سلالة سونغ الجنوبية

في محاولة لعدم قطع نسل سلالة الحكم من آل سونغ، أعلن الابن الثاني للإمبراطور «سونغ هوي تسونغ»، المعروف باسم «سونغ قاو تسونغ» (سونغ جهيتسونغ)، أن الحكم لا زال قائمًا في أسرة سونغ، لكن تم نقله إلى ولاية ينغتيان(ت)، ثم بعدها انتقل إلى ولاية لينآن(ث)؛ وأعلنها

عاصمة لحُكمه، ليبدأ تاريخ أسرة سونغ الجنوبية.

على الرغم من ضعف السلالة الجنوبية الجديدة؛ فإنها وجَدت طُرقًا جديدة لتعزيز اقتصادها القوي والدفاع عن نفسها ضد أسرة جين، وكان لديها ضباط عسكريون قادرون على حمايتها، كما قامت حكومتها الوليدة برعاية مشاريع ضخمة لبناء السفن وتحسين الموانئ، وبالتالي بناء منارات ومستودعات لهذه الموانئ البحرية، بغرض الشروع في دعم التجارة البحرية في الخارج، بما في ذلك الموانئ البحرية الدولية الكبرى مثل: «تشيوانتشو وقوانغتشو وشيامن»، التي كانت تدعم التجارة الصينية(324) .

أما عن مملكة جين القوية؛ فقد امتد نفوذها إلى مناطق ما بعد سونغ الشمالية، فشرعت في ملاحقة وسَحْق سونغ الجنوبية، وعندما وصلت قواتها لضم أودية النهر الأصفر، باغتتهم الجبهات الشعبية هناك، وشكّلت جماعات عسكرية مسلحة؛ عسكرت بين الجبال وبكثب الأنهار والبحيرات، ومن وقت لآخر غارت بقوة على قوات جين الوافدة، كان من أبرزهم: «جماعة المقاطع الثمانية»، والتي عُد جنودها أكثر من ١٠٠ ألف، ثم استقطبت ألوفًا أخرى بعد ذلك(325).

كانت هذه الجماعات بمثابة سدٍّ عازل لم يُمكِّن قوات جين من التقدُّم نحو الجنوب، وبسببها لم تعرف جين الاستقرار في وسط الصين، أما عن الشمال؛ فقد حل جين محل سونغ باعتبارهم الحكام الشرعيين للصين(326) .

عندما قرّرت جين محاولة الهجوم على سونغ الجنوبية بحريًّا؛ كانت الجهود الرامية قد أسعفت سونغ الجنوبية، ومكَّنتها من إنشاء أول بحرية دائمة للصين في عام ١١٣٢ م(327) ، ومع وجود قوة الردع البحرية هذه؛ أصبحت سونغ الجنوبية مستعدة لمواجهة القوات البحرية التابعة لجين على نهر يانغتسي عام ١١٦١م.

عندما دارت رحى معركتي تانغداو؛ وكايشي، نجحت بحرية سونغ الحديثة في استخدام السفن البحرية سريعة الدفع بعجلات مجداف؛ المسلحة بمنجنيقات الجر على الأسطح التي تطلق قنابل البارود، وظفرت سونغ بنصرٍ واضح على الرغم من أن قوات جين كانت تضم ٧٠ ألف رجل على متن ٦٠٠ سفينة حربية، وقوات سونغ لا تضم سوى ٣٠٠٠ رجلٍ على متن ١٢٠ سفينةً حربية فقط؛ ففي هذه الحرب نجح الكيف على حساب الكم(328) .

برغم النصر، كان داخل سونغ الجنوبية مُهَلهلًا، بدأ بمصادرة حكومة سونغ أجزاء من الأراضي المملوكة لطبقة النبلاء، من أجل زيادة الإيرادات لمشروع البحرية وباقي المشروعات الدفاعية، وقد أدت هذه المصادرات إلى التسبب في الشقاق وفقدان الولاء بين الأعضاء البارزين في مجتمع سونغ الجنوبية(329) ، وانتهى بتفاقم الأمور المالية لدى عامة الناس بسبب فرض الضرائب الباهظة؛ بحجة مقاومة تعديات جين، وتجميع حاجة الجيش لصد هجمات غزوها؛ فتأزم الاقتصاد الداخلي.

على إثر ذلك، انطلقت الانتفاضات مجددًا، كان أكبرها انتفاضة «تشونغ شيانغ»، و«يانغ ياو».

حلم عودة سلطة الفلاحين في «شو الكبرى»

كان «تشونغ شيانغ» سائرًا منذ زمان انتفاضة «وانغ شياو بوه»؛ و«لي شون» في أواخر عهد سونغ الشمالية، تلك الانتفاضة التي نادت بالمساواة بين الغني والفقير، فجدد ثورتهما مجددًا؛ من خلال انتفاضة مسلحة على حافة بحيرة دونغتينغ، تبعه فيها الفقراء والفلاحون عام ١١٣٠ م، وأعاد حلم سابقيه في قيام «دولة شو الكبرى»، بعد أن احتلت قواته مساحات كبيرة تضم ١٩ محافظة، قرب بحيرة دونغتينغ، وفي نفس الوقت تقريبًا؛ وجهت جين ضرباتها نحو سونغ الجنوبية، وأصبحت سونغ تُقاتل في جبهتين: جين من الخارج، والمتمرِّدين في الداخل، لكن بعد وقتٍ بسيط قُتل القائد الثائر «تشونغ شيانغ» بعد أسْره في إحدى المعارك، فتسلم بعده الزعامة الثائر «يانغ ياو»، فأرسلت له سونغ قوة مُدججة من أجل سحقه بقيادة القائد «يويه آي»، وتمكن من أسرة ومن ثَم قتله(330).

خضوع سونغ الجنوبية لنفوذ جين

كما ذكرنا أن في نفس الوقت تقريبًا، كان جيش جين قد شن ضرباته البحرية والبرية عدة مرات على سونغ الجنوبية، وفي إحدى المرات التي حدَثت في عام ١١٢٩ م؛ وصلت أخبار التقدم للإمبراطور «سونغ قاو تسونغ»، فهرول ناحية سفينته الراسية في البحر للاختباء فيها، وأعطى أوامره للقادة العسكريين من أجل صد الهجوم، فانتفض القائدان «يو فاي» و« هان شي تشونغ» وباقي القادة؛ من أجل التعاون مع الجماعات العسكرية في الشمال لتحرير الأراضي، واصطدمت قوات سونغ تحت قيادة «يو فاي»؛ مع قوات جين تحت قيادة «وو تشو»؛ في مدينة يانتشنغ(331).

بمساعدة واضحة من جماعات شمال الصين العسكرية، تمكّنت قوات سونغ من إلحاق الضرر بالقوات الغازية، ثم أرغمتهم على الانسحاب من مدينة كايفنغ، لكن الإمبراطور «سونغ قاو تسونغ»؛ ورئيس وزرائه «تشين هوي»، خالفا رغبة المناضلين خوفًا من تعملق نفوذ الجماعات العسكرية، التي ربما ستهدِّد حُكمهما لاحقًا، وصالحا مملكة جين(332).

سبَّب ذلك ألمًا كبيرًا في قلب القائد «يو فاي»، وكذلك جنوده الذين ضحوا بحياتهم، بل وتلا ذلك مفاجأة محزنة أخرى؛ وهي إعلان الإمبراطور عزل القائد الشجاع يو عن منصبه في عام ١١٤١ م، والأدهى من ذلك اعتقاله والزَّج به في السجن من خلال تهم ملفقة بسبب موقفه الحربي المشرف، وأثناء سجنه قُتل في جريمة غامضة، ومن يومها إلى الآن خُلّد «يو فاي» كبطلٍ قومي في التراث الصيني، وأصبح نموذج للولاء في الثقافة الصينية (333) .

وبهذا الشكل، استسلم حكام سونغ الجنوبية لنفوذ مملكة جين، خاضعين لها.

الاقتصاد والعلوم في عموم سلالة سونغ

تسببت هذه الاضطرابات في ضرب اقتصاد البلاد، باستثناء الجنوب الذي كان منعزلًا نوعيًّا؛

كان هذا بفعل عامل الأمان؛ بالإضافة إلى هجرات الأيدي العاملة الغفيرة التي هربت من الحروب في الشمال والوسط، وبرغم الأحداث المتصارعة توسعت الزراعة نوعيًّا في عهد أسرة سونغ الجنوبية؛ خاصةً الأرز على امتداد بحيرة تايهو؛ والمجرى الأسفل لنهر يانغتسي، ولاحقًا انتشرت زراعة القطن من قوانغدونغ وفوجيان إلى أودية نهر يانغتسي.

كما تطورت نسبيًّا الحرف اليدوية، خاصة الغزل والنسيج، وصناعة السفن، وشهِدت التجارة البحرية تطورًا عظيمًا في عهد سونغ الجنوبية، ونشطت موانٍ عدة؛ كـ «قوانغتشو وتشيوانتشو ونينغبوه»، ما زال أثر هذا الزمان باقٍ حتى الآن في تشيوانتشو؛ وبقي معه مسجد إسلامي وأضرحة للمسلمين من العرب والفرس وغيرهم.

اقتصاديًّا: برغم الصراعات كانت أسرة سونغ (الشمالية والجنوبية) في تفوق واضح؛ حيث كان الناتج المحلي الإجمالي أكبر بثلاثِ مرات من نظيره في أوروبا خلال القرن الثاني عشر(334) .

وفي العلاقات الخارجية: ازدهرت البعثات الدبلوماسية من وإلى الصين، على سبيل المثال، من أجل استقبال مبعوثين من مملكة كوريو الكورية وحدها؛ كان لدى بلاط سونغ ما يقرب من ١٥٠٠ مجلدٍ مكتوبٍ من أجل شرح القواعد واللوائح والمبادئ التوجيهية الدقيقة لاستقبالهم(335).

أما ثقافيًّا: فقد أدى الترابط الثقافي بين قوميات الصين المختلفة، خاصةً ما بين القرن العاشر والثالث عشر؛ إلى ازدهار الحرف اليدوية والتجارة.

علميًا: أبدت أسرة سونغ اهتمامًا قويًّا بالعلوم والتكنولوجيا، وقاموا بتأسيس ورشة العمل الإمبراطورية لدعم مشاريع مثل المجال الحربي، وتم تعيين المسلم من أصل عربي:» ما ييتزو «؛ كرئيس فلكي في بلاط سونغ، في واحدة من الأحداث التي تبين الانفتاح الحكومي، خاصة مع أولئك الذين يُنظر إليهم على أنهم أجانب(336) .

كذلك من أجل توطيد وتقوية سلطته؛ شرَع الإمبراطور مؤسس السلالة «سونغ تاي تسو» (تايزو من سونغ) في تحديثِ رسم الخرائط؛ حتى تتمكّن إدارته المركزية من تمييز كيفية التعامل مع الشئون في المقاطعات بسهولة، وفي عام ٩٧١ م أعطى أوامره لـــ «لو دوسون» باستلام هذه المهمة؛ من أجل تحديث وإعادة كتابة جميع الخرائط، وهي بلا شكٍّ مهمة شاقة لفرد واحد، لكن برغم المشقة نجح لو؛ بعدما تجوَّل في جميع أنحاء المقاطعات لجمع معاجم توضيحية؛ مع أكبر قدْرٍ ممكن من البيانات، وبمساعدة «سونغ تشون»؛ تم الانتهاء من العمل الضخم في عام ١٠١٠ م، ليتكون من ١٥٦٦ فصلًا (337) .

كما تمكّن الصينيون في عهد سلالة سونغ من اختراع ثلاثة من «الاختراعات الأربعة العظيمة في الصين»:

١ - الطباعة: حيث طُبعت الكُتب على الخشب؛ وقد أخرج النحات «تشانغ تو شين»؛ «المحاورات البوذية» في ٥٠٤٨ جزءًا، من خلال النحت على ١٣٠ ألف قطعة خشبيةٍ؛ في مدة ١٣ عامًا من العمل المستمر، وكذلك استخدم «بي شنغ» فن الطباعة بالحروف المتحركة(338).

٢ - البوصلة: حيث تمَّ تطوير اختراع الإبرة المغناطيسية التي تعود لعهد الأسر المتحاربة، حينها كانت عبارة عن قطعة مغناطيسية على شكل مغرفة، وقرصًا نحاسيًّا منقوشًا عليه الاتجاهات، ومع دفع المغرفة ينتظر الباحث وقوفها بعد الدوران، والمكان الذي يستقر به المقبض يكون هو اتجاه الجنوب، وفي عهد سونغ تم تطوير هذا الاختراع، وتم وضع الإبرة المغناطيسية على طرف الكأس، ثم لاحقًا رُكبت على قرص بوصلة، حتى تم صُنع البوصلة التي سُميت: (الإبرة ذات القرص)(339).

٣ - البارود: في الماضي اخترع عالم الطب والعقاقير من أسرة تانغ «سون سي مياو» السابق ذكره، الشكل الأولي للبارود من نترات البوتاسيوم والكبريت والفحم النباتي(340)، ومع وصول عهد أسرة سونغ أمرت حكومة سونغ الشمالية بإنشاء معامل البارود، من أجل استخدامه في حربها على لياو وشيا الغربية وجين؛ فظهرت السهام النارية، والمدافع النارية، والقنابل ورمح النار، وغيرهم(341)

كما كانت أسرة سونغ هي الأولى في تاريخ العالم التي أصدرت الأوراق النقدية أو النقود الورقية الحقيقية، وهي أول حكومة صينية تنشئ قوة بحرية دائمة(342) .

تضاعف عدد سكان الصين بين القرنين العاشر والحادي عشر. وقد أصبح هذا النمو ممكنًا بفضل التوسع في زراعة الأرز، واستخدام الأرز مبكر النضج من جنوب وجنوب شرق آسيا، والإنتاج الغذائي الفائض في بعض الفترات(343) ، فنتيجة لذلك سُجل تعداد سونغ الشمالية ٢٠ مليونَ أسرةٍ، وهو ضِعف عدد أسرتي هان وتانغ، وتشير التقديرات إلى أن عدد سكان سونغ الشمالية كان يبلغ ٩٠ مليون نسمة(344) ، و٢٠٠ مليون بحلول عهد أسرة مينغ(345) ، أثارت هذه الزيادة الهائلة في عدد السكان ثورة اقتصادية في الصين ما قبل الحداثة، على الرغم من أن غالبيتهم أصبحوا فقراء.

من أبرز علماء هذا العصر: «شن كوه»، والذي أسهم بشكلٍ كبيرٍ في تشييد منشآت الري وحفر القنوات وترميم السدود، وكان من أبرز المساهمين في تقدم المجال الزراعي، كما أن له العديد من المؤلفات جمعها في كتابه « القلم في حديقة مونغشي»، وهو كتاب يُعد موسوعة علمية أدبية ثقافية فنية عسكرية حربية؛ حيث كان متعدد الثقافات، وهو من ابتدع التقويم السنوي المكون من ١٢ شهرًا، وجعل رأس السنة في الربيع، حتى يلائم تقويمه مواسم الزراعة، كما تحدَّث فيه عن انحراف المغناطيسية الأرضية في البوصلة، قبل اختراع الأوروبيين للبوصلة الحديثة بأكثر من ٨٠٠ عام(346).

كذلك من المؤلفات الخالدة: كُتبت «الموسوعة التاريخية» المعروفة باسم: «زيجي تونغجيان»؛ أو «مرآة شاملة لمساعدة الحكومة»، على يد «سي ما قوانغ»؛ الوزير الذي اهتم بتاريخ الألف عام الماضية؛ في عهد الإمبراطور «سونغ شن تسونغ، وهو كتاب تاريخي مؤثر للغاية، وهو من أشهر الكتب التاريخية القديمة، والذي تم تجميعه في ١٩ عامًا، وهو مكون من ٢٩٤ جزءًا،

ومبوب بحسَب الحوادث التاريخية، ليشمل تاريخ الأحداث الماضية عن زمانه ليخبر بها العامة، فوصف حينها الأحداث التاريخية منذ عهد الدويلات المتحاربة وحتى الأسر الخمس(347) ، وهو من أهم المصادر التي اعتمد عليه كتابنا هذا.

أما في مجال الأدب: فقد تطوَّرت الأعمال الأدبية المنبثقة من أدب أسرة تانغ، وظهر أدباء بارزون كأمثال: «دونغ بوه» الشاعر المتميِّز الذي أسهم في تطوير الشعر من حيث سماته التعبيرية في هذه الحقبة(348).

كذلك «جيا شيوان»: الذي كان محاربًا في جيش الانتفاضة ضد غزو أسرة جين، وحينها عرض على سونغ الجنوبية اقتراحات وخطَّط لاستعادة الأراضي لكنهم أهملوا رأيه؛ لذلك أبدع في وصف مشاعر الكِفاح، وله إلى الآن إرثٌ أدبيٌّ يتكوّن من ٦٠٠ نصٍّ أدبي، كذلك الشاعر والأديب الشهير «لو يو»؛ من عهد أسرة سونغ الجنوبية؛ والذي تشرد مع أهله بسبب الحروب والصراعات، وقد خلَق هذا العناء أبياتًا شعرية صارخة، حتى شاع صِيته منذ أن كان في سنِّ السابعة عشرة، نادت كلماته بالتوحيد بين الشمال والجنوب؛ لصدِّ مخاطر مملكة جين(349).

كذلك عاشت الأديبة الشهيرة «لي تشينغ تشاو»، من عهد أسرة سونغ الجنوبية، والتي كانت تنعم بحياة هادئة وميسورة قبل هروبها ووفاة زوجها أثناء هجمات مملكة جين، وانقسم طابعها الأدبي إلى قسمين: القسم الأول: في حياة الهدوء، وقد اتسم بالشاعرية والحب والشغف بالطبيعة، والقسم الثاني: في حياة المعاناة، عبَّرت من خلاله عن الحزن، وموت الأحِبة، والتألم من أجل الوطن(350).

أما دينيًّا: فبدأت الجهود التنافسية بين المسيحية والإسلام، بينما تبنت العائلات الإمبراطورية المُعتقد البوذي، كما ظهر أفراد آخرون يعتنقون المعتقد اليهودي؛ فيما يُعرف بـــ «مجتمع يهود كايفنغ»، أولئك الذين احتار المؤرخون في أصولهم، وكيف قدِموا، بل احتاروا في توضيح كيف وصلَت اليهودية إلى الصين.

جدل حول وصول اليهودية

لم يُرصد لليهود أي تجمُّع ملحوظٍ في الصين عبْر العصور إلا في «مجتمع يهود كايفنغ»، وبسبب عدَم وجود تأكيدات ملموسة لنشأة هذا المجتمع اليهودي؛ أو أي تاريخ موثق لتأسيس مستوطنتهم في كايفنغ؛ هذه المسألة محل نقاش حاد بين العلماء إلى يومنا هذا، ويعتبر موضوع أصلهم وتاريخ وصولهم أحد أكثر المواضيع إثارة للجدل في مجال العلاقات الصينية اليهودية، وعلى الرغم من أن بعض العلماء يؤرخون وصولهم إلى أسرة تانغ (351) ؛ يرى الغالبية العظمى منهم أن التاريخ الأكثر احتمالًا لتشكيل الجالية اليهودية في كايفنغ قد وقع خلال عهد أسرة سونغ هذه (352).

توجد ادعاءات يهودية تقول بأن اليهودية (كدين) دخلت للصين مع المنفيين على يد الملك

الأشوري «سرجون الثاني»، الذي أسقط مملكة بني إسرائيل في عام ٧٢٢ ق.م، وقام بنفي سكان إسرائيل إلى جبال مديان؛ ليحلّ مكانهم مُستوطنين من بابل، حينها أصبح الإسرائيليون الذين تم ترحِيلهم وقتها يُعرفون باسم: «الأسباط العشر المفقودون من بني إسرائيل»؛ وبحسب هذه الادعاءات كان من بينهم أسلاف هذه المجموعة، التي عُرفت في الصين بيهود كايفنغ لاحقًا، ويزعم اليهود أنهم سافروا من بلاد فارس إلى الهند خلال سلالة هان الحاكمة، رغم عدم تأكيد ذلك، ثم هاجروا لاحقًا من المناطق التي يسكنها المسلمون في شمال غرب الصين؛ ليُكوّنوا مجتمعهم الأول خلال أوائل عهد أسرة سونغ(353) .

من ناحية أخرى، تنتشر أخبار شفاهية أخرى داخل المجتمع اليهودي تحكِي أن اليهود هاجروا إلى الصين عَبْر بلاد فارس بعد احتلال الإمبراطور الروماني «تيتوس» للقدس في ٧٠م، فقدموا من بلاد فارس في عهد إمبراطور هان الشرقية «مينغ هان» في (٥٨-٧٥ م)(354) ، بينما هناك رأيٌ آخر كتَبه الأبُ «جوزيف بروكر» ينفي ذلك، ويؤكد أنهم قدِموا إلى الصين من الهند عبر طريق بحري؛ خلال سلالة سونغ هذه بين عامي ٩٦٠ و١١٢٦ م.

يعتقد آخرون أن التجارَ اليهود كانوا نشطين في الصين على شكل أفراد قبل سونغ، وقد وُضع هذا الرأي الاحتمالي؛ بسبب ما ذكره الجغرافي الفارسي الشرقي الإسلامي «ابن خرداذبة» في كتابه: «المسالك والمماليك»، الذي وضح أن حوالي ٨٧٠ تاجرًا يهوديًّا كانوا يعملون على نِطاق واسعٍ من أوروبا الغربية إلى الصين، واعتقدوا أن هذه المجموعة شكَّلت أول موجتين من الاستيطان اليهودي في الصين (355) .

وبصرف النظر عن تعدُّد الروايات؛ أجمع العلماء على أن المجتمع اليهودي في كايفنغ جاء من خلال أشخاص من أصل «يهودي فارسي»، لكن ما زال الجدال قائمًا حول كيفية دخولهم: هل برًّا عبْر تشانغآن أو طريق الحرير؟ أم سافروا داخليًّا بعد وصولهم إلى المدن الساحلية عن طريق البحر؟ على كل حال، تم تفسير بعض الأدلة على أنها تشير إلى أن أسلافهم ربما ينحدرون في الغالب من الفرعٍ اليهودي البخاري لليهود الفرس الذين استقروا في آسيا الوسطى(356).

والجدير بالذِكر، ظهَر المجتمعُ اليهودي في الصين في العصور الوسطى، وتحديدًا في هذا الوقت، لكن على الرغم من ذلك، لم يترك أدلة واضحة على وجودها، على الرغم من أن اليهود وحدهم يزعمون أن هناك آثارًا تخُصهم بالصين.

نموذج لمعبد كايفنغ في متحف الشتات، تل أبيب (يافا المحتلة).

الانهيار ونهاية الحكم

بالعودة لسير الأحداث السياسية، وتحديدًا عندما استسلَمت سونغ الجنوبية لنفوذ جين الجارف، بدأت سونغ تُمهّد للتخلص من هذا النفوذ، وشرَعت في تنفيذ خطة تسليح سرية؛ ربما لاحقًا تُمكنها من صَد جين تمامًا، إلا أن عدوًّا جديدًا وصل إلى السلطة في السهوب والصحاري والسهول شمال أسرة جين، جاء ليهدِّد نفوذ القوتين المتسارعتين، بل ويبتلع الجميع، وكأنه سَيْل عارم، إنهم المغول.

قيام المغول

شاع صِيت قومية من الأقليات القاطنة شمال الصين، وهي قومية «المغول» التي انبثقت من قبيلة «شيوي»، ثم ظهرت لأول مرة شرق نهر آرغومة، ومن ثَم انتشرت مع الزمان على هضبة منغوليا، وتكاثرت هذه القبيلة التي تقتات على الرعي بشكل بارز، وقد اشتهرت بتمَيُّز أبنائها في الفروسية ورمي السهام، وحتى القرن الثاني عشر كان مجتمعهم عبوديًّا منغلقًا، حيث يعمل العبيد لخدمة مواليهم في الرعي وتربية المواشي وحلبها ودباغة جلودها، وكانت تتعامل مع الجيران بشكل محدودٍ، لا سيما الهان، تبيع للهانيين المواشي والخيول والفِراء والصوف، مقابل الأدوات والمنسوجات، وبرغم انغلاقها، لم تسلم هذه القومية من الحروب الأهلية والصراعات(357).

كانت أقوى قبيلة بينهم يتزعمهما «تيموجن» (تايزو)، الذي تمكّن في النهاية من توحيد قبائل المغول كلها تحت إمرته، فبايعه زعماء القبائل كخانٍ أكبر، قُرب منبع نهر أونان في عام ١٢٠٦ م، ولقَّبوه باسم «جنكيز خان».

مع بداية عهده، قام جنكيز خان بتوزيع الأراضي على كبار العائلات، ليتحول مجتمع المغول العبودي إلى مجتمع إقطاعي، ومارس الكادحون أعمال الرعي والزراعة تحت سلطة العائلات الكبيرة، وكانوا مُلزمين بدفع الضرائب من خيولهم وسروجهم وأسلحتهم وغلالهم، وفي حالة الحرب ينتفضوا للقتال رُفْقة مواليهم، فأصبح أحرارُ الأمس من المغول عبيدَ اليوم في هذا المجتمع الإقطاعي الجديد(358).

«جنكيز خان»(تيموجن)-تايزو، صورة شخصية مقصوصة من صفحة من ألبوم صور أباطرة أسرة «يوان».

قام المغول تحت قيادة «جنكيز خان»؛ بشَن ضربات قوية على أسرة جين في البداية، وتحديدًا

بين أعوام ١٢٠٥ و١٢٠٩ م، وفي عام ١٢١١ م تم تجميع جيش مغولي لمهمة غزو جين والخلاص النهائي من نفوذها، أجبر هذا الغزو الساحق أسرة جين على الخنوع للمغول؛ بل والإشادة بهم باعتبارهم موالين لهم، وعندما نقلت أسرة جين فجأة عاصمتهم من بكين إلى كايفنغ؛ رأى المغول ذلك على أنه ثورة، وتم التحضير للقضاء عليهم نهائيًّا(359) .

توسعت حملات مغول جنكيز خان الخارجية، وكأنه سيلٌ عارم؛ فتمكّنت من كنس وإخضاع شيا الغربية، وتوفان، والويغور، منذ عام ١٢٠٥ م، وتحت قيادة «أوقطاي خان» (حكم من ١٢٢٩ إلى ١٢٤١)، انتهت القوات المغولية من غزو كلٍّ من أسرة جين وأسرة شيا الغربية نهائيًّا مع الوصول لعام ١٢٣٤ م(360) .

أصبح المغول الآن قد غزو بشكل مُحكم شمال الصين، وحافظوا على علاقات غير مستقرة مع سونغ الجنوبية، فعلى الرغم من أن المغول وسونغ تحالفا حتى هذه اللحظة؛ فإنَّ هذا التحالف قد انكسَر فورًا مع استعادة أسرة سونغ السيطرة على العواصم الإمبراطورية السابقة كايفنغ ولويانغ وتشانغآن بسبب انهيار أسرة جين.

انتهى المغول من غزوهم الأول لفيتنام عام ١٢٥٨ م، وصوَّبوا رأس رمحهم ناحية سونغ؛ فهاجم الجنرال المغولي «أوريانخادي» قوانغشي من هانوي، كجزء من هجوم مغولي منسق عام ١٢٥٩ م، بالتوازي مع جيوش تهاجم في سيتشوان تحت قيادة الزعيم المغولي «مونكو خان»، وجيوش مغولية أخرى تهاجم شاندونغ وهينان، لكن حدث أمرٌ عطَّل مجرى التخطيطات، وهو وفاة الخان «مونكو»؛ في ١١ أغسطس ١٢٥٩ م، أثناء حِصار قلعة دياويو في تشونغتشينغ (361) .

بعد وفاة «مونكو خان»؛ الخان العظيم الرابع للإمبراطورية المغولية، أُعلن شقيقه الأصغر «قوبلاي خان» خانًا عظيمًا جديدًا في عام ١٢٦٠ م، وفي عام ١٢٧١ م أسس أسرة يوان على الصين، وسمى دولته بنفس الاسم؛ وجعل عاصمتها بكين، ليكون هو الإمبراطور «يوان شي تسو»، (الإمبراطور الأول لأسرة يوان).

في ظل ابتلاع المغول للجميع؛ عاد يوان لسَحْق القوة الوحيدة الناجية من هذه السيطرة الشاملة، وأصبحت نهاية سونغ مسألة وقتٍ لا غير ذلك، فشَن إمبراطور المغول هجماته العنيفة على أسرة سونغ الجنوبية، وبعد عقدين من الحروب المتقطعة، غزت جيوش «قوبلاي خان» أسرة سونغ عام ١٢٧٩ م، بعد هزيمتهم في معركة يامن؛ وأصبحت عاصمة سونغ الجنوبية في يدِ يوان؛ ولاحقًا كبارها في آيشان(خ) ، حتى قُضي نهائيًّا على أسرة سونغ الجنوبية؛ ومن ثَم إعلان توحيد الصين في عام ١٢٧٩ م، تحت اسم إمبراطورية يوان(362).

٢ ـ أول سلالة إمبراطورية غير هانية

(الغزو المغولي للصين)

أسرة يوان، هي منفصلة نوعيًّا عن تاريخ المغول الشامل في موطنهم المغولي، وسنسرد فقط تاريخها المتعلِّق بالتاريخ الصيني، والمعروف بسلالة يوان الخانية التي أسسها «قوبلاي خان» في الصين، بعد تقسيم الإمبراطورية المغولية؛ واعتبار جزئه الموروث من الإمبراطورية المغولية بمثابة سلالة صينية حاكمة لمدة ٩٧ سنة منذ إعلانه دولته؛ و٨٩ سنة منذ توحيد الصين فعليًّا؛ والتي ضمت:

من «قوبلاي خان» (الأول) ١٢٦٠-١٢٩٤ م

إلى «توفون تيمور» (الأخير) ١٣٣٣-١٣٦٨ م

* * *

سلالة يوان الحاكمة

أدت سلسلة من الحروب الأهلية المغولية في أواخر القرن الثالث عشر إلى تقسيم الإمبراطورية المغولية في عام ١٣٠٤ م؛ وتم تأييد أباطرة أسرة يوان باعتبارهم خاقانًا اسميًّا على الخانات الغربية (خانية جاجاتاي، والقبيلة الذهبية، وإيلخانات)، والتي ظلت مع ذلك مستقلة بحكم الأمر الواقع، وعُرفت هذه الحقبة باسم «السلام المنغولي»، كما تُعرف أسرة يوان أيضًا لدى الغربيين باسم «سلالة المغول» أو «سلالة المغول الصينية»(363) علاوة على ذلك؛ يُعرف اليوان أحيانًا باسم «إمبراطورية الخان العظيم» أو «خانية الخان العظيم»(364) .

سلالة يوان تُعتبر حدثًا نادرًا في التاريخ الصيني، فقد أصبحت أسرة يوان المغولية أول أسرة غزو في التاريخ الصيني تحكم الصين بأكملها؛ واعتبار سكانها أقلية عِرقية، وفي الوقت ذاته، سيطرت الأسرة بشكلٍ مباشر على قلبِ المغول والمناطق الأخرى، بعدما ورِثت أكبر حصة من أراضي الإمبراطورية المغولية الشرقية، والتي تزامنت تقريبًا مع المنطقة الحديثة في الصين والمناطق المجاورة في شرق آسيا، بما في ذلك منغوليا الحديثة(365) .

مع هذا الاجتياح المغولي الشامل الذي أحكم قبضته على جزءٍ كبيرٍ من القارة الآسيوية؛ للمرة الأولى والوحيدة في التاريخ، أصبح طريق الحرير خاضعًا بالكامل لسيطرة دولة واحدة، مما سهَّل تدفق البشر والتجارة والتبادل الثقافي، تحت ظل حكم ثاني سلالة غير هانية في الصين بعد التانغ، وأول سلالة عند بعضٍ ممّن اعتبروا تانغ نتاج اختلاط هاني (366).

من الوهلة الأولى أقدمت دولة يوان على التوحيد بين القوميات الصينية المتعددة، وظهر من بينهم قومية جديدة تُدعَى «هوي»؛ وهي خليط من الفُرس والعرب المؤمنين بدين الإسلام؛ الذين وفدوا منذ دخول الإسلام في عهد تانغ، وأولئك الذين جلبهم عهد سونغ من بخاري وغيرها؛ فتكاثروا بشكلٍ واضحٍ خلال أسرة سونغ وأصبحوا جزءًا لا يتجزأ من الشعب الصيني، خاصةً منذ

القرن الثالث عشر، وكانوا قد اندمجوا وتآلفوا مع قوميات المغول، والهان، والويغور، حتى أصبح بينهم تزاوج ونسب(367).

في ظل الشمول العام، اتسعت مساحة الصين تحت حكم «يوان» أكثر من الأوقات السابقة، فقامت الحكومة بتقسيمها إلى مقاطعات إدارية؛ من أجل تعزيز الحكم الإقطاعي، وأنشأت وزارة عُليا لإدارة المقاطعات، كانت هي الهيئة العُليا لإدارة البلاد، كما أمرت الدولة بإنشاء دائرة عمومية للقيام بأعمال السياسة والدعاية الحكومية؛ من أجل توطيد وإدارة الدين البوذي في الأركان المترامية؛ إلى جانب عملها في إدارة شئون التبت، حيث تطلعت الحكومة إلى فرض السيطرة عليها دون قتال، فكان المسئولون الداخليون فيها لا يُعيَّنون إلا من خلال اختيار الإمبراطورية، ورابطت قوات عسكرية فيها تحسُّبًا لأي اعتراض، وتم تحويل الضرائب منها إلى خزانة الإمبراطورية، ومع الوقت أصبحت منطقة حكومية تحت سيادة يوان رسميًّا(368).

«قوبلاي)خان»)(الإمبراطور)يوان)

بعد تعزيز حكومته في شمال الصين، اتبع قوبلاي سياسة توسعية تتماشى مع تقاليد الإمبريالية المغولية والصينية، وجدَّد حملة ضخمة ضد ما تبقى من أسرة سونغ في الجنوب(369) ، كذلك تم القيام بحملة بحرية فاشلة ضد اليابان في عام ١٢٧٤(370) ، من ناحية - أخرى - قدمت عائلة دوان التي حكمت مملكة دالي في يونان إلى أسرة يوان باعتبارها تابعة؛ وسُمح لها بالاحتفاظ بعرشها، شريطة مساعدة أسرة يوان عسكريًا ضد ما تبقى من أسرة سونغ، حتى تمكّن «يوان» بالفعل من القضاء على فلولها نهائيًّا.

اقتصاديًّا: تسبب الغزو المغولي منذ أيام «جنكيز خان»؛ بإهمال واضح تجاه الإنتاج الزراعي

على ضفاف وأودية النهر الأصفر؛ نظرًا لزحف القوات ناحية الجنوب، فظهرت مساحات شاسعة من الأرض القَفْر، في نفس الوقت، اقتَرح بعض بلاط «يوان» سحب أراضي الهان؛ من أجل تحويلها إلى مراعٍ بحُجة أن هؤلاء غير صالحين للدولة، حينها اعترض الوزير الأكبر «بالوتشو تساي»؛ وقال ما المانع من تركها في أيدي الهان يزرعونها؛ مقابل الاستفادة من ضرائبهم، وأوصى بالبعد عن إضرار الإنتاج الزراعي؛ إذا كانوا يريدون فعلًا بناء دولة اقتصادية(371).

أبدَى الإمبراطور «يوان شي تسو» المؤسِّس لأسرة يوان في الصين اهتمامًا واضحًا بالزراعة، وأنشأ دائرة مسئولة عن العمل الزراعي، وتربية دود القز، فنشطت هذه الدائرة وقامت بقراءة الكتب القديمة، وفتشت عن التجارب السابقة ودمجتها مع التجارب المعاصرة، وجمعتهم في مؤلَّف صغير بعنوان: «مهمات الزراعة وتربية دود القز»، وقامت بطباعته وتوزيعه في كل البلاد؛ من أجل حثِّ الناس على الزراعة وتوعيتهم للأساليب السليمة، كما أمر الإمبراطور بتكوين دائرة لإدارة شئون الري وحفر القنوات؛ إلى جانب تنظيم مهام الأيدي العاملة؛ والأدوات اللازمة من أجل ترميم النهر الأصفر، وبفضل هذه الإصلاحات؛ شهِد الإنتاج الزراعي تطورًا تدريجيًّا، كان من أبرز هذه المَنتوجات: القطن، الذي أسهمَ بشكلٍ مثير للإعجاب في تطوير صناعة الغزل ونسْجِ الأقطان(372).

أنتجت اتصالات المغول الواسعة في غرب آسيا وأوروبا؛ قدرًا لا بأسَ به من التبادل الثقافي، كما أثَّرت الثقافات والشعوب الأخرى في الإمبراطورية المغولية بشكل كبير على الصين، وبسبب شمولية الإمبراطورية تم تخفيف التجارة بشكل كبير عبر آسيا حتى تراجعها؛ بسبب سيطرة يوان إقليميًّا، وبسبب الاتصالات بينها وبين الإيلخانات؛ حليفتها وتابعتها في بلاد فارس(373) .

ازدهرت المواصلات بشكلٍ نِسبي في عهد سلالة «يوان»، خاصة بعد مشروع إحياء القناة الكبرى التاريخية التي تربط الجنوب بالشمال؛ بعد تعطُّل الملاحة فيها بسبب الحروب المتتالية بين جين وسونغ، وهذا الإحياء تم بعدَ حفر قناة «هويتونغ»، ومن ثَم ربطها بالقناة الكبرى، كما قامت أسرة «يوان» بحفر قناة «تونغهوي» بين محافظة تونغتشو في شرق بكين؛ إلى العاصمة بكين، وقامت بفتح خطوط الملاحة المُعطلة بين الجنوب والشمال، وقد أسهم كل هذا في نقل الغلال من الجنوب الزراعي إلى الشمال، وكذلك أسهم في انتعاش التجارة ووفود التُّجار الأجانب إلى الصين، كان من ضمنهم تاجرٌ عربي لُقِّب باسم «بو شيو قنغ»، الذي احتل منصبًا مرموقًا في حكومة «يوان»، وهو منصب إدارة التجارة الخارجية بمقاطَعتي فوجيان وقوانغدونغ، وهو أخٌ للأديب العربي الشهير «بو شيو»(374).

الثقافة والعلوم

على الرغم من عمر الإمبراطورية القصير؛ فإنها شهِدت إنجازات ثقافية وعلمية بسبب شمولها الإقليمي من ناحية، وتعددَ الثقافات والعِرقيات واندماجها من ناحيةٍ أخرى، على سبيل المثال:

وفد الى الصين في عهد يوان الكثير من العلماء العرب والمسلمين والأوربيين؛ الذين عمِلوا على انفتاح الثقافة والعلوم الصينية من وإلى الصين، ولعل من أبرزهم: «يوسف العربي» الذي قدِم عن طريق بيزنطة الشرقية، والذي حصَد تقديرًا كبيرًا من حكومة يوان؛ حيث نالَ لقبَ عضو الأكاديمية الإمبراطورية، وكذلك العالم الفلكي المسلم: «جمال الدين الفارسي»، الذي قام بإنشاء مرصد بكين الفلكي، وكان له اختراعات جلية، كـ «المزاوة(ذ)» و«المحلقة»، والعديد من المقاييس الأخرى.

كذلك قامت يوان بإرسال بعثات للخارج، كان من أهمها: رحلتان قام بهما «وانغ دا يوان» لبلدان شواطئ المحيط الهندي، والهند، والجزيرة العربية، وبلاد الفُرس، وشمال إفريقيا، وساحل إفريقيا الشرقي، ثم عكَف على كتابة ما رآه في هذه البلاد؛ وأطلق عليه اسم كتاب: «موجز وصف الأجانب وسكان الجزر»، ودوَّن فيهِ صفات وسِمات هذه البلاد وثقافات ساكنيها(375).

انتعشت السياحة الخارجية هي الأخرى، ومن أجل الاستكشاف، وصل الرحالة والتاجر والمُستكشف الإيطالي «ماركو بولو» في عام ١٢٧٥ م، ومن شدة إعجابه بالطبيعة الفريدة؛ أقامَ في الصين لمدة ١٧ عامًا، تمتّع فيها بمقربة خاصة من الإمبراطور يوان، وبعدها عاد لبلاده في عام ١٢٩٢ م عن طريق بلاد فارس، بعد أن سجّل كل ما رآه في كتابه «رحلات ماركو بولو»، من وصف قصور العاصمة ومبانيها، وازدهار التجارة، وغير ذلك.

شكَّك البعضُ في دِقة رواية «ماركو بولو»؛ لعدم ذِكره أي شيء عن سور الصين العظيم، ولا ممارسة ربط الأقدام من قِبل النساء في عاصمة الخان العظيم، ولا عن عيدان تناول الطعام ومقاهي الشاي،(فلو ذكَرها كانت ستصبح وصفًا بارزًا؛ لأن الأوروبيين لم يتبنوا بعدُ ثقافة الشاي)، لكن لاحقًا ظهَرت دراسات حديثة أكّدت أن «رواية بولو» دقيقة وفريدة من نوعها(376)

.

كذلك وصَل لصين يوان من أجل الاستكشاف أميرُ الرَّحالين المسلمين الشهير «ابن بطوطة» في عام ١٣٤٧ م، وقد أوْفدت حكومة يوان مبعوثًا خاصًّا لمُرافقتِه، وذكر أن أكثر ما استرعَى انتباهه في رحلته للصين براعة الفنانين في صُنع اللوحات، وإبداعهم في رسم الأجانب القادمين حديثًا، وذكر أنه رأى صوره وصور أصدقائه مرسومة بمهارةٍ على الجُدران، وتحدّث عن مدى الاحتراف في صناعة الحرير والخزف، وبراعتهم في زراعة الفاكهة، ووصَف مدينة هانغتشو بأنها من أكبر المدن التي رآها في حياته، وأُعجب كذلك بالأعداد الكبيرة من السفن الصينية الخشبية التي صُنعت وزُخرفت بعناية فائقة، كما تحدَّث ابن بطوطة عن كرم الضِّيافة، وانبهَر من نظام الفنادق هناك(377).

أما علميًّا: فقد ظهرت مجموعة ليست قليلة من رجال الثقافة والعلوم، لعلَّ من أبرزهم: عالم الطبيعة «قوه شيو تشنغ»؛ الذي قام بتعديل طريقة التقويم السنوي، كما قام بصناعة العديد من صُنوف المقاييس الفلكية، وقد توصَّل إلى أن أيام السنة (٢٤٢٥.٣٦٥) يومًا؛ وميز الفروق بين هذا

الرقم والأوقات الحقيقية التي تدور فيها الشمس دورة واحدة حول الأرض ٢٦ ثانية (قياس التقويم الغريغوري الحديث)، وهو صاحب كتاب «التقويم السنوي»، كما كان له مساهمة واضحة في أعمال هندسة الريِّ، وهو الذي قاد مشروعَ حفر قناة تونغتشو(378) .

وفي صناعة الغزل والنسيج: كان للرائدةِ «داو بوه» دورٌ كبيرٌ، بعدما تعلَّمت من «قومية يي» هذه الصناعة في جزيرة هاينان؛ عندما كانت شابة مشردة، لتعود بعد ذلك إلى شانغهاي عام ١٢٩٦ م؛ وهي امرأة في عُمر الخمسين، وتُعلِّم الناس هناك هذه الصناعة، خاصةً بعدما أدخلت عليها وعلى الأدوات تعديلات من ابتكارها، حتى ظهَرت أقمشة مُزخرفة بشكلٍ جديد لم يسبق لها مثيلً (379).

أما في مجال الزراعة: فقد ظهرت إسهامات عالِم الزراعة «وانغ تشن»؛ ووضع مجهوداته في: «كتاب الزراعة»؛ والذي استغرقت كتابته مدة ١٠ سنوات، هذا الكتاب يُعتبر أولَ كتابٍ يُلخص التجارب الزراعية في الصين، ويُعلّم الفلاحين تصليح الأدوات الزراعية، وهو كتابٌ بارز في تحسين المجال الزراعي، كما كان لعالم الزراعة «لو مينغ شان» من القومية «الأويغورية» دورٌ بارزٌ أيضًا، حيث ألَّف كتاب «الموجز في الزراعة وضروريات الحياة»، الذي علَّم الناس كيفية غرس الأعشاب الطبية، والقضاء على الحشرات الضارة. من ناحية أخرى، تم إدخال المحاصيل الشرقية مثل الجزر واللفت وأصناف جديدة من الليمون والباذنجان والبِطِّيخ والسكر عالي الجودة والقطن خلال عهد أسرة يوان(380) .

دينيًّا: كان للبوذية تأثيرٌ كبيرٌ في حكومة يوان، وكان لـ «بوذية تنترا» ذات الطقوس التبتية تأثيرٌ كبيرٌ على الصين خلال هذه الفترة، على الرغم من أن الطاوية عانت من بعض الاضطهاد لصالح البوذية على يد حكومة يوان، كذلك تمتَّعت النسطورية والكاثوليكية الرومانية أيضًا بفترةٍ من التسامح، وأعادت محكمة يوان الممارسات والاختبارات الحكومية الكونفوشيوسية المبنية على الكلاسيكيات، والتي كانت قد أُهملت في شمال الصين خلال فترة الانقسام، ويُذكر أن المسلمين هم كذلك تمتَّعوا بالحرية الدينية؛ ففي هذه الفترة انتشر اعتناق سكان آسيا الوسطى للإسلام على نطاق واسع، وتأثَّر بذلك أعداد متزايدة من الصينيين في الشمال الغربي والجنوب الغربي، وكان لـ«مسلمو أسرة يوان» دورٌ بارزٌ في رسم الخرائط في الشرق الأوسط، وعِلْم الفلك والطب والملابس والمطبخ في شرق آسيا(381) .

أما ثقافيًّا: فقد خرج كتاب «التحقيق التاريخي في الشئون العامة» للمؤرخ الشهير «ما دوان لين»، وهو مرجِعٌ مهمٌّ لدراسة السياسة والاقتصاد، كما قام «تو تو» الذي شغل منصب رئاسة الوزراء بمهمة تجميع تاريخ: «سونغ - ولياو - وجين»، كذلك كُتبت مجموعة تاريخية أخرى عُرفت باسم «تاريخ المغول»، والتي سرَدت قصة المغول من نشأة قوميتهم حتى أعمال «جنكيز خان»، و«اوغوداي خان»(382).

كما تطوَّرت الفنون والثقافة وازدهروا بشكل كبيرٍ خلال عهد أسرة يوان، كما تم إدخال الآلات

الموسيقية الغربية لإثراء الفنون المسرحية الصينية، وكان هناك إدخال واسع النِّطاق للخزف المطلي باللونين الأزرق والأبيض، بالإضافة إلى تغيير كبير في الرسم الصيني(383) .

وفي مجال الأدب: من الإنجازات الثقافية الكبرى تطوُّر الدِّراما والرِّواية وزيادة استخدام اللغة العامية المكتوبة، وكذلك تطور الأدب المسرحي الذي كان قد ظهر بشكل أوَّلي في عهد سلالة سونغ، وانتشرت المسرحيات الغنائية والهزلية، وقد سُجل اسم ٢٠٠ من كُتَّاب المسرحيات في هذا الزمان، كان من أشهرهم: «قوان هان تشينغ»؛ الذي كان خبيرًا بالرقص والموسيقى، ومن أهم أعماله مسرحية «الثلج في عز الصيف»، التي اتسمت بالجرأةِ، وفَضْح ظُلم الحكم الإقطاعي، وتمجيد معاناة الشعب، وكذلك: «وانغ شي فو»؛ كاتب المسرحية الخالدة «الغرفة الغربية»؛ وهي رواية تُشيد بكفاحات الكادحين، وتُندد بالحكم الإقطاعي أيضًا، كذلك المؤلِّف المسرحي: «ما تشي يوان»، كاتب المسرحية الخالدة «الخريف في قصر هان»، والكاتب المسرحي: «جي جيون شيانغ»؛ كاتب مسرحية «اليتيم في أسرة تشاو»، والكاتب المسرحي: «لي تشي»، الذي من أشهر أعماله، مسرحية «رأس النمر»(384)

أما مجال الشعر: فلم يشهد تطورًا ملحوظًا؛ وكانت أساليبُ الشعراء في «يوان» غير عالية، إلا أن شاعرًا متميزًا من قومية «هوي» المسلمة يُدعَى «سعد الله»، تميَّز شعره بالرزانة والتعابير القوية المُنددة بقسوة الحروب التي أشعلها الإقطاعيون؛ والمتعاطفة من خلال مصطلحات جياشة مع مآسي الكادحين(385).

اتفقت فئة كبيرة من الأعمال الفنية والأدبية في هذا الزمان على التنديد بالحُكم الاقطاعي الظالم في ظلّ حكم سلالة «يوان»، وأن النجاح والحصاد لم يصل إلى أيادي المناكِيد، بل تمتع به السادةُ فقط.

ولأن الأدبَ والفن هم مرآة المجتمعات؛ فقد اتضح من حوليات هذه الحِقبة أنها كسابقيها مليئة بالطبقية والاضطهاد، ومن المؤكد أن هذا سيكون من أهم أسباب انهيارها.

الانهيار ونهاية الحكم

في هذا الزمان القصير؛ كانت الغلَبة الاقتصادية لنبلاء قوميتي المغول والهان، وكبار موظفي الدولة، ومُلّاك الأراضي والمعابد البوذية، كان في حوزتهم آلاف الحقول؛ يحتسون خدمات الفلاحين المستأجرين ويُسخِّرونهم هم ونساؤهم وبناتهم في خدمة حياتهم الشخصية كعبيدٍ، بالإضافة إلى أن هؤلاء الأسياد كانوا قد سبوا خلال الحروب العديدة أعدادًا كبيرة من السكان الوطنيين كغنائم أسرى عبيد؛ فظهرت أسواق النخاسة بشكل واضح، وبيع البشر مع الحيوانات، كما سخَّرت الحكومة أكثر من مليون عامل في الصناعة للعمل ليلَ نهارٍ؛ ولم يحصلوا على ما يكفيهم لسد رمَقهم، وشهدت المعامل الصناعية وقائع ضرب وتعذيب، وكان أحدهم إذا أنجب أطفالًا عملوا في نفس المعمل بالقوة، ولم يُعطوهم حق الاختيار في العمل أو المجال(386).

من ناحية أخرى، سادت العنصرية القومية بشكلٍ كبير، لدرجة أن البلاد نفسها قُسمت على أساس الطبقية.

الدرجة الأولى: «المغول»، أصحاب المنازل العالية.

الدرجة الثانية: «سكان سهمو»، كأبناء شيا الغربية وغيرها من أهل الغرب.

الدرجة الثالثة: «أبناء هان»، كأبناء هان الشمال، وتشيدان ونيويجن وغيرهم من أهل الشمال.

الدرجة الرابعة: «الطبقة الدنيا»، كأبناء هان الجنوب، وغيرهم من أبناء قوميات جنوب نهر يانغتسي، هذا على الرغم من أنّ هناك أفرادًا من عائلة هان كانوا يشغلون المناصب الحكومية الكبرى والحساسة، ويملِكون الأراضي الشاسعة(387)؛ فقد كانت فترات حكم أباطرة «يوان» اللاحقين قصيرة وكَثُرت فيها المؤامرات والمنافسات، وبسببِ عدم اهتمامهم بالإدارة؛ تم فَصْلهم عن كلٍّ من الجيش والسكان، وتمزَّقت الصين بسبب الخلافات والاضطرابات، ودمَّر الخارجون عن القانون البلادَ دون تدخُّل من جيوش «يوان» التي أصبحت مع الوقت ضعيفة وغيرَ مطوَّرة، وأكثر ما يصف انعزال السلطة عن الشعب أن غالبية الأسرة الحاكمة لا يتحدثون الصينية من الأساس، حيث أتقن بعضهم اللغة الصينية، بينما استخدم آخرون فقط لغتهم الأم المنغولية»(388)

.

أفرطت أسرة يوان في فرض الضرائب الباهظة على الفلاحين، وقد وصل حدّ الجبايا لدرجة أنه كان يُخيِّر الفلاحَ بين أعمال السُّخرة وبين دفع الرسوم التعويضية في حالة رغبته في الإعفاء، عندما يختار الإعفاء ويدفع الفدية؛ تتم الموافقة وتُحصَّل منه؛ وبرغم ذلك يتفاجأ أنهم يسوقونه إلى السُّخرة بعدها، بل وعانى سكان الريف من الكوارث الطبيعية المتكرِّرة؛ مثل الجفاف والفيضانات والمجاعات الناتجة عنهما، حيث كان النهر الأصفر يفيض باستمرار، بالإضافة إلى كوارث طبيعية أخرى، وفي الوقت نفسه، احتاجت أسرة «يوان» إنفاقًا عسكريًّا كبيرًا للحفاظ على إمبراطوريتها الشاسعة، وأدّى افتقار الحكومة لسياسة فعّالة إلى فقدان الدعم الشعبي(389).

في عهد يوان مات الملايين من السكان الأصليين للصين، فقبل الغزو المغولي، سجّلت السلالات الصينية السابقة ما يُفيد بأن عدد سكان الصين كان حوالي ١٢٠ مليون نسمة، وبعد اكتمال الغزو في عام ١٢٧٩ م؛ اتضح من تَعداد عام ١٣٠٠ م، أن عددَ سكان الصين حوالي ٦٠ مليونَ نسمة(390)

يعتبر بعض العلماء أن هذا التقلُّص الفادح سببه الإبادة الوحشية التي قام بها المغول، بينما يُجادل علماء آخرون أمثال «فريدريك دبليو» في ذلك، ويبرِّر أن هذا كان فشَلًا إداريًّا في التسجيل وليس انخفاضًا فعليًّا، من ناحية أخرى جادل آخرون أمثال «تيموثي بروك» مبررين أن المغول قاموا بإنشاء نظام استعبادي بين جزء كبير من الشعب الصيني، مما تسبّب في تقلص شعب الصين، واختفاء الكثيرين من التَّعداد السكاني تمامًا، بينما اعتبر علماء غيرهم، أمثال «ويليام ماكنيل»؛ و«ديفيد مورغان»، أن الطاعون كان العاملَ الرئيسيَّ وراء التدهور الديموغرافي خلال

هذه الفترة، بالإضافة إلى أن في القرن الرابع عشر، عانت الصين من حالات وفاة إضافية بسبب أوبئة الطاعون التي تُشير التقديرات إلى أنها قَتَلت حوالي ربع سكان الصين(391).

وفي أي حالٍ من التحليلات السابقة؛ لا شك في أن رائحة الموت كانت متواجدة في الصين برغم ازدهار أُسْرة «يوان» في أوقات كثيرة؛ ولأن هذا الازدهار كالعهود السابقة لم يكن رفيقًا للكادحين في ظل التوترات الطبيعية والسياسية، بذلت الجماعات والطوائف الدينية جُهدًا لتقويض سلطة آخر حكام «يوان»، وساعدهم في ذلك تراجع الزراعة وضرب الأوبئة والطقس البارد للصين، وبسبب فشل الحكومة في انتشال الفقراء المعدومين؛ أدى ذلك إلى التمرُّد المسلح(392) ، فالتاريخ يتشابه كثيرًا في إحداثياته؛ طبقية واضطهاد وجوع مع فشل سياسي، هذا يُعد مرتعًا مثاليًّا للثورة والانتفاض، وربما أنت أصبحت الآن تُدرك من قراءتك للأحداث السابقة والمتشابهة نوعيًّا، متى ستُجهَّز تنانير الانتفاض قبل حُدوثها.

جيش أصحاب الأوشحة الحمراء

تحيّن أبناء القوميات المضطهدة الفرصةَ المناسبة لوضع حدٍّ لهذا الحال، كان من أبرزهم زعماء كــ:»هان شان تونغ»؛ و«ليو فو تونغ»، بدأت الشرارة عندما أمر الإمبراطور «شون دي» بإرسال ١٥٠ ألفًا من الفلاحين و٢٠ ألف جندي، إلى مقاطعتي خبي وخنان؛ من أجل ترميم النهر الأصفر عام ١٣٥١ م، استقبلهم موظفوه بالجَلْد والضرب والإهانة، كما قاموا بفرض الإتاوات على مدخولهم المحدود، حينها أراد «ليو» و«هان» وغيرهما من الزعماء استغلال هذه الواقعة، ونشروا حكاية عنوانها:

«كان هناك رجلٌ أعور لو فتح عينه نحو النهر أثار التمرُّد».

ومع انتشار الحكاية؛ لمست حَبكتها قلوب هؤلاء المناكيد(393).

قام المحرِّضون على الثورة بعد ذلك بنحت صخرة على شكل رجلٍ أعور؛ ورموا التمثال في نهر هوانغلينغ، وعندما باشر المُسّخرون أعمال حفر وتطهير النهر، عثروا على التمثال؛ فانهمرت دموعهم وتألمت قلوبهم، وبسبب انتفاض مشاعرهم عقدوا النية على الصُّراخ في وجه الظلم، مستجيبين لتحريضات «هان» و«ليو»، حينها أوشَى عليهم الموظفون المحليون؛ فتمَّ القبض على الزعيم «هان شان تونغ» ثم قُتِل، وأصبح «ليو فو تونغ» قائدًا أُحاديًّا لانتفاضة أصحاب الأوشحة الحمراء (العمامات الحمراء، والشالات الحمراء في ترجمات أخرى)، والتي أصبحت سببًا في ظهور تأثير العمامة الحمراء في العديد من الأماكن على طول نهر هواي منذ عام ١٣٤٠ فصاعدًا(394) .

قام «ليو» بتعبئة الفلاحين والثائرين في أودية نهر هوايخه ومجرى النهر الأصفر السُّفلي، ثم أعلن انتفاضته في ينغتشو(ض) ، وخلال وقتٍ سريع تمكّنت قواته من الانتشار من ينغتشو إلى خنان، وفي طريقها استقطبت مئات الألوف، رافعين رايات باللون الأحمر؛ وعلى رءوسهم شالات

حُمر، ومع التوسع السريع، انضم إليهم قوات جديدة تحت قيادة «شوي شيو هوي»، و«قوه تسي شينغ».

تمكنت قوات جيش الشالات الحمراء من إحداث ضربات قاسمة في صفوف جيش إمبراطورية يوان، واستدعتهم قوتهم إلى تأسيس سُلطة للفلاحين في «بو تشو (غ) «، وأطلقوا عليها «عودة دولة سونغ»، ووقع الاختيار على «هان لين آر» ابن قائد الثورة الأول الذي تم قتله: «هان شان تونغ»، كمَلِك لهذه الدولة في عام ١٣٥٥ م(395).

مع مرور عامه الأول، حقق جيش الشالات الحمر انتصاراتِ واضحة، وفي العام الثاني أرسل القائد «ليو فو تونغ» ثلاثة جيوش في مهام مختلفة؛ من أجل إرباك قوات يوان في جبهات متعددة، ومع عجز الجيش الحكومي تجاه هذه الموجة العالية، وزعت يوان الهدايا السخية على قادة الحراسة التابعين لمُلّاك الأراضي، من أجل استقدامهم للمشاركة في صفوف الجيش الحكومي، من ناحية أخرى، حاولت الحكومة إغواء قادة الانتفاضة بالمال لكي يرتدّوا عن موقفهم، وبسبب كل ما ذُكر -بالإضافة إلى نقص القيادة الموحدة مع توسع هجمات جيش الشالات- اهتزَّ جيش الثائرين بعد حشد حكومة يوان كل السُّبل تجاه هذه الانتفاضات، وانهزمت قوات «ليو فو تونغ»؛ بسبب تدعيم الجيش بقوات مُلّاك الأراضي، من خلال حصار قوي في آنفنغ(ظ) ، وانتهى الأمر بقتله بعد ما استمر مقاتلًا مناضلًا طيلة ١٢ عامًا، كانت ضرباته فيهم قد أحدثت صدوعًا في إمبراطورية يوان من الصعب رَتْقها بسُهولة، فقد صورت السجلات التاريخية جيش الشالات الحمراء على أنه تعامل مع المسئولين والجنود الأسرى من يوان بعنف كبير؛ حتى زلزل قوة يوان وأضعفها(396) .

مع سير هذه الأحداث وفي نفس الوقت كانت هناك قصة أخرى بطلها ثائر آخر اسمه «تشو يوان تشانغ»، التحق بجيش الشالات الحُمر في سنة ١٣٥٢ م؛ في الوحدة التي قادها «قوه تسي شينغ»-بعد قيام الانتفاضة بعام واحد- هاربًا من الذل والهوان الذي تجرعه أثناء عمله كفلاح أجير في هذا العالم الإقطاعي الكبير، وبعد وفاة «قوه تسي» تحمل تشو قيادة هذه الوحدة، وبصحبة جيشه زحف تشو إلى جنوب نهر يانغتسي، وتمكّن من الاستيلاء على مدينة تشيتشينغ في عام ١٣٥٦ م، وأطلق عليها بلدية ينغتيان(أ) .

في هذا الوقت كان القتال على أشُدِّه بين قوات «ليو فو تونغ» (قبل قتله)، وقوات يوان، وبانشغال قوات الإمبراطورية في هذه المعارك؛ استغل تشو التسيب الواضح وأسس سلطة للحكم في ينغتيان، وقوَّى نفوذه الخاص فيها، واختار مستشارين له من طبقة مُلّاك الأراضي ومنحهم وظائف عالية في هذه الدويلة الصغيرة، ثم أقبل على تشييد الأسوار العالية وتعزيز القوة العسكرية، وخلال عشر سنوات من القتال؛ كان قد توسَّع نفوذه وسيطر على مناطق ليست قليلة حول مجرى نهر يانغتسي الأوسط والأسفل(397).

بعد الغلَبة والنفوذ وتمكِين حُكمه في ينغتيان؛ انقلَب «تشو يوان تشانغ» على الجيش الأحمر؛ ووجد مصالحه في أحضان طبقة مُلّاك الأراضي؛ حتى بدا وكأنه وكيل لهم، بل وأمر الفلاحين

الثائرين بإعادة الأراضي المكتسبة إلى مُلّاكها، وبدعم من النبلاء أرسل جيشًا لإخضاع الشمال في عام ١٣٦٧ م، ثمَّ تمّ تتويجه كإمبراطور في ينغتيان عام ١٣٦٨ م؛ تحت اسم الإمبراطور «هونغوو»؛ كأوّل حاكم لسلالة مينغ، وبعدها تمكّنت قواته من السيطرة على بكين عاصمة يوان، ليُسدَل الستار معلنًا انتهاء أسرة يوان، وقيام أسرة مينغ(398).

* * *

٣ ـ إقطاعية ورأسمالية

وبرجوازية في عصر واحد

(مينغ العظمى أمام التحديات الأعظم)

بإعلان مينغ في عام ١٣٦٨ م؛ وتتويج «تشو يوان تشانغ» وحَمْله لقب الإمبراطور «هونغوو»، عاد الحكم لسلالة الهان الإمبراطورية في الصين، تلك المجموعة العِرْقية الأغلبية في الصين منذ القِدم وحتى الآن، كان هذا في ظل الصراعات القومية المختلفة التي طرأت على التاريخ الصيني.

* * *

سلالة مينغ الحاكمة

في مُستهل حكم الإمبراطور «هونغوو»(مينغ تاي تسو في ترجمة أخرى) كانت العاصمة في ينغتيان -برغم السيطرة على بكين- وظلت ينغتيان هي العاصمة في العقود الأولى حتى يتم إعادة تعمير بكين من جديد؛ فقد كان الدمار واسع المدى، أما عن الدمار الاجتماعي؛ فأدت الانتفاضات والتوترات إلى بَعثرة الهرم الاجتماعي، وبرغم أن النبيل ما زال نبيلًا؛ فإنه فقد الكثيرَ من ممتلكاته وأراضيه الخصبة، بعد أن شهدت أماكن كثيرة نزوح أهاليها -بما فيهم المُلّاك والنبلاء- وتُركت مساحات شاسعة دون صاحب، وفقدت القوة الزراعية مكانتها منذ أواخر «أسرة يوان»، فحاول الإمبراطور «هونغوو» إنشاء مجتمع من المجتمعات الريفية المكتفية ذاتيًّا، والمنظمة في إطار قانوني صارم وغير متحرك، يضمن له في النهاية استخدام الفلاحين كفئةٍ دائمة من الجنود لسلالته، وبالتالي دعم الزراعة والاقتصاد والجيش كلٌّ في آنٍ واحد(399) .

برغم أنه كان مدعومًا من النبلاء ومُلّاك الأراضي، فقد حثّ «تشو يوان تشانغ» (الإمبراطور هونغوو) مُلَّاك الأراضي على عدم استخدام الفلاحين في السُّخرة المفرطة، من أجل تشجيع المزارعين على العودة إلى الحقول، وتحقيق أقصى مصلحة للمجتمع الجديد، وأرغم مالك الأرض على دفع ٩٠ كيلو جرامًا من الأرز في حالة طلب خدمات المستأجر لأعمالٍ خارجية(400).

من ناحية أخرى، اعترف المؤسس «هونغوو « بأحقية الفلاحين الذين زرعوا الأراضي رغم التوترات؛ وكافئهم بالإعفاء من السخرة والضرائب لمدة ثلاث سنوات، كما خصَّ الفلاحين الفقراء في جنوب نهر يانغتسي وما حولهم بالذِّكر، وطلَب منهم بشكل مباشرٍ العمل على استصلاح الأراضي التي بارت حول نهر هوايخه والمجرى من النهر الأصفر، مقابلَ دعم كبير من حكومته، فأقبل الفلاحون على الأراضي من جديد، كذلك استخدم هونغوو القوات العسكرية الزائدة والمرابطة في العمل على استصلاح الأراضي، وقام بعمل مسحٍ شامل للأراضي المهجورة على إثرِ الأحداث السابقة؛ ثمّ ضمها للكِيان الحكومي، وأوصى رجاله بمسح مساحة أراضي المُلّاك؛ من أجل تنظيم الضرائب وعدم التلاعب بها، وخلال ٧٠ سنة تقريبًا، تمّت معالجة الخَلَل الزراعي،

وشعر الناس بالتحسين التدريجي(401).

مع الوقت تحسَّنت أجواء الحِرف اليدوية، وبعد تأدية عمله على أحسن وجه، سُمح للصانع أن يصنع في وقت فراغه من الخدمة الرسمية منتجات خاصة به؛ ليبيعها في السوق (النبتة الأولى للرأسمالية)، وقد أسهم هذا في إنماء الصناعة، أما عن غرض الإمبراطور الأول وهو ضمان قوة الجيش؛ فقد أدت تعديلاته إلى إنعاش تعداد القوات، حتى تجاوز الجيش النظامي للإمبراطورية مليون جندي، وكانت أحواض بناء السفن التابعة للبحرية في نانجينغ هي الأكبر في العالم، يَعتبِر العلماءُ أن أسرة يوان أثَّرت تأثيرًا عميقًا في أسرة مينغ الصينية، حيث أُعجب إمبراطور مينغ المؤسس «هونغوو» بتوحيد المغول للصين، واعتمد نظام الحامية الخاص بهم(402) .

سياسيًّا: كان «هونغوو» شخصية حازمة، وقد مكَّنه حَزْمه من ضم جميع المؤسسات لقبضة يده، واهتم بشدة بكسرِ سُلطة «خصيان البلاط»، والأقطاب غير المرتبطين به(403) . على سبيل المثال ، في عام ١٣٨٠م، أمر «هونغوو» بإعدام المستشار «هو ويونغ» للاشتباه في تدبيره مؤامرة للإطاحة به، ثم ألغى هونغوو المستشارية وتولَّى هذا الدور كرئيس تنفيذي وإمبراطور في آنٍ واحد، ليتبعه في ذلك خلفاؤه لاحقًا(404).

بهذا الشكل تدخّل إمبراطور مينغ في كل التفاصيل الهيكلية الصغيرة قبل الكبيرة، واختار بنفسه وزراءَه دونَ أي إملاءات أو اقتراحات؛ لدرجة أنه تولى بنفسه توزيع القوات المسلحة، واختار لهم قادة مقسمين إلى خمسة أقسام:

قيادة المقدمة - قيادة القلب - قيادة الميمنة - قيادة المَيْسرة - قيادة المؤخرة(405).

الإمبراطور)المؤسس)«هونغوو»)(مينغ)تاي)تسو))في)شيخوخته)عام)١٣٩٧م.

كما أنشأ شبكة من الشُّرطة السرية مُستمدة من حُراس قصره المقربين، دورها التجسس على المسئولين والموظفين والمعارضين، وتم إعدام حوالي ١٠٠ ألف شخصٍ في سلسلة من عمليات التطهير خلال فترة حكمه(406) .

بسبب ديكتاتوريته الواضحة؛ تخبطت القرارات بين الوزراء والقيادات، وأفضى ذلك إلى نَزْع

صلاحياتهم وانتظار الحسم النهائي من الإمبراطور نفسه في كل قرار، كما وصلت يداه للسيطرة على الأقليات الواقعة في شرق الصين، وفرض عليهم بنفسه نُظمًا عسكرية حازمة، ووزع مناطقها الى محافظات خاضعة للسلطة الحكومية، واستمر الإحكام على الشرق كما هو في عهد خلفائه: «مينغ تشنغ تسو» (الإمبراطور يونغلي) و«مينغ شيوان تسونغ»(الإمبراطور شواندي)، ومن الأدلة الأثرية هناك: «معبد يونغتينغ» على ضفة نهر هيلونغ بالقرب نورقان(ب) ، ونصبين تذكاريين سُجِّل عليهما أحوال الدائرة في هذا الزمان، وتفقُّد الموظَّفين، والزيارات الحكومية إليها.

مع تولِّي الإمبراطور الابن «مينغ تشنغ تسو»؛ أعطَى أوامره بإعادة إعمار العاصمة السابقة بكين؛ فبدأ المشروع في عام ١٤١٧ م، وفي النهاية أفرز تُحفة معمارية رائعة، تمثَّلت في تقسيم المدينة إلى ثلاثة أقسام مستطيلة الشكل:

القسم الداخلي: أُطلق عليه حينها «المدينة المُحرمة»(ج) .

والقسم الثاني: المدينة الإمبراطورية بحدائقها وسورها وخندقها المحفور خارج السور.

والقسم الثالث: وهو القسم الخارجي الذي صُمِّم لعامة الشعب؛ وضم تسع بوابات، وبعد إتمام الإعمار تم نقل العاصمة من ينغتيان(د) إلى بكين نفسها عام ١٤٢١ م في عهد خلفه؛ بغرض فرض السيادة على المنطقة الشمالية بالصين(407).

ومن الأعمال العظيمة الأخرى التي تمت منذ أوائل هذه السلالة: بناء حاجز لياودونغ وربط وتحصين سور الصين العظيم في شكله الحديث، في مدَّة تعدَّت ٢٠٠ سنة؛ ليصل في النهاية إلى ٦٥٠٠ كم، وما زال على حالته السليمة حتى الآن، وهو من عجائب الدنيا السبع الجديدة(408).

بعد تعمير العاصمة الجديدة؛ وبعدَ فرض السيطرة على الحدود؛ انتعشت الزراعة أكثر مما كان متوقعًا مع حلول منتصف عهد سلالة مينغ، فزادت محاصيل الأرز، والقطن، وازدهرت تربية دود القز، وانتشرت أشجار التوت، ودخلت زراعة التبغ إلى الصين من القارة الأمريكية.

من ناحية أخرى، تطورت أعمال الحِرف اليدوية، وانتشرت معامل صهر الحديد؛ وبُنيت مئات الأفران الحكومية والخاصة التي تميزت في إنتاج الخزف، كما تطورت حرفة الغزل والنسيج والخيوط المغزولة بالرسوم المزهرة، وانتعشت تجارة القطن والحرائر الخام، ومنسوجاتهم القطنية والحريرية، إلى جانب التبغ، والورق، والخزفيات، والآلات الحديدة، والغلال وغيرها، وبسبب انتعاش الأسواق التجارية بُنيت ٣٠ مدينة تجارية فخمة، غالبيتها كانت في جنوب نهر يانغتسي، وعلى سواحل البحر جنوب شرقي الصين، واكتظت الموانئ بالصنوف التي تُعد للتصدير الخارجي، لا سيما إلى اليابان وبلدان جنوب آسيا الشرقي، وانتشرت النقود الفضية حتى عُممت في أواخر عهد سلالة مينغ(409).

الرأسمالية الأولى

من أجل تعزيز الاستيراد والتصدير؛ كلف الإمبراطور «مينغ تشنغ تسو» خصي قصره «تشنغ

خه»؛ (المعروف بـ سان باو) المسلم من قومية هوي، بالعمل كسفير لدى بلدان جنوب آسيا والمحيط الهندي وساحل إفريقيا، وانطلقت رحلته في عام ١٤٠٥ م؛ برفقة ٢٨٧٠٠ من القادة والمترجمين والجنود والملاحين والصناع، في أسطول من ٦٢ سفينة؛ مُحمل بالهدايا والمنتجات، وكان بينهم سُفن ضخمة، عُدت من أكبر سفن العالم آنذاك، ومع وصولهم للبلدان المرجوّة قاموا بتوزيع الهدايا على الملوك والأمراء، ثم بدءوا يتاجرون مع الأهالي؛ ويتبادلون معهم السلع، وكانت لرحلات «خه» التي وصلت لسبع رحلات دورٌ فارق في علاقة الصين الدبلوماسية والتجارية مع العالم، وكذلك الترويج لمنتجاتها المميزة خارج نطاق الدول والحدود، واتسمت رحلاته بالمهارة الملاحية العالية، وهي شكلٌ من أشكال الرأسمالية الأولى(410).

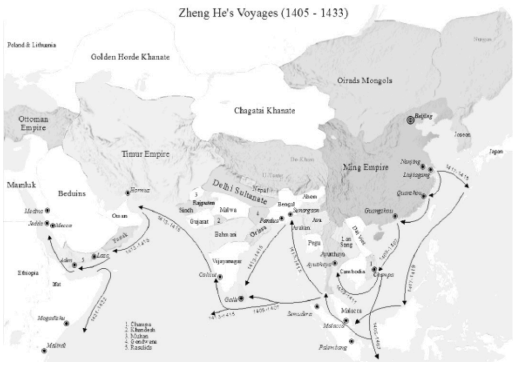

خريطةٌ(توضّح(رحلات)«تشنغ(خه»)الفارقة.

كان هذا التقدم التجاري الذي اعتمد على الملاحة والتجارة البحرية؛ عاملًا مُغريًا لنشأة قراصنة البحر الذين يُغيرون على السفن وكذلك السواحل طمعًا في هذه الخيرات، وقد ظهرت نشاطات القراصنة اليابانيين منذ بداية عهد سلالة مينغ، ومع التقدم التجاري في أواسطها اشتدت هجماتهم، ومثّلوا خطرًا واضحًا على الإمبراطورية، خاصةً عندما تآمروا مع بعض التجار ومُلّاك الأراضي في منطقتي تشجيانغ وفوجيان، وتقاسموا معهم الغنائم، وقد تسبَّبت هذه الواقعة في نهب سكان الساحل(411).

تلا هذه الحادثة أخرى أكبر في عام ١٥٣٣ م، عندما تحالف القراصنة اليابانيون مع بعض التجار والخونة حتى مكّنوهم من الاختباء في سفنهم والإغارة على جيانغسو وتشيجيانغ؛ فعاثوا فيهما فسادًا، وعندما اشتد بأس القراصنة الذين ينهبون السكان ويذبحونهم؛ وازداد عددهم بوضوح، أحدثت ضرَباتهم الذُّعر والتوتر في الأماكن الساحلية؛ حينها هَبَّ الناس متكاتفين مع القوات الحكومية التي وفدت بغزارة، من أجل سحق هذا الاعتداء والحفاظ على منتجاتهم التي تلَعْلَعت، كان من أبرز قادة الجيش الذين كُلفوا بهذه المهمة «تشي جي قوانغ»، والذي قام بتدريب الأهالي على حمل السلاح حتى وصل عددهم لأكثر من ٢٠ ألفَ مقاتلٍ، وقد أبلوا بلاءً حسنًا في المعارك حتى أُطلق عليهم «جيش عائلة تشي»، وقضوا على القراصنة بعد خوض تسع معارك قرب

تايتشو في منطقة تشجيانغ عام ١٥٦١ م، ثم صوبوا وجوههم نحو فوجيان وقوانغدونغ؛ حتى أبادوهم تمامًا على طول سواحل جنوب الصين، في عام ١٥٦٥ م(412)، وعادت التجارة الخارجية تُمارس بحرية وأمان، إلا أن نوايا جديدة أظهرت طمعها في المنطقة كلها بشكل أكبر من مطامع القراصنة.

الحرب اليابانية - الكورية الصينية

في عام ١٥٩٢ م، اتضحت نوايا النفوذ الياباني للتوسع في المنطقة، وكان لدى الزعيم الياباني: «تويوتومي هيوديوشي» رغبة جامحة في اجتياح كوريا التي كانت تحكمها «سلالة جوسون»؛ فأرسل ٢٠٠ ألف من الجند من أجل هذا الغزو، فنزلت قواته إلى بعض البلدان الحدودية قاصدةً التوغل في جميع أنحاء شبه الجزيرة الكورية، حينها تسلَّلت المخاوف إلى الداخل الصيني، وتأكد الصينيون أن دورهم قادم، خاصةً بعد فهمهم لنوايا القائد الياباني؛ لذلك لم يُماطلوا في ردهم على استغاثة كوريا بهم، وأرسلت إمبراطورية مينغ قوات عسكرية في عام ١٥٩٣ م؛ بقيادة الجنرال «لي رو سونغ»(413) .

كان لمساهمات الصين، وكذلك تعطيل أساطيل الإمداد اليابانية على طول السواحل الغربية والجنوبية من قبل بحَرِية سُلالة جوسون، دورٌ رادعٌ في إجبار القوات اليابانية على الانسحاب من بيونغ يانغ والأقاليم الشمالية، وانتهت المرحلة الأولى من الغزو في عام ١٥٩٦ م، تلاها بعد ذلك مفاوضات سلام غير ناجحة بين اليابان ومينغ(414) .

بعد ٦ سنوات اتضح فشل مسيرة السلام، وتجدّدت مطامع «هيوديوشي» التوسوعية مجددًا، فقرر الإغارة على كوريا مجددًا من خلال إرسال ١٤٠ ألفًا من الجند عام ١٥٩٧ م، ونهضت الصين مرة أخرى وأرسلت إمبراطورية مينغ قوات عسكرية لمساعدة الجيش الكوري وظل القتال لمدة عام، حتى انتهى بسبب موت القائد الياباني «هيويوشي»(415).

بسبب الفتنة والانقسام الياباني الذي حدَث بعد موت الزعيم، عندما حدثت عمليات إجلاء القوات اليابانية طاردتهم القوات المتحالفة من الخلف، ودارات حرب قاتلة في عرض البحر؛ انتهت بتكبُّد القوات اليابانية خسائر فادحة، وتلا ذلك مفاوضات السلام النهائية بين الطرفين التي استمرت لعدة سنوات، مما أدى في النهاية إلى تطبيع العلاقات(416)، تُعتبر الغزوات اليابانية لكوريا في ذلك الوقت أكبر الغزوات البحرية في التاريخ.

الإسلام والمسيحية واليهودية في عهد مينغ

كانت المعتقدات الدينية السائدة خلال عهد أسرة مينغ هي الأشكال المختلفة للدين الشعبي الصيني المبني على التعاليم الثلاثة؛ الكونفوشيوسية، والطاوية، والبوذية، بينما أصبح اللامات التبتيون الذين دعمهم يوان غير مرحَّب بهم، وفضّل أباطرة مينغ الأوائل بشكل خاص الطاوية(417) .

كان الإسلام أيضًا راسخًا في جميع أنحاء الصين، خاصةً بعد ترحيب أسرة تانغ به؛ وكذلك دعمه من أسرة يوان، وعندما حكم «هونغوو» مؤسس مينغ؛ أمر ببناء مساجد عديدة في مقاطعات نانجينغ ويونان وغوانغدونغ وفوجيان، وبها نقوش تشيد بنبي الإسلام «محمد» - صلى الله عليه وسلم - في هذه المساجد، وفي ظل سماحته؛ انتقلت أعداد كبيرة من شعب هوي إلى المدينة للعيش بها، كذلك تقول المصادر الصينية: إن قادة جيشه كان منهم ما لا يقل عن عشرة جنرالات مسلمين (418) .

الأمر في البداية لم يكن بهذا الشكل، فعلى الرغم من إشادة هونغوو وتمجيده للإسلام، فإنه اتَّخذ إجراءات مُقيدة للمسلمين بعد اعتلاء العرش؛ لخشيته أن يهدد تعاظم تأثير المسلمين حكمه، وفي عام ١٣٦٨ م أصدر مرسومًا بحظر ملابس وأسماء الهوي ولغاتهم (العربية والفارسية)، وفي عام ١٣٩٢ م أصدر قرارًا يحظر النساء والرجال المسلمين المغول ومسلمي آسيا الوسطى من الزواج من غير الصينيين الهان، وربما كان غرضه من ذلك انسجام المسلمين في المجتمع وعدم تكتلهم كقومية مستقلة(419).

قَبِل المسلمون حظر أسماء وأساليب «هوي»، واتَّخذوا لأنفسهم أسماء صينية، ولكنهم احتفظوا بأسمائهم العربية الأصلية سرًّا، وحصَل مسلمو قومية هوي على تسامح سلطة أسرة مينغ في حظر «الزواج بين أبناء الأقلية القومية نفسها»، بعدما أبدوا تقبلهم وتنازلهم عن اللغة والأسماء والملابس، ويمكننا القول أنّ هذا كان انتصارًا لحكمة المسلمين، وعوضًا عن تلاشي تعاليم القرآن والإسلام؛ وضع عالم القرآن الكبير «هو دنغ تشو» (١٥٢٢- ١٥٩٧) أُسس التعليم الإسلامي الصيني الذي أعد آلاف المتخصصين في علوم الدين، وبرغم التقييدات القانونية وافق أباطرة مينغ على بناء المساجد ومنحوا الحرية لكلِّ من يُريد اعتناق الإسلام بعد ما أبدت قومية الهوي وفائها(420) ، فعلى الرغم من أن خلفائه في بعض الأوقات قلَّصوا هذا الدعم بشكل حادٍّ؛ فإنَّ وجود المسلمين واندماجهم وتآلفهم في المجتمع حينها كان سببًا في تحول النظرة الصينية للمسلمين، وأصبحوا من مجرد «أجانب» إلى «الغرباء المألوفين»(421) .

أما المسيحية، فقد شهِدت انتشارًا أقلّ مقارنةً بانتشار الإسلام هناك، بسبب وصول الإسلام للمغول، وتبنِّي «يوان» له، وكذلك استقدام مسلمي بخارى، بالإضافة إلى توسُّع وتكاثر أقلية «هوي»، فكما ذكرنا من قبل؛ وصلت المسيحية إلى الصين خلال عهد سلالة تانغ من خلال البعثات التبشيرية لكنيسة المشرق النسطورية في عام ٦٣٥ م، ولكن مع قدوم أسرة مينغ شهد التبشير بالمسيحية حربًا محدودة، ففي عامه الأول أعلن الإمبراطور «هونغوو» أن البعثات الفرنسيسكانية البالغة من العمر ثمانين عامًا هي من بين أتباع يوان غير الأرثوذكس وغير قانونية، ويجب وقفها(422) ، وفي نفس الوقت اختفت أيضًا كنيسة المشرق التي يعود تاريخها إلى قرون في الصين، لكن مع أواخر عهد مينغ، وصلت موجة جديدة من المبشرين المسيحيين - وخاصة اليسوعيون - الذين استخدموا العلوم والتكنولوجيا الغربية الجديدة في حججهم من أجل التبشير،

وتعلموا اللغة والثقافة الصينية في كلية سانت بول في ماكاو بعد تأسيسها عام ١٥٧٩م، وكان «ماتيو ريتشي» الأكثر تأثيرًا، حيث قلب كتابه « خريطة عدد لا يُحصى من بلدان العالم»؛ الجغرافيا التقليدية والمتعارف عليها في جميع أنحاء شرق آسيا، وأدت سلسلة من الإخفاقات المذهلة لعلماء الفلك الصينيين لعودة اليسوعيين لتقديم أنفسهم كعلماء متعلمين في القالب الكونفوشيوسي(423) .

هناك خلافات قوية بين المؤرخين، حول مدى قدرة المتحولين للمسيحية على الاستمرار في أداء الطقوس للإمبراطور، وبعيدًا عن هذا الخلاف، يُعتبر بداية تجذر المسيحية بشكل كاملٍ قد حدَث بعد وصول هؤلاء المبشرين اليسوعيين في عهد مينغ المذكور؛ والذين لعبوا دورًا في نقل المعرفة والعلوم والثقافة بين الصين والغرب(424).

أما عن اليهودية، فقد ظهر بوضوح مجتمع «يهود كايفنغ»، الذي اقتصر وجودهم في مجتمع كايفنغ اليهودي المنعزل، وفي القرون الأولى من استيطانهم، ربما كان عددهم حوالي ٢٥٠٠ شخصٍ(425) ، ويُعتبر فيضان عام ١٦٤٢ م قد ألحق بهم ضررًا كبيرًا؛ حيث فقد مجتمع يهود كايفنغ خمسًا من عائلاته الاثنتي عشرة؛ وكنيّسه اليهودي؛ ومعظم الكتب العبرانية الدينية(426) .

تآكلت الحياة العُرفية المميزة لمجتمع كايفنغ ببطء، وبسبب عدم الاستيعاب والتزاوج مع جيران الهان الصينيين والهوي؛ انقرضت اليهودية في الصين إلى حدٍّ كبير بحلول القرن التاسع عشر، بصرف النظر عن احتفاظهم بذكريات الماضي اليهودي لعشيرتهم.

الثقافة والعلوم

مع تطور التجارة الرأسمالية التي شملت أواسط عهد سلالة مينغ، تقدّمت الثقافة والعلوم، وصُبغت الآداب بالأفكار المناهضة للإقطاعية التي ما زالت قائمة على يد السادة والبلاط، وظهر تطور واضح في العلوم المتعددة.

في مجال الطب: كُتب كتاب «فهرس الأعشاب الطبية» بقلم الصيدلي «لي شن تشن»، بعد دراسة ميدانية واسعة ودراسة منهجية أكاديمية مكثفة بين المخطوطات والمجلدات القديمة؛ استغرق كلاهما ٢٧ سنة، وضم الكتاب ١٨٠٠ صنف من العقاقير والأدوية؛ كان ٣٧٤ منها من اكتشاف لي لأول مرة، كما ضم الكتاب بين طياته ١٠٠٠ صورة تُبين هيئات العقاقير، و١١,٠٠٠ وصفة طبية لغالبية الأمراض المعتادة وقتها، وهو الآن مرجعٌ عالمي مهمٌّ لعلم الطبيعة(427).

أما في الزراعة: فقد كُتب كتاب «الكامل في الزراعة» لمؤلفه: «شيوي قوانغ تشي»، وهو نفس العالم الذي تَرجَم الكتب التي قَدِم بها المُبشر الإيطالي «متَّى ريتشي» ورفقائه؛ والتي ساهمت في الانفتاح الثقافي الإيطالي الصيني، ويعتبر كتاب «الكامل في الزراعة» من المؤلفات المهمة التي أسهمت في وضع نظريات جديدة للزراعة وغرس النباتات وصناعة الأدوات الزراعية وتشييد منشآت الري، كما نقل للعامة في الصين طرق الري الأوروبية(428).

كذلك كُتب كتاب «الإبداع السماوي»، لمؤلفه: «سونغ ينغ شينغ»، والذي اختص بدراسة الزراعة ووصف المهن الحرفية وفن الإنتاج، وتعليم العامة الحرف المتعددة بإتقان تام، وعمليات إنتاج كل مهنة من بداية اختيار المادة الخام، حتى الوصول إلى المنتج النهائي، حتى أُطلق عليه لاحقًا اسم «الموسوعة الصينية للمهن الحرفية»(429).

أما فن الرسم: فقد ازدهر بشكلٍ واضح، وفي هذا الزمان اعتمد الرسامون على التقنيات والأساليب والتعقيدات في الرسم الذي حققه أسلافهم من سونغ ويوان، ثم أضافوا عليها تقنيات وأساليب أحدث، وتقاضى الرسامون أسعارًا مرتفعة كتقدير لأعمالهم الرائعة؛ والطلب الزائد عليهم من قِبل المجتمع المثقف الهاوي لجمع الأعمال الفنية الثمينة، وغالبًا ما كان الفنانون المشهورون يجمعون حاشية من الأتباع؛ بعضهم كانوا هواة يرسمون أثناء ممارسة مهنة رسمية، وآخرون كانوا رسامين متفرغين(430) .

وفي فن المشغولات اليدوية: اشتهرت هذه الفترة بالمهارة في السيراميك والبورسلين؛ لا سيما الخزف الأزرق والأبيض، بل وتطور الإبداع لكي يتم إنتاج صنوف تناسب الأذواق الأوروبية لتصديرها منذ أواخر القرن السادس عشر، وتم تقدير نسبة الصادرات لأوروبا بحوالي ١٦٪، بينما كان الباقي يُصدر إلى اليابان وجنوب شرق آسيا(431) .

أما المفكرون في هذا الزمان: فكان من أشهرهم المفكّر التقدُّمي «لي تشي»، الذي عُرف عنه مناهضة الإقطاعية، وتفنيده آراء «كونفوشيوس»، حيث رأى أن فلسفته الإقطاعية لا تصلُح لهذا الزمان، كما دعا للمساواة بين الرجل والمرأة، وبسبب أن آرائه لم تعجب الحكام؛ تمّ الزج به في السجن وهو في عمر ٧٥، حتى مات فيه(432).

كذلك المفكِّر التقدُّمي «هوانغ تسونغ»؛ الذي شارك في الكفاح ضد أسرة مينغ من أجل التنديد بحُكمها الديكتاتوري، حتى قامت السلطات بالتضييق عليه، بعدَها زهد الدنيا وانغمس في القراءة والكتابة والتدبر(433).

المفكِّر المادي «وانغ فو تشي» الذي كافح أيضًا أغلال الديكتاتورية، وبسبب مطاردة سلطة مينغ له لجأ إلى جبل سيتشوان؛ واستقر في كوخٍ حتى مماته، كان يقضى أيامه في تصنيف الكتب العلمية، وقام بتفنيد الفلسفة الأخلاقية المثالية، وهو من أنصار أن الكون تكون من المادة وليس له خالق(434).

كانت المقالات غير الرسمية وكتابة الرحلات من المعالم الثقافية الواضحة لدى هذا العصر (435) ، كذلك تمّت الإشارة إلى أن أول عملية نشر صحفي خاص في بكين قد تمَّ في عام ١٥٨٢ م، ومع حلول عام ١٦٣٨ م تحوَّلت جريدة بكين من استخدام الطباعة الخشبية إلى الطباعة بالحروف المتحركة، كما تم تطوير المجال الأدبي الجديد للدليل الأخلاقي لأخلاقيات الأعمال خلال أواخر فترة مينغ، والتي استهدفت قُراء طبقة التجار، لحثهم على تبني السلوكيات الحسنة للتجارة(436) .

أما مجال الروايات: ظهرت الرواية بشكلٍ أوَّلي في عهود وي وجين والأسر الجنوبية والشمالية، وفي عهد أسرة تانغ ظهرت الروايات القصيرة؛ حتى ظهرت الروايات الطويلة المتقنة المكتوبة بلغة واضحة في أواخر يوان، ومع بداية مينغ انتشر الأدب الروائي بشكلٍ ملحوظ، وظهر التطور الأدبي الأكثر لفتًا للانتباه في الرواية العامية، وفي وقت كان فيه نخبة النبلاء متعلِّمة بما يكفي لفهم لغة الصينية الكلاسيكية بشكل كامل؛ ظهر جمهور جديد شعبي للرواية العامية، منهم من تحصَّل على تعليم بدائي فقط؛ مثل النساء في الأسر المتعلمة، والتجار، وباعة المتاجر، ليصبحوا لديهم في النهاية تذوقًا كبيرًا للأدب والفنون المسرحية التي تستخدم اللغة الصينية العامية(437) .

كان من أشهر روايات هذا الزمان «قصة الممالك الثلاث» للمؤلف: «لوه قوان تشونغ»، وهو عمل تاريخي يَحكِي منذ بداية «انتفاضة أصحاب الأوشحة الصفراء»، حتى «أسرة جين الغربية»، ويجسِّد الصراعات التي وقعت بين (وي، و شو، و وو)(438)

كذلك عاش الروائي: «شي ناي آن»؛ صاحب رواية: «على ضفة البحيرة»، وهي رواية تاريخية تُجسد شكل الصراع منذ نشأة انتفاضة الفلاحين بقيادة الزعيم «سونغ جيانغ» مرورًا بمراحل تطورها، ووصولًا لفشلها، وشرح فيها معاناة الكادحين في المجتمع الإقطاعي، وأثنى على الكفاح المسلَّح(439).

الروائي: «وو تشنغ آن» صاحب رواية: «الرحلة إلى الغرب»، والتي تحكي رحلة الراهب البوذي «شيوان تسنغ» في عهد أسرة تانغ، عندما رحل من أجل دراسة الكتب البوذية ومن ثَم نقلها إلى الصين، لكن أضاف عليها خلطة خيالية شبه أسطورية(440).

كل هذه الأعمال سارت في إطار ما يُعرف بالاتجاه نحو التأليف المستقل والاهتمام بعلم النفس(441) ، وقد اجتمعت غالبية هذه الأعمال على الدعوة إلى الديمقراطية ومناهضة الديكتاتورية، والقضاء على ما تبقَّى من ملامح الإقطاعية، في وقت حساس ظهرت فيه الرأسمالية، مختلطة بالبرجوازية.

رأسمالية وبرجوازية وإقطاعية معًا

بصورة أوضح، تحوَّلت الصين كغالبية بلدان العالم في هذه الفترة الفارقة (تحديدًا ما بين القرن الخامس والسادس عشر) إلى الرأسمالية: وهو النظام المفتوح الذي شجع على الملكية والصناعة والتجارة الفردية، وفي هذا النظام؛ يتبنى مالِكو الأموال الضخمة اتخاذَ القرارات الاستثمارية لأنفسهم بحرية، وهذا ما يُميز الرأسمالية عن النظم الاقتصادية والسياسية الأخرى - كالاشتراكية مثلًا - التي لا تُحتِّم القرارات الفردية الخاصة.

في الوقت ذاته أنجبت الرأسمالية بالصين ما يُعرف بالبرجوازية: التي تُعبر عن نفوذ الطبقة الغنية الحاكمة في المجتمع، والتي أصبح لديها أملاك ورءوس أموال كبيرة؛ تُمكنها من التحكم في القرارات الأساسية، على الرغم من أنها غير منتجة، بل حصدت ثراءها من فائض قيمة عمل

العمال، ومن استثمار رءوس أموالها في الأسواق. والبرجوازية درجات: تبدأ بدرجة «البرجوازي الكبير» الذي ربما يكون المسئول الأكبر، وتنتهي بـــ «البرجوازي الصغير» صاحب الورشة أو المعمل الذي يحتوي على عامل أو أكثر.

في الوقت نفسه، اتَّسم حُكم آل مينغ بالديكتاتورية السياسية طيلة عصر سلطتهم التي استمرت ٢٧٦ عامًا؛ وبوجود العائلات الإقطاعية التي ما زالت تتمتع بصلاحيتها، وبهذا الشكل جمعت هذه الفترة المتناقضة كل هذه النظم المختلفة.

برغم بزوغ الرأسمالية في هذا العهد، وبلوغ ازدهارها في فترته الوسطى، فإنَّ نهايته شهدت فسادًا واضحًا من السلطة الحاكمة، بالإضافة إلى الكوارث الطبيعية التي أتت تباعًا، ومع حلول القرن السادس عشر؛ أدى توسع التجارة الأوروبية (على الرغم من أنه كان مقتصرًا على الجزر القريبة من قوانغتشو مثل ماكاو) إلى نشر التبادل الكولومبي، ودخول المحاصيل والنباتات والحيوانات إلى الصين، وقد أدى ذلك إلى إنقاذ أسرة مينغ حينها، وتقليص أضرار المجاعات وحفز النمو السكاني، على الرغم من ظهور اضطرابات طبيعية، لعل من أشهرها «زلزال شنشي»، عام ١٥٥٦م، وهو الزلزال الأكثر دموية على الإطلاق، والذي وقع في عهد الإمبراطور «جياجينغ» ، مما أسفر عن مقتل ما يقرب من ٨٣٠.٠٠٠ شخصٍ(442) .

من ناحية أخرى، أدى نمو التجارة البرتغالية والإسبانية والهولندية إلى خلق طلب جديد على المنتجات الصينية؛ وأنتج تدفق هائل من الفضة، هذه الوفرة من المسكوكات أعادت تسييل اقتصاد مينغ الذي وصل إلى حافة الهاوية(443) .

كانت هذه مجرد حلول مؤقتة، فهناك خَلل واضح في الإدارة السياسية التي أُهملت، فعليك أن تتخيل أن الإمبراطور «مينغ شن تسونغ» (وانلي)؛ لم يقابل وزراء حكمه لمدة ٢٠ سنة، تاركًا السيادة لخصيان قصره لمتابعة الشئون الإدارية، مُفضلًا البقاء خلف أسوار المدينة المحرمة وبعيدًا عن أنظار مسئوليه(444) .

انتشر هؤلاء الخصيان في هذا الزمان بتعدادٍ كبيرٍ، وكما هو واضح من الاسم: هم أشخاص تم استئصال خصيتهم في وقت مبكرٍ؛ لجبِّ نُضج الآثار الهرمونية الهامة أو علامات البلوغ؛ كوسيلة لكسب فرص العمل في خدمة الإمبراطورية، علاوة على الخصي العقابي من قِبَل الحكومة، حيث انتشرت هذه الممارسة كعقاب تقليدي في هذا التوقيت، حتى وصل تعداد المخصيين وقت الأحداث الجارية إلى أكثر من ٧٠,٠٠٠ مخصي، وبسبب مناصبهم الحساسة داخل المدينة المحرّمة اكتسبوا قوة هائلة وأنتجوا تكتلًا قويًّا معتمدًا على نفوذهم، وحلوا في بعض الأحيان كرئيس الوزراء.

كانت هذه المناصب الحساسة من نصيبهم بسبب أنهم لا يُنجبون، وبالتالي ليس لديهم إغراءات للاستيلاء على العرش، أو إنتاج سلالة جديدة؛ لذلك كانوا أكثر ثقةٍ لدى أباطرة الصين.

تسبَّب تصدُّر الخصيان للمشهد، وانعزال الإمبراطور في فقد المسئولين المتخصصين لمكانتهم البارزة في الإدارة، وأصبح الخصيان وسطاء بين الإمبراطور الذي يعيش في عالم موازٍ وبين

مسئوليه، لدرجة أن أي مسئول كبير إذا رغب في مناقشة شئون الدولة أو إدخال أي اقتراح يُفيد البلاد؛ يجب عليه دفع الرشوة لإقناع الخصيان الأقوياء، لمجرد نقل مطالبه أو رسالته إلى الإمبراطور، كان هذا في وقتٍ حسّاس اقتصاديًّا -وكذلك عسكريًّا- فكان هناك عدة حملات عسكرية حساسة(445) .

ومن سوءٍ إلى سوء، عندما تولّى الإمبراطور «مين شي تسونغ» (تيانكي)؛ كانت السلطة الفعلية في يدِ مخصي قصره «وي تشونغ شيان»(446) ، الذي سجّل التاريخ الصيني أنه كان فاسدًا متلاعبًا مُرتشيًا؛ فقد استطاع بحيله الشيطانية إغواء الوزراء جميعهم للسعي وراء الرشوة والبذخ والفساد، في نفس الوقت الذي أطلق فيه عيونه على الموظفين، وعلى مراقبة أحوال الناس من أجل استعبادهم؛ وضمان كبت مشاعرهم، ومن أحكامه القاسية على المتمردين: السلخ، وقطع اللسان(447)

السيدة «كي»؛ ممرضة الإمبراطور كانت أيضًا شريكة مؤسِّسة في فساد وي، سعت إلى الاحتفاظ بالسلطة عن طريق إزالة جميع النساء الأخريات من حريم الإمبراطور؛ عن طريق حبس المحظيات وتجويعهن حتى الموت، وبتحالفهما القوي؛ سيطرا على بلاط مينغ الإمبراطوري، وكان الإمبراطور مجرّد دُمْية يتحكمون فيها(448) .

من ناحية أخرى، تمكَّنت طبقة مُلّاك الأراضي من مصادرة ونهب مساحات كبيرة من حقول الفلاحين، بفضل رشوتهم لـ«وي»، ويُذكَر أن ٩٠ ٪ من العوائل فقدت أراضيها على امتداد بحيرة تايهو جنوب الصين، فسادت الإقطاعية مرة أخرى بشكل بارز؛ واضطر غالبية الفلاحين إلى استئجار الأراضي مقابل إيجارات باهظة، كما أكملت الحكومة عليهم وضاعفت الضرائب الفادحة(449)، وقد عجّلت كل هذه الأسباب انهيار الحكم.

الانهيار ونهاية الحكم

بسبب التضخم؛ عانت الأموال الورقية من التضخم المُفرط المتكرِّر ولم تعُد موثوقة، وارتفعت قيمة الفضة بسرعة بسبب انقطاع إمدادات الفضة المستوردة من المصادر الإسبانية والبرتغالية، وأصبح من المستحيل على المزارعين الصينيين دفع ضرائبهم(450) .

ولأن المصائب لم تأت فُرادَى؛ تجدَّدت الكوارث الطبيعة مجددًا في أواخر أسرة مينغ، وخربت منطقة شنشي، لدرجة أن أهلها أكلوا أوراق الشجر والعشب، ومساحيق الصخور البيضاء، وبدلًا من أن تُرسل الإمبراطورية لرعاياها المدَّ لصد هذا الخراب، طالبتهم الحكومة بدفع الإيجارات المُستحقة، وغضت الطرف عما لحق بهم، وقادتهم للتعذيب والجلد، في وقت أصبحت فيه المجاعات شائعة في شمال الصين بسبب الطقس الجاف والبارد بشكل لم يسبق له مثيل، فيما يُعرف لاحقًا باسم «العصر الجليدي الصغير»، وأحدثت المجاعات وزيادة الضرائب -دون مبرر- تفاقمًا واضحًا، في وقت كانت فيه السلطة عاجزة بسبب الهروب من الجيش على نطاق واسع،

وتدهور نظام الإغاثة، والكوارث الطبيعية مثل الفيضانات، وعدم قدرة الحكومة على إدارة مشاريع الري والسيطرة على الفيضانات بشكل صحيح، حتى تسبب كل ذلك في حصد الآلاف من الأرواح(451) .

في ظل هذه الكوارث، لم يكنْ بيدِ الكادحين والفلاحين؛ إلا الاستغاثة بأي نجدة تقدمها الحكومة، ومع عجز الحكومة المتعطشة أصلًا للموارد، لجئوا لعادات آبائهم في الانتفاض بعدما ضاق بهم الأمر ذرعًا، فنهضوا في محافظة تشنغتشنغ؛ وأعلنوا تمردهم في عام ١٦٢٧ م، وخلال عام من المقاومة والتعذيب انضم إليهم باقي المناكيد في كل أنحاء شنشي، وانطلقت الانتفاضة من شنشي إلى شرق مقاطعة قانسو رويدًا رويدًا، حاملةً السلاح بقيادة الزعماء: «لي تسي تشنغ»، و«قاو ينغ شيانغ»، و«تشانغ شيان تشونغ»(452).

ثورة الفلاحين بقيادة: لي ـ قاو ـ تشانغ

كان «لي تسي تشنغ» فلاحًا متمردًا تم القبض عليه في عام ١٦٣٤ م؛ ثم تم إطلاق سراحه بعد اتفاق اشترط عودته إلى الخدمة، سرعان ما انهار الاتفاق بسبب قيام قاضٍ محلي بإعدام ستة وثلاثين من زملائه المتمردين، ردًّا على ذلك قام «لي» بحشد قوات متمردة؛ وتمكن من قتل المسئولين عن هذه المذبحة، واستمر في تجميع الثائرين لتكوين جيش التمرد (453) ، لم تتزعج إمبراطورية مينغ من هذا الحدث؛ على قدر انزعاجها من حلول ضيفٍ ثقيل، إنه «الطاعون العظيم»، الذي زارهم في الفترة من ١٦٣٣ إلى ١٦٤٤ م(454) .

برغم انتشار الطاعون لم تتوقف الانتفاضات، فمن ناحية أخرى، تمكّن «قاو ينغ شيانغ» من تجميع قوة متمرِّدة أخرى أكبر، وصلت إلى مقاطعات خنان، هوبي، سيتشوان، شنشي، فقدمت إليهم قوات إمبراطورية مينغ مدجَّجة بالسلاح؛ وضرَبت عليهم حصارًا في الصين الوسطى منعهم من التقدُّم أكثر من ذلك، حينها اقترح «لي تسي تشنغ» ضم القوتين، واتحاد كل فئات القوات لمجابهة العدو في الشمال والجنوب والغرب، بينما تتسلَّل قوات النخبة سرًّا ناحية الشرق؛ بعد اكتشافه أنها النقطة الضعيفة لجيش العدو، وبالفعل تمكَّنت القوات المتمردة من اختراق الخط الشرقي للعدو، وتوجَّهت للاستيلاء على محافظة فنغيانغ بمقاطعة آنهوي؛ التي كانت مسقط رأس أباطرة مينغ؛ وهدَمت أضرحتهم هناك، وعلى طول ٥٠٠ كم هاجمتهم قوات الإمبراطورية، حتى تمكَّنت من أسر وقتل الثائر «قاو سنغ شيانغ» في عام ١٦٣٦ م(455).

أصبح الفلاح الثائر «لي تسي تشنغ» صاحب خُطة المراوغة القائد الأُحادي، وتم تلقيبه بالقائد المِغوار، وبعد فترة انقسمت قوات الانتفاضة إلى قسمين: قسم بقيادة «لي» نفسه يتجه إلى مقاطعات شنشي وقانسو وسيتشوان وهوبي وخنان، وقسم تحت قيادة: «تشانغ شيان تشونغ»؛ يتجه إلى مقاطعات هوبي وسيتشوان وما حولهما.

القسم الأول بقيادة «لي تسي تشنغ» عندما وصل إلى مقاطعة خنان في عام ١٦٤٠ م؛ تصادف

مع دخوله نزول الكوارث من قحط وجراد بمنطقة الصين الوسطى، وبرغم هذا الهلاك أبقت حكومة مينغ قوانينها، وطالبت بالضرائب دون تقدير ما حدث، بل وزادت ضرائب جديدة تحت مسمى «ضريبة إبادة اللصوص»، وضريبة «التدريب العسكري»، فاستغلت قوات الانتفاضة هذا التعسُّف، وطالبت بإلغاء الملكية الإقطاعية، وتوزيع الحقول بالتساوي على الناس، والإعفاء من الضرائب، فسمعت الناس هذه الشعارات في كل الأماكن المجاورة؛ وتمنّت دعم لي، وبدأت جماهير الفلاحين الصينيين وأصحاب المهن اليدوية الذين كانوا يتضورون جوعًا؛ وغير القادرين على دفع ضرائبهم؛ في الولوج ألوفًا في جيش الانتفاضة، ولم يعودوا خائفين من الجيش الصيني الهش والمهزوم بشكل متكرر، حتى وصل المجموع النهائي للمُعبأين أكثر من مليون شخص؛ تمكَّنوا في النهاية من الاستيلاء على مدينة لويانغ في عام ١٦٤١ م، وإعدام «تشو تشانغ شيون» ابن الإمبراطور، ثم قاموا بتوزيع الذهب والفضة والغلال على الفقراء(456).

انهار جيش مينغ الذي لم يتقاضَ رواتبه أو يتغذَّى بشكل طبيعي وسط هذه الصراعات، هُزم الجيش بعد أن وجد نفسه بين نيران ثورات الفلاحين الضخمة في المقاطعات، والتي ائتلفت جميعها تحت لواء الفلاح البسيط «لي تسي تشنغ»(457)، وبين غزاة قومية تُدعى «مانتشو» الصاعدة بقوة من الشمال والتي قرَّرت أن تكون طرفًا ثالثًا في الصراع(458).

قيام مانتشو

خلال عهد مينغ؛ كان هناك قومية تُدعى «مانتشو»؛ منبثقة من قبائل «نيوتشن» (لجورشن التي خرج منها المغول من قبل) بمنشوريا شمال شرقي الصين، مع الوقت توسعت إلى أحواض أنهار هيلونغ، وسونغهو، ومودان، وسيوفن، على حدود دائرة نورقان، وكان مجتمع مانتشو مجتمعًا عبوديًّا يعيش على مهارة أفراده في فن صهر المعادن؛ لا سيما الحديد، وكانت الصراعات الأهلية قد عصفت به؛ حتى تم توحيد القومية بعد محاولات دامت ٣٠ عامًا، على يد «نور هاتشي» في عام ١٥٨٣ م، الذي كان تابعًا لمينغ واعتبر نفسه رسميًّا؛ حارسًا لحدود مينغ وممثلًا محليًّا لقوة مينغ الإمبراطورية(459) .

بعد ما قام «نور هاتشي» بتوحيد عشائر الجورشن الأخرى لإنشاء هوية عرقية مانتشو جديدة؛ عرَض قيادة جيوشه لدعم جيوش مينغ ضد الغزوات اليابانية لكوريا والتي ذكرناها، لكن مسئولي مينغ رفضوا العرض، وتقديرًا للفتته الطيبة منحوه لقب جنرال «التنين النمر»، وبسبب ضعف سلطة مينغ في منشوريا في ذلك الوقت؛ عزز سلطته من خلال استمالة المناطق المحيطة أو احتلالها، وفي عام ١٦١٦ م أعلن نفسه خانًا وأسس «أسرة جين المتأخرة»؛ وأن مانتشو أصبحت «دولة جين المتاخرة»، وعاصمتها هاتوآلا(460) لتميزها عن أسرة جين السابقة التي حكمها أسلاف المغول.

جند «نور هاتشي» الشعب كله بحيث إذا وقعت الحرب خرج الجميع للقتال، وإذا بلغت

أوزارها عادوا للصيد والزراعة وورش الحديد، وجعل القيادة السياسية في يد مُلّاك العبيد، ثم في عام ١٦١٨ م تخلَّى علنًا عن سيادة مينغ وأعلن الحرب فعليًّا ضد مينغ، وشن جيشه هجمات على شرق لياونينغ؛ مكنته لاحقًا من الاستيلاء على مساحات شاسعة من الأراضي الواقعة في حوض نهر لياوخه، فقرّر نقل عاصمته إلى مدينة شنيانغ(461) .

عندما تولَّى ابنه «هوانغ تاي جي» الحكمَ؛ حوَّل اسم دولة جين إلى «دولة تشينغ العظمى»، وأطلق على نفسه اسم «تشينغ تاي تسونغ»، وسمى اسم قبائل نيويتشن باسم «مانتشو»، على اسم قوميته(462) ؛ وفي عهده تحول النظام من العبودية إلى الإقطاعية بشكل بارز؛ وانتشر نظام الرق الزراعي الإقطاعي، وبدعم من النبلاء تم تقوية الجيش، حتى شن تشينغ هجماته المكثفة وتمكن من الاستيلاء على أجزاء من منغوليا الداخلية، وشن هجمات قاسية على جنوب السور العظيم؛ ووجه ضربات قاسية لأسرة مينغ، كما غزا كوريا وأجبر سلالة جوسون أن تصبح أحد روافد تشينغ، وبعد فترة وجيزة؛ تخلَّى الكوريون عن ولائهم(463) .

رأت أسرة تشينغ عن كثَب ما يدور بين إمبراطورية مينغ المنهكة والفلاحين، وترقبت الفرصة للقضاء عليها من ناحية، ومن الناحية الأخرى تابعت تحركات الفلاحين المتمرِّدين الذين بدءوا للتوِّ في تأسيس سلطة فلاحية مستقلة.

تأسيس سلطة الفلاحين

مع العودة لثورة الفلاحين، سنجِدُ أن قسم الجيش الثاني بقيادة: «تشانغ شيان تشونغ»، الذي اتجه الى مقاطعات هوبي وسيتشوان وما حولهما، وصل مسرعًا إلى المجرى الأوسط لنهر يانغتسي، وبعد الانتصار استقر بقواته في مدينة تشنغدو بمقاطعة سيتشوان؛ وتمكن من تأسيس سلطة حاكمة هناك، وسماها «دولة الغرب الكبير».

القسم الأول الذي قاده: «لي تسي تشنغ» تمكَّن هو كذلك من تأسيس سلطة فلاحية في مدينة شيانغيانغ بمقاطعة هوبي عام ١٦٤٣ م، وتم تلقيبه باسم «ملك شنشون»، وبعد التنصيب؛ قرَّر التوجُّه إلى منطقة شنشي الوسطى كمحطة أولى ومنها الانطلاق لإسقاط العاصمة بكين، وبالفعل بعد الاشتباك مع قوات مينغ شبه المهزومة؛ سيطرت قواته على شنشي الوسطى وقانسو ونينغشيا(464).

مع بداية العام التالي تمكَّن من السيطرة على العاصمة الغربية شيجينغ، وأقام فيها دولة تحت اسم «دولة داشون»، بعدها تقدم جيشي الانتفاضة بعد الاندماج تحت قيادة «لي تسي تشنغ»؛ و«ليو تسونغ» من شيآن إلى بكين، ووصل إلى تاي يوان بمقاطعة شانشي، وفي طريقه استقطب جيش الانتفاضة العامة بسبب معاملته الحسنة، وتوزيعه الخيرات على الفقراء، فأقبل الناس على مطاردة الموظفين الفاسدين، وتسعرت نيران النضال المسلح، حتى تمكنت القوات الفلاحية من ضرب حصار محكم على العاصمة بكين، وفتح حلفاء المتمردين أبواب المدينة من الداخل، فتسللت

القوة الفلاحية للداخل؛ وهرب الحراس، وتَبِعهم الإمبراطور الأخير لمينغ «چونگ ژن» (تشونغ تشن)؛ الذي اختبأ خلف القصور، حتى أقدم على الانتحار بشنق نفسه على شجرة كانت موجودة بتلةِ ميشان(465) ؛ برُفْقة خادمه المخصي؛ خارج المدينة المحرمة(466) .

دخلت قوات الانتفاضة إلى المدينة المُحرَّمة، ومنها إلى كل الأركان، واستقبلهم سكان بكين بالترحيب والاحتفال، واجتمعوا حول سلطة الفلاحين، ومن الوهلة الأولى تمت مطاردة النبلاء ومُلّاك الأراضي، وتم إجبار معظمهم على إعادة الإتاوات والممتلكات التي اقترفوها، أما القلة القليلة منهم فبادرت بالمقاومة، وبسبب النجاح الساحق لجيش الفلاحين؛ ظهر فيهم التراخي بعد أن أصابتهم نشوة الفوز(467).

سقوط سلطة الفلاحين

في الشمال الشرقي كان هناك قلعة مهمّة تُسمى «قلعة شانهايقوان»، ما زال يُرابط فيها قوات من جيش الإمبراطورية مينغ إلى هذه اللحظة، تحت قيادة الجنرال «وو سان قوي»، وقتها هاجمها جيش «أسرة تشينغ» طرف الصراع الثالث، وأجبر القائد وو على الاستسلام، وبعد أن وزن القائد وو خياراته في التحالف، قرَّر الوقوف إلى جانب المانتشو، ورأى أن ذلك هو الأكثر فائدة له واعتقد أن تشينغ لن تُسقط سلطة مينغ(468) .

أمر قائد الفلاحين وملك دولة داشون الجديدة «لي تسي تشنغ» قواته بالسير نحو الشرق من أجل القضاء على القوة المرابطة في القلعة، وأثناء اشتباكه مع وو؛ باغتته قوات أسرة تشينغ، (بتواطؤ واضح من وو)؛ وانهزم جيش الفلاحين، وأدت تداعيات الهزيمة إلى فِرار جيش «لي تسي تشنغ» من العاصمة في الرابع من يونيو، بعدما فتح الجنرال «وو سان قوي» بوابات معبر شانهاي في القسم الشرقي من السور العظيم أمام ألوية سلالة تشينغ متعددة الإثنيات؛ على أمل استخدامها لإبادة قوات شون الفلاحية، لكنه تفاجأ بمخالفة الوعد؛ وسيطرة تشينغ على الطرفين معًا(469).

برغم خروج قوات الفلاحين من العاصمة؛ زحف وراءهم جيش أسرة تشينغ التي أسسها «تشينغ تاي تسونغ» (الذي قد مات وقتها وتسلم ابنه صاحب السنوات الخمس وأوصيائه)، ومع انضمام نبلاء وفلول مينغ وقوميات هان ومانتشو؛ تعددت الأحزاب لملاحقة جيش الفلاحين، لكن رد عليهم «لي تسي تشنغ» بضربات دفاعية قوية، فاضطرت قوات تشينغ البحث عن حلٍّ مراوغ، فوضَعت بعدها خطة على أساس المعلومات الاستخبارية التي أمده بها قادة مينغ (أمثال وو)، وتمكنت من مداهمة معقل الفلاحين المرابطين بشنشي في عام ١٦٤٥ م؛ ثم طاردوهم حتى هوبي، واستطاعت قوات أسرة تشينغ قتل زعيم الفلاحين «لي تسي تشنغ» في صيف عام ١٦٤٥ م؛ على سفح جبل جيوقونغ، أثناء استكشاف المنطقة بصحبة ٢٠ فارسًا فقط، لينتهي عهد أسرة شون، والجدير بالذكر، أن هناك تضاربات واضحة تجاه موته، حيث يقول أحد التقارير إن وفاته كانت

انتحارًا، بينما تقارير أخرى قالت إنه تعرض للضرب حتى الموت على يد الفلاحين بعد أن تم القبض عليه وهو يسرق طعامهم(470) .

نُصب)تَذكاري)لزعيم)ثورة)الفلاحين:)«لي)تسي)تشنغ»،)على)جبل)بانلونغ)شمال)مقاطعة)ميزهي.

بعد القضاء على ملك داشون؛ تمكنت قوات تشينغ من مداهمة جيش «تشانغ شيان تشونغ» (قائد القسم الثاني لجيش الفلاحين) في مقاطعة سيتشوان؛ والقضاء على «دولة الغرب الكبير»، وبرغم ذلك لم تنتهِ المقاومة، فقد استمر النضال لمدةٍ تصلُ إلى ٢٠ سنةً، تحت قيادة «لي دنغ قوه»، و«لي لاي هنغ»(471).

وفي ظل هذه الأوضاع المُزرية حلّ ضيوفٌ جُدد ليسوا كسابقيهم؛ حلّت نيران الاستعمار الإمبريالي الأوروبي.

نيران الاستعمار

خلال هذه الأحداث الدموية وصَلت مخالب الإمبريالية التوسعية الأوروبية إلى الصين؛ ضمن التغييرات السياسية والأيديولوجية التي طرأت على القارة الأوروبية آنذاك، حينما تسارع حكامها وملوكها وأباطرتها على خوض سباق الاستكشاف من أجل الاستعمار مقابل الإمبريالية، وتوسيع نطاق حكمهم للشعوب والدول الأخرى، من أجل زيادة فرص الوصول السياسي والاقتصادي، وزيادة الثروة والسلطة والسيطرة من لدن القوى الحاكمة والنبلاء في أوروبا، وقد بدأت المناوشات قبل ذلك بقليل، لكنها بلَغت أشدها في هذا التوقيت(472).

تُعتبر أول محاولة استعمارية طرأت على الكيان الصيني، هي قدوم الاستعمار البرتغالي الذي تمكن من احتلال مصب نهر اللؤلؤ بمقاطعة قوانغدونغ في عام ١٥٥٣ م.

كانت المرة الثانية من نصيب الاستعمار الهولندي؛ الذي تمكّن من احتلال امتداد السواحل الجنوبية الغربية لجزيرة تايوان.

تَلَتْهم مرة ثالثة؛ عندما قدم الاستعمار الإسباني واحتل جيلونغ ودانشيوي شمال تايوان عام ١٦٢٦ م، حينها شهدت أرض تايوان حرب هولندية إسبانية من أجل الظفر بها؛ فانتصرت هولندا وأخضعت الجزيرة بأكملها، ويسجل التاريخ الصيني مآسي أهل تايوان تحتَ نيران الاستعمار

الهولندي، الذي فرض الإتاوات والضرائب، وساق أهلها كعبيدٍ، وكيف خاض أبناء الجزيرة نيران المقاومة والنضال.

في ساحل جنوب شرق الصين كانت ترابط قوة مناضلة بقيادة «تشنغ تشنغ قونغ»، من أجل مقاومة «أسرة تشينغ»، والذي تمكّن بالفعل من تحقيق الانتصارات الواضحة، فاستدعته قوته لمجابهة الاستعمار الهولندي، فانطلق على رأس ٣٥٠ سفينةً حربية، على متنهم ٢٥ ألفًا من الجند، وعبَر مضيق تايوان ونزل بساحل تايوان الغربي، وتمكّن من تحرير تايوان من العدو الغربي في عام ١٦٦٢ م، بعد احتلال دام ٣٨ عامًا.

بعد تحريره لتايوان، سعى «تشنغ تشنغ قونغ» لفرض النظام فيها، وأنشأ المحافظات والولايات والهيئات، وحثَّ الناس على الزراعة والتشييد، وجلب إليهم المرشدين الزراعيين، وشجع الصينيين على الهجرة إليها، وأنشأ فيها مدارس للأطفال(473).

أما عن روسيا القيصرية؛ فكانت في بادئ الأمر تُتابع في هدوء ثورة الفلاحين، وما تلاها من دخول أسرة تشينغ المشهد، فقرّرت اغتنام فرصة انشغال أطراف الصراع الثلاثة بقتالهم الداخلي؛ واجتاز جيشها جبال الأورال، ثم احتل مساحات شاسعة من سيبيريا، بزعامة القائد الروسي «تلبوتين»(474)، واستمر وجودهم قائمًا طوال هذه الأحداث.

القضاء على مينغ الجنوبية

بعد قضاء أسرة تشينغ على دولتي الفلاحين (داشون، والغرب الكبير)؛ استمرت في قمع ثورات الفلاحين طيلة ٢٠ سنة، حتى إن فلول أسرة مينغ المُحلة نفسها كانوا طرفًا من أطراف الصراع وظلوا يقاومون أيضًا، وكانت نانجينغ وفوجيان وقوانغدونغ وشانشي ويوننان جميعهم معاقل لمقاومة مينغ، وظهر فيما بعد العديد من المطالبين بعرش مينغ؛ فيما يُعرف بمينغ الجنوبية أو «مينغ العظمى»، التي تكونت على يدِ مجموعة من بقايا الدول الموالية لأسرة مينغ؛ وحكمتها عشيرة تشو في جنوب الصين عقب انهيار سلالة مينغ الحاكمة؛ وفرار مؤيدو سلالة مينغ إلى نانجينغ، وقامت إمبراطورية نظام نانجينغ حتى عام ١٦٤٥ م، سيطرت على المشهد بعد ذلك مجموعة متلاحقة من المدعين في عدة مدن صينية جنوبية، وأصبح لكل مدينة إمبراطور، حتى تدخلت أسرة تشينغ وهزمت كل معقلٍ على حدةٍ حتى عام ١٦٦٢ م؛ وانتهى الأمر بالقبض على آخر مُدَّعٍ للإمبراطورية من جنوب مينغ «تشو يولانغ» ومن ثَم تمّ نفيه إلى تونغو بورما، وإعدامه في نهاية في عام ١٦٦٢ م(475) ، ليطفوا على السطح أسرة تشينغ متعددة الجنسيات، التي تعتبر غير صينية النشأة، والتي أصبحت أكبر قوة قادرة على حُكم الصين كلِّه.

* * *

٤ ـ إمبراطورية متعددة القوميات

(ثاني أسرة غزو في تاريخ الصين)

بهذا الشكل ساهَمت الكوارث الطبيعية، وانتفاضات الفلاحين، مع وصول نيران الاستعمار، وكذلك نفوذ أسرة تشينغ، في إنهاء السلطة الفعلية لإمبراطورية مينغ نهائيًّا، أما هذا الوقت فبرغم كل التوترات؛ هو وقت تشينغ.

* * *

سلالة تشينغ الحاكمة

صورة للإمبراطور المؤسِّس «هونج تاي جي» رسمها رسام بلاط مجهول في عهد أسرة تشينغ - مُتحف القصر، بكين.

يعتبر «هونج تاي جي» الخان الثاني وخليفة الخان «نورهاسي»؛ هو الإمبراطور الأول والمؤسِّس لأسرة تشينغ بعد حصوله على لقب «تشينغ تاي تسونغ»، وبعد توحيده شعب مانتشو، ثم تحويل اسم الدولة من «جين» إلى «تشينغ العظمى» في عام ١٦٣٦م، وهو واضع الخُطط الأساسية لغزو أسرة مينغ؛ والطرف الأكبر في الوقائع الدامية في صفوف جيش الفلاحين، على الرغم من أنه توفِّي قبل تحقيق ذلك بشهور بسيطة، لكن بفضل خُططه التي وضعها قبل وفاته قُتل الزعيمان: «لي تسي تشنغ» و«تشانغ شيان تشونغ»؛ وتم القضاء على السلطات الفلاحية، وكذلك حُكام مينغ الجنوبية (فلول مينغ)، والعديد من الفصائل الأخرى مثل أسرة شون وأسرة شي اللتان أسَّسهما قادة ثورة الفلاحين.

تمت كل هذه الانتصارات في عهد خليفته الإمبراطور الصبي: «شون تشي» وأوصيائه «دوروجون» و«جيرجالانغ»؛ حيث تسلَّم ابنه الحكم وعمره خمس سنوات، وبما أن هذه الانتصارات الفِعْلية قد حدَثت في عام ١٦٤٤ م؛ فقد عدّ المؤرخون هذا التاريخ، (تاريخ عهد الصبي «شون تشي»)؛ كبدايةٍ فعلية لإمبراطورية تشينغ الموحدة، والتي فرضت سيادتها في هذا التوقيت؛ واستولت على العاصمة بكين؛ وصولًا إلى غالبية الأطراف الصينية، حيث ضاعفت تقريبًا الأراضي التي سيطر عليها مينغ، لتشرع في حكم الصين كله كقُطر موحَّد خاضع لسيادتهم، كثاني أُسرة غزو تحكم كامل أراضي الصين، بعد أن قدِمت من منشوريا؛ وطفَت على السطح في ظل صراعات عديدة؛ وعدد لا يُحصى من الكوارث الطبيعية في ذلك الوقت - كالتي سبَّبها العصر الجليدي الصغير، والأوبئة مثل الطاعون العظيم خلال العقد الأخير من سلالة مينغ - كل ذلك تسبَّب في خسائر فادحة في الأرواح وضررٍ كبيرٍ للاقتصاد، في المجمل، شَهِدت هذه العقود خسارة ما يصل إلى ٢٥ مليون شخصٍ(476) .

استمر قمع فلول مينغ وما تبقَّى من الفلاحين المتمرِّدين زهاء ٢٠ سنة، حيث أدت المقاومة من جانب الموالين لمينغ في الجنوب وثورة الإقطاعيين الثلاثة إلى تأخير الغزو الكامل حتى عام ١٦٨٣ م؛ وتحديدًا في عهد الإمبراطور الثالث في أسرة تشينغ، والثاني في حكم الصين «كانغ تشي» (شينغزو من تشينغ)، الذي انتصر على كل هؤلاء؛ إلى جانب إجباره مملكة تونغنينغ في تايوان، والمتمردين المغول المتنوعين في الشمال والشمال الغربي على الخضوع لحكم تشينغ؛ لذلك يعتبره المؤرخون أحد أعظم أباطرة الصين(477) .

في تايوان كما ذكَرنا؛ قامت مملكة تونغنينغ هناك، بعد أن حرَّرها «تشنغ تشنغ قونغ» من الاستعمار، وبعد أن فرض النظام فيها؛ وطوَّر فيها الصناعة والزراعة والتعليم؛ وأنشأ المحافظات والولايات والهيئات، لكن حلمه لم يستمر أكثر من ١٩ عامًا، حيث قدمت قوات «كانغ تشي»، وفرضت سيطرتها على الجزيرة بعد معارك طاحنة في عام ١٦٨٣ م، وخلال عام كانت قد أنشأت تشينغ ولاية فيها، وجعلتها تابعة لمقاطعة فوجيان، ليتم ضم تايوان والجُزر التابعة إلى عموم

الصين مجددًا.

نشر كانغ ملامح قوة تشينغ، وحافظ على هوية المانشو، واستمتع بدور الحاكم الكونفوشيوسي، ورعى البوذية (بما في ذلك البوذية التبتية)، وعلى نفس نهجه؛ جمع أباطرة المانتشو الأوائل بين تقاليد حكم آسيا الداخلية والأعراف الكونفوشيوسية للحكومة الصينية التقليدية، ومن يومها اعتبر هو وخلفاؤه أنهم سلالة صينية، وكسابقيه اعتمد على سلالة هان، وعمل مسئولو الهان تحت أو بالتوازي مع مسئولي المانتشو، وقد تمكَّن كانغ من تكييف مُثُل نظام الرافد في تأكيد التفوق على الدول الطرفية مثل كوريا وفيتنام، وتمكَّن من بسط سيطرته على التبت ومنغوليا وشينجيانغ(478) .

أما عن الغزو الروسي، فمع وصول عام ١٦٤٣ م؛ تمكن الجيش القيصري من تجاوز منطقة ما وراء جبل شينغآن، وباحتلالها ياكسا ومجاورها؛ تمكَّنت روسيا من تكوين قاعدة لشن الهجمات، وقد تمكَّنت بعدَ ذلك مِن تحقيق توسعات أكثر نحو شرق جزيرة بيكال؛ حيث احتلت بيبوتشو وغيرها(ه) .

اتفاقية نيبو تشو لوقف المستعمر الروسي

يذكر التاريخ الصيني أن الاستعمار الروسي لم يكن أقل ضراوة من الهولندي والإسباني على تايوان؛ وورد ما فعله المستعمرون الروس من أعمال سلْبٍ وحرق يصعب تخيلهما، فاتحد السكان والأقليات القومية في وادي نهر هيلونغ؛ وتشاركوا مع جيش تشينغ؛ من أجل النضال المسلح لدحر الغزاة، وبعثت تشينغ رسائلها من أجل التفاوض مع الروس أكثر من مرة، بغرض الانسحاب والاتفاق على ترسيم الحدود بين الطرفين حقنًا للدماء، فرفضت روسيا القيصرية ذلك(479).

قرَّر الإمبراطور «كانغ تشي» عند تولِّيه السلطة في عام ١٦٦٢ م؛ حَشْد الجيش وتعبئته من أجل صد غزو الروس، ووجه أوامره إلى القائد «بنغ تشون» لتولِّي مهمة الجيش لصد الغزاة وطردهم من ياكسا، فتكاتف الأهالي على ضفاف نهر هيلونغ من أجل بناء سور للمدينة وصناعة السفن؛ وتزويد الجيش بالمؤن اللازمة، وقاموا بعمليات عميقةٍ داخل خط العدو؛ من أجل اقتناص الأسرى والتجسُّس على أحوال الجيش الغازي، وقد مكّنت كل هذه التحضيرات جيش تشينغ من الزحف نحو ياكسا؛ وهدم الأسوار التي بناها العدو، فأعلن جيش روسيا الاستسلام وبدأ في الانسحاب، لكنها كانت مجرد مناورة ولم يكن انسحابًا حقيقيًّا، فبعدما أتم جيش تشينغ مهمته واستدار بظهره، عاد الجيش الروسي إلى ياكسا مجددًا في عام ١٦٨٥ م، وبناءً على ذلك عاد جيش تشينغ وتجدد الاشتباك(480).

حاصرت قوات تشينغ ياكسا وقطعت عنها الماء؛ ثم قذَفتها بالمدافع لأيام، واستغرق الحصار ما يقارب ستة أشهر، حتى تمكنت قذيفة من إسقاط القائد الروسي «تلبوتين»؛ وبموت القائد هُزمت القوات الروسية، ورضَخت روسيا لمطالب تشينغ بالتفاوض السِّلمي لترسيم الحدود الشرقية بين

البلدين في عام ١٦٨٩ م؛ فيما يُعرف بـ «اتفاقية نيبو تشو»، واستعادت الصين أجزاءً كبيرةً من أراضيها، مقابل تنازلها عن المنطقة الواقعة شرق بحيرة بيكال؛ والتي كانت تابعة للصين قبل ذلك(481).

إصلاحات كانغ تشي

كان الصراع طوال العقود الماضية مع بقايا جيش الفلاحين، ومع فلول مينغ ولاحقًا الاستعمار، قد أثَّر بالضرر على مجال الإنتاج وخاصة الزراعة بشكل ملحوظ، وبعد هذه السنوات أقبلت أسرة تشينغ على البحث في تدابير تُسهِم في محاولة إحياء الأراضي التي بارت، وفي عهد «كانغ تشي» (الذي دام لـ ٦١ عامًا)؛ تم إصدار قانون في عام ١٦٦٩ م خاص بتوزيع الأراضي المتَلَفة من أسرة مينغ التي حُلت؛ على الفلاحين الذين كانوا يعملون فيها، تحت اسم «قانون الحقول المتغيِّر أصحابها»، وفي عام حكمه الخمسين؛ أي في عام ١٧١١ م، أصدر قانونًا بإعفاء ضريبة جبى الرءوس، وبعدها بفترة أعلن طريقة إضافة الرءوس في الخَراج، بمعنى: توزيع نسبة ضريبة الرءوس في الخراج وجَبْي ضريبة موحدة للرءوس والخَراج، أي إن الضريبة أصبحت موحَّدة، وبالتالي تخلَّص الفلاح الفقير من ضريبة الرءوس؛ ودفع أصحاب الحقول الضريبة الموحَّدة حسب مساحة الأرض، وبهذه المعالجة لم يخفِ الفلاحون تَعداد أفراد أسرتهم كما كان الحال سابقًا، ولم يهرُب أحدهم من السُّخرة أو ضريبة الرءوس(482).

وبشكلٍ تدريجي تحسَّن الإنتاج الزراعي منذ أواسط حكم الإمبراطور الثالث «كانغ تشي»، حتى تمت زراعة ما يعادل ٤٠ ٪ من الأراضي البور، وبلغ عدد السكان ٣٦٠ مليون نسمة، وازدهرت زراعات الأرز والبطاطا الحلوة والتبغ بشكل ملحوظٍ.

أما صناعيًّا: ففي بداية عهد سلالة تشينغ كان يتوجَّب على الصُّناع دفع ضريبة عضوية «دائرة الصناعة»، وقد أثَّر ذلك على هروب الصُّناع وأصحاب الحرف اليدوية، حتى بادرت الحكومة بإلغاء نظام العضوية الصناعية، فاستغل الصُّناع والحرفيون إلغاء الضريبة؛ وتسارعوا نحو الإنتاج، وتطوَّرت صناعة الحرير بشكل بارز، وتوسَّعت الأعمال الخزفية، كما تطوَّرت صناعة صهر المعادن(483).

خيارات الدمج أو الإبادة

من الوهلة الأولى حاولت «أسرة تشينغ» توحيد القوميات التي بلغ عددها ٥٠ قومية تحتَ حكمها الأوحد، وقد قابَلها صعوبات عديدة، على سبيل المثال، كانت قومية المغول في ذلك الوقت قد انقسمت إلى ثلاثة فروع: «مغول مونان، ومغول موبي، ومغول موشي»، والفروع الثلاثة خضعوا لجيش تشينغ قبل دخوله لقلعة شانهاي، وقد انبثق من مغول موشي قبيلة تُدعَى: «زونغاريه»، التي عاشت في حوض نهر إيلي، واقتاتت على رعي الماشية، وما إن بلغت قوتها؛ حتى ضم الزعيم «جالدان» أبناء عمومته من مغول موشي تحتَ إمرة حُكمه الموحَّد، وأصبح

نفوذهم يصل إلى جنوب جبال تيانشان مع حلول عام ١٦٧٧ م؛ فابتعث مرسالًا لإمبراطور تشينغ «كانغ تشي»، يُخبره أن الجنوب لك أيها الإمبراطور، أمّا الشمال فليس لك سُلطة عليه فهو لي، كما تحالف مع المستعمر الروسي من أجل مهاجمة مغول موبي في عام ١٦٩٠ م، أي بعد التوقيع على اتفاقية نيبو تشو ١٦٨٩ م، فقاد الإمبراطور «كانغ تشي» بنفسه جيشًا للزحف من أجل مقابلته، ودارت رحى الحرب بـ «بوتونغ»(و) ، وتمكَّن من رجّ صفوفه بهزيمة مدوِّية، لكن تمكن «جالدان» من الهرب ومعه طائفة كبيرة من جنوده؛ ونضد صفوفه من جديد، وعاد للمواجهة في عام ١٦٩٥ م؛ وانطلق بجنوده إلى شرق نهر كادولون، على إثر ذلك انطلق الإمبراطور مجددًا لمواجهته في عام ١٦٩٦ م؛ وألحق به هزيمة ثانية في جنوب شرق أورغا(ز) ، وعندما هرب من المعركة؛ أجهز عليه أبناء قوميات الويغور والقازاق في شينجبانغ؛ وكذلك مغول تشينغهاي، حينها شعَر أنّ الكل يُلاحقه، فانتحر بالسم(484).

وفور القضاء على «جالدان وقواته»؛ دخَلت قوات تشينغ إلى شرق جبال آلتاي؛ وأحكمت السيطرة عليها، وعيَّنت موظفين ومديرين من نبلائهم على أن يكون ولاؤهم للإمبراطورية، ثم تمَّ تعيين قائد الجيش «أولياسو تاي» حاكمًا لأربع مناطق من خالكا كبودو؛ وتانو أولياتغهاي، اللتين سيطلق عليهما «منغوليا الخارجية» مع نهاية هذه الأسرة.

وفي عهد الإمبراطور «تشيان لونغ»؛ تجدَّد تمرُّد محدود لقبيلة زونغاريه عام ١٧٥٥ م؛ بقيادة النبيل «آمورسانا» المدعوم من روسيا القيصرية، فقضت قوات الإمبراطورية على هذا التمرد في عام ١٧٥٨ م، وبالقضاء عليه انزَجَرت مخططات روسيا القيصرية للإغارة على الشمال أو نشر الفوضى فيه(485).

التحدِّي الثاني من حيث الصعوبة: هو محاولة إخضاع «قومية الويغور» المسلمة الساكنة في الطريق الجنوبي بجبال تيانشان؛ التي أشعلت التمرد فور الانتهاء من تمرد زونغريه، فوصلها جيش تشينغ في عام ١٧٥٨ م وقمع التمرُّد، فعملت الحكومة على توحيد منطقة شينجيانغ، وقامت بتعيين حاكم على إيلي في عام ١٧٦٢ م؛ بغرض السيطرة على جنوب وشمال جبل تيانشان؛ حتى تمَّ التحكُّم التَّام في شمال غربي الصين، ثم تجدَّد التمرد مجددًا في عشرينيات القرن التاسع عشر، عندما تدخّلت بريطانيا التي كانت مستعمرة لأفغانستان ومدّت يدَ المساعدة للويغور؛ وأمدتهم بالسلاح، لكن المحاولة باءت بالفشل بعد انتصار جيش تشينغ في عام ١٨٢٨ م.

وبشكل آخر، قبل هذه التمردات تمَّت السيطرة على التبت، وإخضاعها للحكومة المركزية بشكل سِلْمي، بعد ما فلحت مبادرة الإمبراطور « شون تشي» في أوائل عهد أسرة تشينغ؛ من التوافق مع زعيم دين لاما بالتبت «الدالاي لاما الخامس»، وإقناعه باحترامه الحقوق الدينية، وفي عام ١٧٢٧ م عينت تشينغ وزيرًا تابعًا للإمبراطورية مقيمًا في لاسا، ثم تطوّر الأمر في عام ١٦٩٣ م؛ عندما صدَر قرار بمشاركة زعماء التبت في قيادة شئونها(486).

تُعتبر كل محاولات الدمج هذه مِن أهم الأحداث التي وقعت في عصر أسرة تشينغ، فبعد

محاولات الدمج التي قامت بها تشينغ؛ بخلاف الأرض أو المساحة؛ أصبحت الصين إمبراطورية موحدة ومتعددة القوميات، تضم أكثر من ٥٠ قوميةً، أسهم جميعهم في تَسطِير الأحداث السياسية في القُطر كله، وتميزت كل قومية منهم في مجالات مختلفة عن الأخرى، ثم أدى الاتصال بينهما لاحقًا إلى الاندماج الصناعي والزراعي والثقافي، وقدَّمت كلٌّ واحدة منهم إرثًا حضاريًّا مميزًا على أرض الصين(487).

لكن برغم كل هذا التأثير الإيجابي؛ لم ينسَ التاريخ عدد بحور الدم التي سالت في سبيل الدمج بالقوة، وكمَّ الإبادات التي قيمت في سبيل هذا الدمج.

تم الوصول إلى ذروة قوة تشينغ في عهد الإمبراطور الرابع لتشينغ على الصين؛ «تشيان لونغ» (حكم ١٧٣٥-١٧٩٦)، الذي قاد عشر حملات عظيمة وسعت سيطرة تشينغ إلى آسيا الداخلية؛ وأشرف شخصيًّا على المشاريع الثقافية الكونفوشيوسية، وبسبب هذه الحملات، تم دمج خانات دزونغار وأُعيدت تسميتها إلى شينجيانغ، بينما في الغرب؛ تمَّ غزو إيلي وتحصينها، وقد تسبَّب دمج شينجيانغ لإمبراطورية تشينغ في الهزيمة النهائية وتدمير الدزونغار (أو الزونغهار) (ح).

يُذكر أن الإمبراطور «تشيان لونغ» أمَر بالإبادة الجماعية في دزونغار؛ فوفقًا للباحث في شئون أسرة تشينغ: «وي يوان»؛ قُتل ٤٠٪ من الزونغهار البالغ عددهم ٦٠٠ ألف بسبب الجُدَري، وفرّ ٢٠٪ إلى الإمبراطورية الروسية أو القبائل الكازاخستانية، وقُتل ٣٠٪ على يدِ جيش تشينغ(488)، وذكر باحثون آخرون بأنه «تدمير كامل ليس فقط لدولة زونغهار، بل لشعب زونغهار»، جادل المؤرخ «بيتر بيردو» بأن هلاك الدزونغار كان نتيجة لسياسة المذبحة الصريحة التي أطلقها الإمبراطور تشيان لونغ(489) .

قارن المؤرخون الإبادة الجماعية في دزونغار بإبادة تشينغ لشعب جينتشوان التبتي في عام ١٧٧٦ م، والتي حدثت أيضًا في عهد الإمبراطور تشيان لونغ(490) .

هذه مجرد أمثلة، والمُلخَّص أن حمَلات تشيان لونغ لبسط السيطرة وإخضاع الجميع حصدت مئات الأرواح في إبادات جماعية مباشرة، فقد سبق هذه الحملات الخارجية؛ حملات داخلية على المعارضين والمتمردين؛ كإبادة المشاركين في أعمال شغب لاسا عام ١٩٥٠ م، الذين تم تقطيعهم إربًا حتى الموت، على غِرار ما حدث مع المتمردين التبتيين في ١ نوفمبر ١٧٢٨م؛ في عهد والده الإمبراطور «يونغ تشنغ»، عندما تم تقطيع ستة من قادة المتمردين التبتيين بالإضافة إلى زعيم المتمردين التبتيين «بلو-بزان-بكرا-سيس» حتى الموت، وتم خنق بقية قادة المتمردين التبتيين وقطع رءوسهم؛ وعرضها على الجمهور التبتي مغروسة على أعالي أعمدة(491) .

بهذه الأعمال تبنى الإمبراطور الرابع «تشيان لونغ»؛ سياسةَ والِده «يونغ تشنغ» في فرض السيطرة والنفوذ بقوة القَتْل، حتى أتم تشيان فرضَ النفوذ التام، وخلال هذه الفترة؛ وصَلت أسرة تشينغ من خلال فتوحاتها العسكرية إلى نطاق إقليمي لم يسبقْ له مثيلا في تاريخ الصين، حتى

عُدت تاريخًا من الإمبراطوريات العظمى القديمة.

الإقطاعية في محاربة الرأسمالية

تسبب النهوض الزراعي والصناعي في تطوير التجارة بشكلٍ تدريجي، وظهرت ملامح الرأسمالية في جنوب نهر يانغتسي وفي قوانغدونغ؛ وزادت المعامل بشكل تدريجي، وظهرت لأول مرة معامل ضخمة للأنسجة الحريرية بنانكين، التي استثمر الأغنياء أموالهم فيها؛ وأعطوا العامل أجره على كدِّ عمله، وامتلك العديد من تجار الأنسجة الحريرية في مدينة سوتشو ثروات هائلة من الأموال والمواد الخام، وتوسّعت تلك المعامل وزادت فيها الأيدي العاملة من العوائل الصغيرة التي اكتسبت أجرها على حسب إنتاجها، فأصبح التجارُ وأصحاب المعامل رأسماليين(492).

من ناحية أخرى، اشترى هؤلاء الرأسماليون مساحات كبيرة من الأراضي بأموالهم الجمة، فاستغلوا الفلاحين فيها مجددًا، ولم تغطِّ أرباح الكادحين من الأعمال الحرفية تكلفة إيجارات الأراضي، بل كانوا في الكثير من الأوقات لا يجدون من يشتري منتجاتهم، فنفر الغالبية من العمل الحرفي الذي لا يُجدي نفعًا بالنسبة لهم، وبسبب هذا الخلل اضطرت حكومة تشينغ إلى الحدِّ من التجارة والاتجاه إلى الزراعة؛ وحظرت التجارة الخارجية للأفراد، وفرضت على منتجاتهم ضرائب باهظة، ووضعت يدها على الإنتاج الحرفي بشدة، وهذا يوضح وكأنها كانت تتشبث بالنظام الإقطاعي، مما عطل تقدم الرأسمالية الذي كان ناميًا ومؤهلًا للانطلاق المتصاعد(493).

انتصار الفساد الإقطاعي

بدا من الوضع أن إمبراطورية تشينغ أصبحت راغبة في تعزيز الحكم الديكتاتوري الإقطاعي ومحاربة الرأسمالية؛ كما فعَلت أسرة مينغ السابقة، حيث قلَّدتها في تأسيس مجلس وزراء لست وزارات، وجميع الوزارات والهيئات ورؤساء المقاطعات وغيرهم؛ خاضعون بخشوع لكلمة الإمبراطور وحده، وكان الجيش الذي قُسِّم لثمانية ألوية، أخذ تعاليمه الحازمة من أجل تكميم الأفواه واعتقال المعارضين، وقتل المثقفين والكُتّاب، وكان يؤخذ المتمرِّد وعائلته وأهل الدائرة المحيطة به، وشُنت عملية إرهاب ثقافي واسعة المدى، بغرض قمع مَن يتحدث بالسياسية أو يقرأ الكُتب القديمة التي تتعلق بالأمور السياسية(494).

بعد وفاة «تشيان لونغ»، واجهت الأسرة التدخلات الأجنبية، والثورات الداخلية، والنمو السكاني، والاضطراب الاقتصادي، والفساد الرسمي، وإحجام النُّخب الكونفوشيوسية عن تغيير عقلياتهم، وفي نفس الوقت ارتفع عدد السكان إلى ٤٠٠ مليون نسمة؛ لكن تم تثبيت الضرائب والإيرادات الحكومية عند معدَّل منخفض، الأمر الذي أدى سريعًا إلى أزمة مالية(495).

من ناحية أخرى، ركزت الحكومة على تعيين السفهاء في المناصب ما داموا ملتزمين الصمتَ والطاعةَ، فانتشرت الرِّشوة والفساد؛ وكذلك البَلَه والجهل في كل القطاعات، لدرجة أن «خه شن» الذي شغل منصب رئيس الوزراء لمدة عشرين سنة؛ بلغت ثروته من الرشوة ما يقدر بألف مليون

تايل(ط) من الفِضة، وهو ما يوازي ميزانية الحكومة نفسها في الوقت ذاته، أما باقي النبلاء والضباط والمسئولين؛ فأصبح في حوزتهم المساحات الشاسعة من الأراضي المنزرعة سلبًا ونهبًا، وقد ترتَّب على هذا الفساد: تجويع الفقراء، وإفلاس العائلات متوسِّطة الدخل، بالإضافة إلى انتشار الطبقية والاستغلال والاضطهاد(496).

النضال ضد الفساد

من ضمن الأقليات المضطهدة والمنهوبة؛ كانت «قومية مياو»، والتي كانت تعيش في مقاطعة قويتشو غرب مقاطعة هونان، وقد أذلّها نبلاء مانتشو (التابعين للسلالة الحاكمة) وقومية هان، بعد أن نهبوا منهم أراضيهم، فنزحوا للمناطق الجبلية العصيبة خلال معاناة كبيرة، فحثهم زعيمهم «شي ليو دنغ» على الثورة والانتفاض في محافظة تونغرن، مقاطعة قويتشو عام ١٧٩٥ م، وأرسل للجيران يحثهم على استعادة أراضيهم ومجابهة الظلم والاستغلال، فاستجابت له طائفة من غرب هونان؛ تحت قيادة «وو با يويه»، ثم أرسلت حكومة تشينغ قوات عسكرية من أجل قمعهم(497).

كانت الخطة الاستراتيجية للمتمردين تُشبه حرب العصابات، متى جاء العدو انسحبوا للكهوف والجبال، ومتى رحَل عادوا، ومع قُدوم قوات تشينغ اكتشفت أنها تُقاتل أشباحًا، فارتأت قوات الإمبراطورية أن لا حلَّ إلا زيادة القوات ومسح الجبال والكهوف، وقامت بتجميع جيش مضاعف، مكّنهم في النهاية من قَمع التمرد في عام ١٨٠٦ م(498).

ثورة اللوتس الأبيض

قبل القمع، كانت قد نَشبت انتفاضة فلاحية أخرى تلَتِ السابقة بعام، على امتداد مقاطعات هوبي وسيتشوان وشنشي في عام ١٧٩٦ م، لمجموعة من المتمردين الذين أفلسوا في أواخر عهد «تشيان لونغ»، ونشروا دينًا جديدًا يسمى «عقيدة اللوتس الأبيض»، وهو دين يمهِّد للقدوم الوشيك لبوذا المستقبلي، مايتريا(499)، وادّعوا أن من يتدين بهذا الدين سيحصل على نصيب كبير من الأراضي المزروعة حين نجاح الانتفاضة، فوفَد إليهم الآلاف من الفلاحين، وانضم إليهم المفلسون والمتشردون على الرغم من عدم إيمان الأكثرية بهذا الدين.

كان بين هؤلاء المُبشِّرين سيدة تُدعى «وانغ تسونغ ار»؛ كانت ماهرة في القتال ومتفوقة على الكثير من الفرسان الرجال، فتمّ انتخابها قائدًا عامًّا لقوات الانتفاضة، ومع دمج التمرُّد بين هوبي وشنشي وسيتشوان أصبح تعداد المتمردين أكثر من ١٠٠ ألف شخص، لكن بدورها قامت حكومة تشينغ بالاجتماع مع مُلّاك الأراضي من أجل إقامة قوات مسلحة محلية؛ تحمي القلاع المحيطة بالمدن والحقول، والبحث عن سبل قطع المعونات والإمدادات التي تنطلقُ من الداخل لتُموِّل قوى التمرد، ومع استمرار حشد القوات الحكومية من غالبية المقاطعات، تم سَحْق الانتفاضة بعد تسع سنوات من القتال، في عام ١٨٠٥ م(500).

وبرغم السيطرة على التمردات؛ دخَلت إمبراطورية تشينغ فترةً جديدةً من الذّل الذي لم يسبق له مثيلًا، إنها فترة القرن التاسع عشر الذي لم يكن قرنًا عاديًّا.

* * *

قرن الإذلال الصيني

دخل القرن التاسع عشر ومعه زَخَمٌ هائلٌ من الأحداث العصيبة التي اجتمعت ضد استقرار إمبراطورية تشينغ؛ لذلك هو قرن لم يسبق له مثيلًا في التاريخ الصيني.

حروب الأفيون

في ظل الرأسمالية التي فرضت نفسها على الصين بالقوة؛ أدّى الطلب على السلع الصينية الفاخرة (خاصة الحرير والخزف والشاي) في القرن الثامن عشر؛ إلى توتر العلاقات التجارية بين الصين وبريطانيا التي أصبح لها مستعمرات بجوار الصين؛ بسبب السيطرة الصينية التجارية الواضحة، وتدفّق الفضة الأوروبية إلى الصين التجارية، وقد رأت بريطانيا أن هذا ليس توازنًا عادلًا، ردًّا على ذلك؛ بدأت شركة الهند الشرقية البريطانية في زراعة الأفيون في البنغال وسمحت للتجار البريطانيين من القطاع الخاص ببيع الأفيون للمهربين الصينيين، ومن ثَم بيعه بشكلٍ غير قانوني في الصين؛ تسبَّب تدفُّق الأفيون إلى استنزاف الفائض التجاري الصيني، وانهيار اقتصاد الفضة، وزيادة أعداد مدمني الأفيون داخل البلاد، حيث أدمن غالبية الشعب الصيني مخدر الأفيون؛ مما أثار قلق المسئولين الصينيين بشدة.

وجد الإمبراطور «دواجوانج» نفسه في موقف إجباري في عام ١٨٣٩، وهو تقنين تجارة الأفيون وفرض ضريبة عليه؛ من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الوضع الكارثي، لكنه رفض ذلك بشدة، وأصدر أوامره بوقف تجارة الأفيون تمامًا، وأرسل رسالة إلى الملكة «فيكتوريا»، يناشد أخلاقها لوقف تجارة الأفيون، لكنها لم تقرأها من الأساس(501) .

بسبب التجاهل الواضح؛ لجأ إلى استخدام القوة والبحث عن معاقل التجار الغربيين، ووصلت قوة مدججة إلى قوانغتشو؛ وشَكّلت دفاعًا ساحليًّا، وفي غضون شهرين فقط؛ اضطر تجار الأفيون البريطانيون إلى تسليم ٢.٣٧ مليون رطلٍ من الأفيون، ثم قامت السلطات بإعدام الأفيون المضبوط علنًا لإرسال رسالة الى بريطانيا أن الحكومة لن تتراجع عن قرار الحَظْر(502) .

مع المزيد من الاضطرابات؛ قَتَل بحّارة بريطانيون رجلًا صينيًّا، طالبت الإمبراطورية الصينية بريطانيا بتسليم الجُناة، لكن برفض الحكومة البريطانية تسليمهم بدأت المناوشات بينهما، واندلع القتال في وقت لاحقٍ، على إثره دمرت البحرية البريطانية الحصار البحري الصيني، وشنّت هجومًا على السواحل الصينية، وبقوة البحرية والمدفعية المتفوقة وقَعت سلسلة من الهزائم الحاسمة بالإمبراطورية الصينية(503) .

تدمير)سفن)«الينك»)الحربية)الصينية)خلال)حرب)الأفيون)الأولى.

تحت العدوان البريطاني؛ تمّ إجبار أسرة تشينغ في عام ١٨٤٢ م على التوقيع على «معاهدة نانكينغ»، المعاهدة غير المتكافئة، فبرغم التطاول البريطاني؛ أُجبرت الصين على منح تعويضٍ وتجاوزٍ للحدود الإقليمية للرعايا البريطانيين في الصين، بل وفتحت خمسة موانئ معاهدة للتجار البريطانيين، وتنازلت عن جزيرة هونغ كونغ للإمبراطورية البريطانية، وكانت هذه الحادثة بداية سلسلة من الوقائع التي أدت إلى إضعاف نظام تشينغ(504) .

أدت أعمال العدوان المتكررة ضد الرعايا البريطانيين في عام ١٨٤٧م إلى أعمال عدائية من قبل بريطانيا؛ خاصةً بعدما شعرت أن المعاهدة لم تلبِّ الأهداف البريطانية المتمثِّلة في تحسين وتعويض علاقاتها التجارية والدبلوماسية التي خطفتها الصين (505).

عزَمت بريطانيا على تدمير الصين بشكلٍ أكبرَ، ودخل على الخط الإمبراطورية الفرنسية لكسب ما يمكن التقاطه؛ بحجة شكاوى مبعوثهم البارون «جان بابتيست لويس جروس»، بشأن إعدام المبشر الفرنسي: «أوغست شابديلين»، على يد السلطات المحلية الصينية في مقاطعة قوانغشي، والتي لم تكن في ذلك الوقت مفتوحة للأجانب(506) .

بسبب ضعف الإمبراطورية الصينية؛ دخَل كل من الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا على الخط، وأرسلا مبعوثين إلى هونغ كونغ لتقديم المساعدة العسكرية للبريطانيين والفرنسيين، لكن روسيا لم ترسل أي مساعدة عسكرية في النهاية(507) .

أما الولايات المتحدة فقد شاركت هي الأخرى بشكل محدود؛ في صراع بسيط متزامن خلال الحرب، لكن في نفس الوقت، رفضت الانضمام للتحالف الأنجلو - فرنسي، ربما بسبب أنها كانت تبغي كسب نجاحات أُحادية في الصراع، ثم في عام ١٨٥٦ م قصفت الحامِية الصينية في كانتون سفينة بخارية تابعة للبحرية الأمريكية، فردت البحرية الأمريكية في معركة حصون نهر اللؤلؤ؛ وقصَفت السفن ثم هاجمت الحصون النهرية القريبة من كانتون واستولت عليها، لكن تجدَّدت الجهود الدبلوماسية بعد ذلك؛ ووقعت الحكومتان الأمريكية والصينية اتفاقية حياد الولايات المتحدة عن الصراع(508).

مع حلول عام ١٨٦٠ م هبطت القوات البريطانية والفرنسية بالقرب من بكين في حصون تاكو شمال شرق الصين، التي قاتلوا من أجل السيطرة عليها مرتين من قبل وفشلوا، وشقوا طريقهم إلى المدينة بنجاح تامٍّ، وفشلت محاولات الحكومة الصينية للتفاوض بشأن وقف العدوان، بل وأمر المندوب السامي البريطاني لدى الصين القوات الأجنبية بنهب وتدمير القصر الصيفي الإمبراطوري، وهو مجمع من القصور والحدائق التي كان أباطرة أسرة تشينغ يتعاملون فيها مع شئون الدولة.

في يوم ٢٤ أكتوبر، وتحت الضغوطات، وافق الأمير «جونج»،شقيق الإمبراطور على مطالب الحلفاء، وفر الإمبراطور هاربًا إلى تشنغده في ٢٢ سبتمبر، ودخلت القوات البريطانية والفرنسية بكين(509) .

نشرت قوات التحالف خرابها في كل مكانٍ اجتازته، لدرجة أن الجنود خربوا الكتب العلمية أثناء نهبهم لبكين، من ضمن ما نهبوه: «موسوعة يونغل لأسرة مينغ عام ١٤٠٨ م»، التي كانت أكبر موسوعة تم تجميعها على الإطلاق في تاريخ العالم، ولم يتبق منها إلى الآن بسبب هذا النهب سوى ٣.٥ بالمائة من المجلدات(510) .

بسبب هذا الاجتياح حصد البريطانيون والفرنسيون والروس وجودًا دبلوماسيًّا دائمًا، وكان يتوجَّب على الصينيين دفع ٨ ملايين تايل لبريطانيا وفرنسا، بالإضافة إلى أن بريطانيا ضمت كولون إلى هونغ كونغ المملوكة لها، وتم تشريع تجارة الأفيون بشكل تامٍّ، ومُنح للمسيحيين حقوقهم المدنية الكاملة، بما في ذلك الحق في الامتلاك، وفُرض قانون التبشير بالقوة، والجدير بالذكر، أن إمبراطورية تشينغ ظلت تقاوم الاستعمار حتى النهاية.

أما روسيا فرأت أنها لم تحصل على ما تريد من مكاسب، وبعد أسبوعين؛ أجبرت حكومة تشينغ على التوقيع على «معاهدة بكين التكميلية»، التي تنازلت فيها عن المقاطعات البحرية الواقعة شرق نهر أوسوري (يِ) للروس، ثم شرعوا في بناء ميناء فلاديفوستوك بين ١٨٦٠ و ١٨٦١ م، وفي النهاية أدى هذا التجمع الاستعماري إلى اعتبار الحضارة الصينية العظيمة قد هُزمت وذُلّت من قبل الغرب بحلول عام ١٨٦٠ م، وقد اعتبره الغرب نصرًا مبينًا(511) .

بعد الحرب، أصبحت حكومة تشينغ ملزمة بشكل متزايد بدفع التعويضات وحماية الغربيين بعد خسارتها في حرب الأفيون الثانية، وبالنظر إلى المعاهدات غير المتكافئة؛ زادت مقاومة الشعب الصيني لحكم تشينغ الذليل، وعلى إثر هذه المعاهدات غير المتكافئة؛ نشبت سلسلة من التمردات بسبب ضعف الحكومة المركزية، منذ نهاية حرب الأفيون الأولى(512) .

بهذا الشكل أصبح القرن التاسع عشر من أسوأ القرون التي مرت على التاريخ الصيني، حيث شهدت فيه إمبراطورية تشينغ سلسلة من المجاعات والكوارث الطبيعية؛ والمشاكل الاقتصادية؛ والهزائم على أيدي القوى الأجنبية؛ ناهيك عن غرق الشعب في هلوسات الإدمان، وأصبحت هذه الأحداث تُعرف بشكلٍ جماعي باسم «قرن الإذلال» في الصين(513) .

تمرد تايبينغ

رسمٌ مزعومٌ لـ(الملك السماوي) «هونغ شيوتشيوان»، يعود تاريخه إلى أوائل خمسينيات القرن التاسع عشر تقريبًا.

في ظل تخبط الإمبراطورية الواضح؛ انتفض المسيحيون في الداخل وقاموا بتأسيس حركة دينية مسيحية، تحت قيادة (الملك السماوي) «هونغ شيوتشيوان»، فيما يُعرف بتمرُّد تايبينغ (١٨٥١-١٨٦٤)؛ والتي سعت للإطاحة بسلالة تشينغ، وتمكّنت هذه الحركة من اجتياح الجنوب

لتأسيس مملكة تايبينغ السماوية وسيطرت على ما يقرب من ثُلث الصين لأكثر من عقد من الزمان، وجعلت عاصمتها تيانجينغ(ك)، وضمت مملكته في النهاية ما يقرب من ٣٠ مليون شخصٍ، وألحقت بقوات الإمبراطورية هزائم متتالية.

أعلنت المملكة الدينية المتمردة عن إصلاحات اجتماعية مستحدثة، وقرَّرت استبدال البوذية والكونفوشيوسية والدين الشعبي الصيني والإسلام جميعهم إلى الديانة المسيحية، وبسبب عجز الحكومة المركزية؛ تم إصدار قرار بتمكين المسئولين الصينيين الهان مثل «تسنغ جوفان» من تجنيد الأهالي، وتكوين جيش محلّي، بعد الهزائم الأولية؛ سحق تسنغ المتمردين في معركة نانكينغ الثالثة في عام ١٨٦٤ م، وقضى على مملكة تايبينغ، وكانت هذه واحدة من أكبر الحروب في القرن التاسع عشر من حيث مشاركة القوات، فقد ذُكر أن عدد قتلاها فقط، بلَغ حوالي ٢٠ مليونًا(514) .

تمرُّد نيان

كما حدث في نفس الوقت وبالتزامن مع تايبينغ؛ انتفاضة مسلَّحة عُرفت بـــ «تمرد نيان»، وكانت انتفاضة مسلّحة حدثت في شمال الصين من عام ١٨٥١م إلى عام ١٨٦٨ م، كان غالبية المتمردين من الفلاحين اليائسين والفقراء، الذين رأوا أن من أجل البقاء على قيد الحياة، لا مناصَ من خطف الغذاء بالقوة؛ فتجمّعوا على شكل قُطاع طرق، ومع تفاقم الكوارث الطبيعية وفد إليهم الآلاف، وأصبحت مجموعات قطاع الطرق هذه في نهاية المطاف؛ جيوشًا قادرة على تحدي الحكومة بشكل مباشر، ومع ذلك، ظل الاهتمام الرئيسي لمعظم أعضاء نيان هو نهب المجتمعات الأفضل حالًا، فضلًا عن مقاومة الضرائب(515) .

فشل التمرد في الإطاحة بسلالة تشينغ، وتم سحقه على يد قوات الإمبراطورية في معارك متفاوتة بين الطرفين، لكنه تسبَّب في دمار اقتصادي هائل وخسائر في الأرواح، وأصبح من العوامل الرئيسية طويلة المدى التي ستعجل بانهيار سلالة تشينغ، على سبيل الأفراد - كان الفقراء يقاتلون من أجل الغذاء، أما على سبيل القيادة، كان لدى قادة «النيان» رغبة في أن يكونوا حكامًا شرعيين(516) .

حرب بونتي - هاكا

تلا هذا التمرُّد سلسلة من الاضطرابات والانتفاضات المدنية، كالحرب الطاحنة المعروفة باسم «عشيرة بونتي - هاكا»، بين الهاكا والشعب الكانتوني في قوانغدونغ، بسبب السيطرة على الأطراف الخارجية للسهول الخصبة، والتي درات رحاها بين عامي ١٨٥٥م؛ ١٨٦٧ م، وسالت برك الدماء بكثرة حول دلتا نهر اللؤلؤ، حيث مات في هذه الحروب ما يَقرُب من مليون شخصٍ.

ثورة تونغزي هوي

كما قامت ثورة دونغان (١٨٦٢-١٨٧٧)؛ والمعروفة أيضًا باسم ثورة تونغزي هوي؛ الخاصة

بالأقلية المسلمة «هوي»، وهي عبارة عن موجتين من الانتفاضات قام بها العديد من المسلمين الصينيين، (معظمهم من شعب الهوي)، في مقاطعات شنشي وقانسو ونينغشيا في الموجة الأولى، ثُم في شينجيانغ في الموجة الثانية، بين عامي ١٨٦٢ و١٨٧٧ م، وكانت حروبًا فوضوية اتضح فيها أن المجموعات المتحاربة والقادة العسكريين متنوعون دون قضية مشتركة أو هدف واحد محدد، لذلك لم يعتبرها المؤرخون موجهة ضد أسرة تشينغ بالتحديد، فالأدلة لا تظهر أن المتمرّدين كانوا يعتزمون الإطاحة بحكومة تشينغ أو مهاجمة العاصمة بكين، لكنها قامت عمومًا ضدّ الظلم والاضطهاد القسري الذي تعرض له المسلمون، حيث كانت من أجل تصفية أشخاص بعينهم، وفي النهاية قمعتها قوات تشينغ بقيادة «تسو زونغتانغ»(517) .

تمرد بانثاي

كذلك وقَع تمرُّد بانثاي (١٨٥٦-١٨٧٣)، وهو تمرد آخر لشعب «هوي» المسلم ومجموعات عرقية أخرى (مسلمة وغير مسلمة) ضد المانتشو، كجزء من موجة من الاضطرابات المتعددة الأعراق بقيادة «هوي»، بسبب سياسة التمييز التي مارستها أسرة تشينغ ضد المسلمين، (على الرغم من أن بعض المصادر تشير إلى أن تمرد بانثاي نشأ فقط كنزاع بين عمّال المناجم من هان وهوي في عام ١٨٥٣ م)؛ إلا أن التوترات بين هان وهوي كانت موجودة لعقود قبل الحدث؛ بما في ذلك مذبحة استمرت ثلاثة أيام لهوي على يد مسئولي هان وتشينغ بين أعوام ١٨٥٣- ١٨٤٥ م، وقد ذكر المجلد الثامن من «موسوعة الدين والأخلاق»؛ أن ثورة بانثاي التي قام بها المسلمون اندلعت بسبب العداء العنصري والحرب الطبقية على المسلمين(518) .

وكنوع من أنواع قمع التمرُّد؛ بتحريض من المفوض القضائي نظم المسئول عن قمع التمرد في عاصمة المقاطعة كونمينغ عام ١٨٥٦ م؛ مذبحة علنية ضد الثائرين المسلمين، راح ضحيتها ٣٠٠٠ مسلم، وتسببت هذه المذبحة في اشتعال مشاعر باقي القوميات في المقاطعة(519) ، فتجمَّعوا مع الثائرين المسلمين، وأعلنوا أن مدينة دالي في غرب يونان مملكة مستقلة بهم على يد «دو ون شيو»، المولود في يونغ تشانغ لعائلة من الهان الصينية التي اعتنقت الإسلام، وقاد تمرده باعتباره تمردًا ضد المانتشو بدلًا من الحرب باسم الإسلام(520) .

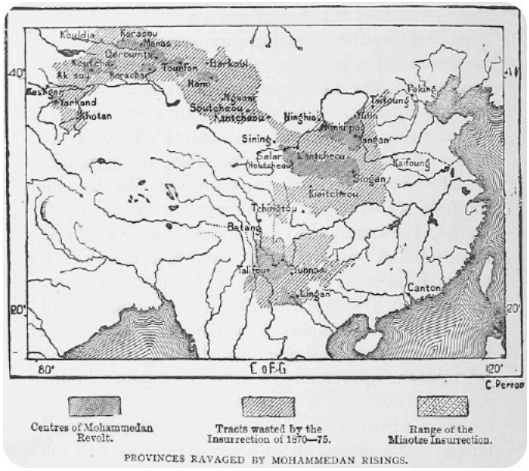

PROVINCES RAVAGED BY MOHAMMEDAN RISINGS.

خريطة)الانتفاضات)الإسلامية)ضد)إمبراطورية)تشينغ.

تم سَحْق التمرد؛ وكانت حصيلة قتلاه ما يصل إلى مليون شخصٍ في يوننان، وتلا ذلك تعرض غالبية أتباع قضية مسلمي يونان للاضطهاد من قبل المانتشو الإمبراطوريين، ثم تمَّ تنظيم مذابح جماعية لمسلمي يونان، وقد أجبرتهم هذه المذابح على الفرار، والتوجه مع عائلاتهم عبر الحدود البورمية؛ وحينها لجئوا إلى ولاية «وا»؛ في حوالي عام ١٨٧٥ م(521) .

استقر اللاجئون «الهوي» عبر الحدود داخل بورما، وتأقلموا مع الحياة تدريجيًّا.

تمّ قمع جميع التمردات في نهاية المطاف، ولكن بتكلُفةٍ هائلة وبخسارة للملايين من السكان؛ مما أدى إلى إضعاف السلطة الإمبراطورية المركزية بشكل خطير، كذلك قد أضعفت هذه الأحداث الجيش الإمبراطوري تمامًا، ولم تَقُم أسرة تشينغ أبدًا بإعادة بناء جيش مركزي قوي، فظهرت أزمة جديدة؛ كثيرًا ما تكرَّرت في التاريخ الصيني الطويل؛ وهي تكوين المسئولين لجيوش عسكرية خاصة بهم، وأصبحوا شِبه أباطرة صغار في مقاطعاتهم(522).

بهذا الشكل؛ أصبح القرن التاسع عشر هو أسوأ القرون التي مرّت على تاريخ الصين، لكن قبل الوصول للنهاية الحتمية، ظهر ما يُسمى بـــ «استعادة تونغزي»، وهي محاولة لوقف التدهور الأسري في سلالة تشينغ.

استعادة تونغزي والإنقاذ من السقوط

حاول المسئولون تبنِّي إجراءات جديدة من شأنها استعادة النظام التقليدي؛ بعد هذه الرحلة القاسية من الصعاب التي عصفت بالبلاد، تم إطلاق اسم محاولة الإصلاح على اسم الإمبراطور الشاب حينها «تونغري» (حكم من ١٨٦١ إلى ١٨٧٥)، بمبادرة من والدته الإمبراطورة الأرملة «تسيشي» (١٨٣٥-١٩٠٨)، وتحت قيادة إصلاحيي عائلة مانتشو المالكة ومسئولين صينيين من الهان مثل «تسنغ غوفان» وأتباعه «لي هونغ تشانغ» و«تسو تسونغتانغ»؛ تم إحياء الإمبراطورية مجددًا لمدة ستين عامًا أخرى بواسطة جهود غير عادية لرجال غير عاديين، بعد الاعتماد على

المتخصِّصين في المشورة والاقتراح؛ وإعادة البحث عن نجاحات العقلية القديمة، وقامت حركتهم بتعزيز الذات بإصلاحات مؤسسيَّة فعّالة، وتمّ التعاقد مع المصانع الغربية وتكنولوجيا الاتصالات في الصين، إلى جانب التركيز بشكل أساسي على تعزيز المؤسسة العسكرية، وقال بعض العلماء: إن نجاح أسرة تشينغ في النجاة من الهجمات المحلية والدولية؛ يرجع إلى حدٍّ كبيرٍ إلى تغييرات السياسة والقيادة المعروفة باسم استعادة تشينغ(523) .

وبرغم محاولة تَدارُك الأزمة، لم يكن برنامج الإصلاح قادرًا على صُنع فارق كبير، بسبب تقويض الإصلاح الناتج عن المنافسات الرسمية، وكذلك السُّخرية من البعض، إلى جانب الاختلاف في الرأي والمشاجرات داخل العائلة الإمبراطورية؛ ولذلك لم تحقق هذه الاستعادة الترميم الشامل، لدرجة أن العلماء قد انقسموا حول هذه الإصلاحات؛ منهم مَن يرى أنها أوقفت تراجع الأسرة الحاكمة، ومنهم رأى أنها أدت فقط إلى تأخير حدوث الانهيار الحتمي وأطالت عمرها لعقود معدودة فقط(524) .

الحرب الصينية - اليابانية الأولى

كان من ضمن «استعادة تونغزي» محاولة استعراض عودة جيش سلالة تشينغ؛ في فرض الحماية على الرافد الكوري الذي ارتبط دائمًا بالصين، من أجل ردع جميع القوى التي تهددها إقليميًّا، في نفس الوقت تقريبًا؛ طرأت استعادة مماثلة في الداخل الياباني سُميت بـــ «استعادة ميجي»، وأصبحت كوريا هي ساحة استعراض قوى الطرفين؛ عندما قامت الحرب الصينية اليابانية الأولى رسميًّا (٢٥ يوليو ١٨٩٤ - ١٧ إبريل ١٨٩٥)؛ بين أسرة تشينغ وإمبراطورية اليابان من أجل التنافس على فرض النفوذ على كوريا، في نفس الوقت الذي نظر فيه الروسيون لكوريا بعين الطمع(525) .

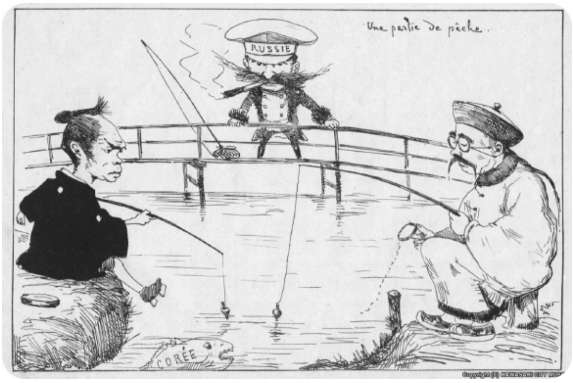

رسمٌ)كاريكاتيري)عن)أطماع)الصين)و)اليابان)و)روسيا)تجاه)كوريا،)نُشر)في)الطبعة)الأولى)من)مجلة)توبيه،)١٨٨٧)م.

ستة أشهر كانت كافيةً لإعلان الناجح في الاختبار؛ ربِحت اليابانُ بعد النجاحات المتواصلة التي حققتها القوات البرية والبحرية اليابانية، ومع خسارة ميناء ويهايوي؛ لم يكن بيدِ حكومة تشينغ إلا رفع دعوى قضائية من أجل السلام في فبراير ١٨٩٥ م، لتُظهر الحرب الفشل الواضح في تحديث

تشينغ، ولأول مرة؛ انتقلت الهيمنة الإقليمية في شرق آسيا من الصين إلى اليابان(526) .

أدت خسارة الرافد الكوري إلى استهجان شعبي كبير في الأوساط الصينية، وانهارت هيبة جيش الإمبراطورية مجددًا، وقد تسبَّب ذلك في سلسلة من الاضطرابات السياسية بقيادة السياسيين: «سون يات سين» و«كانغ يووي».

بعد خسارة الحرب والوضع المُزْرِي الذي أصبحت فيه الإمبراطورية؛ خشي القرويون في شمال الصين من توسُّع مجالات النفوذ الأجنبية في ظل ضعف الحكم المركزي، ومما زاد استياءهم؛ توسيع الامتيازات للمبشِّرين المسيحيين، الذين استخدموها لحماية أتباعهم.

ثورة الملاكمين وتحالف الدول الثماني ضدَّ الصين

في هذا الوقت ظهر ما يُسمى بجماعة الـ «الملاكمين»؛ (لأن غالبية أعضائها كانوا يمارسون الفنون الصينية للدفاع عن النفس، والتي عُرفت آنذاك باسم الملاكمة الصينية)، واجتمع هؤلاء على كُرهِ النفوذ الأجنبي؛ وبغضِ الإمبريالية، ومُعاداة المسيحية والتبشير النَّشِط، ومع اجتياح سلسلة من الكوارث الطبيعية لشمال الصين عام ١٨٩٨ م، كالجفاف؛ وفيضانات النهر الأصفر، زاد التوتر واشتعلت الأجواء العصبية، فقرَّر هؤلاء إحداث ثورة في عام ١٨٩٩، وانتشرت ثورتهم عبر شاندونغ وسهل شمال الصين، تمكنوا من خلالها من تدمير الممتلكات الأجنبية مثل السكك الحديدية، كما قاموا بقمع وقتل المبشرين الأجانب، رافعين شعار «دعم حُكومة تشينغ وإبادة الأجانب»، وحاصروا المسيحيين المغتربين في حيِّ المفوضيات الأجانب ببكين.

ردًّا على ذلك، تحالفت ثماني دول عسكريًّا، وقرروا غزو شمال الصين في عام ١٩٠٠ م؛ بحجة تخفيفٍ الحصار عن المفوضيات الأجنبية، وتجمع أكثر من ٤٥ ألف جندي من ثماني دول:

بريطانيا - فرنسا - روسيا - اليابان - الولايات المتحدة الأمريكية - ألمانيا - إيطاليا - النمسا والمجر)

وتم هذا الاجتياح على الرغم من أن الدولة الثمانية لم تُصدر أي واحدة منهم بيانًا رسميًّا بإعلان الحرب(527) .

مع دخول التحالف؛ تفاجأ بهجوم قوات الملاكمين وجيش تشينغ، اللذان أجبروهم على التراجع في معركة لانغفانغ، بعد أن سمَحت الإمبراطورية للملاكمين بالانضمام إلى الجيوش الإمبراطورية، لكن شن المُتحالفين قتال عنيف في تيانجين وتمكن التحالف من الغلبة، ووصَل أخيرًا إلى بكين، وتمّ نفي الإمبراطورة الأرملة إلى شيان، وهزيمة ثورة الملاكمين من قبل تحالف الدول الثماني للقوى الأجنبية، ومع نجاح الغزو؛ تطورت المراحل اللاحقة إلى حملة استعمارية عقابية للصين، على إثرها، تم نهب بكين وشمال الصين لأكثر من عام، وانتهت هذه الأحداث في عام ١٩٠١م باتفاقية «بروتوكول الملاكمين»، وتمّ فرض تعويض عقابي هائل (528) .

رسمٌ كاريكاتيري يصوِّر الإذلالَ الصيني على شكل فطيرة تتقاسمها الملكة فيكتوريا (بريطانيا)، مع القيصر فيلهلم الثاني (ألمانيا)، والإمبراطور نيكولاس الثاني (روسيا)، وماريان (فرنسا)، والإمبراطور ميجي (اليابان).

بعد أن فرَض الحلفاء على الصين تسوية عقابية؛ حاولت حكومة تشينغ الشروع في تنفيذ إصلاحات مالية وإدارية أساسية، بما في ذلك الانتخابات المحلية والإقليمية، ولم تحظَ هذه التحركات بالثقة أو الدعم الواسع من المجموعات الثورية، وكان غالبيتهم قد رأوا أن برغم الإصلاحات هناك تحيزًا واضحًا لقومية المانتشو الحاكمة، والتي حملوها كل ما آلت اليه الصين من مشاكل، وبينما كان هناك معارضون لهذا التحيز فقط؛ كان هناك معارضون لوجود هذه الإصلاحات من الأساس، ورأوا أن بدلًا من الإصلاح المؤقت يجب الإطاحة بالسلالة كلها، ونظموا أنفسهم في مجموعات ثورية، كان على رأسهم الثوري «صن يات صن» (سون يات سين).(529)

لم يكن بمقدور هؤلاء الثوريين العمل إلا في جمعيات سرية ومنظمات سرية، وبشكل أو بآخرَ كَوّنوا أتباعًا بين الصينيين المغتربين في أمريكا الشمالية وجنوب شرق آسيا، وداخل الصين نفسها، حتى في الجيوش الجديدة، ولعل أحدث الأسباب التي فرضت شعبية الثوريين حدوث مجاعة في عامي ١٩٠٦ و١٩٠٧ م.

بعد وفاة الإمبراطور «جوانجكسو» (ديزونغ من تشينغ)؛ عن عمر يُناهز ٣٧ عامًا في نوفمبر ١٩٠٨ م، في اليوم التالي مباشرةً ماتت الإمبراطورة الأرملة تسيشي، وانتقل العرش إلى ابن أخيه بويي (بوئي) (الإمبراطور شوانتونغ)؛ الذي يناهز عمره العامين فقط، وكان الأمير «تشون» وصيًّا على العرش، حينها واصل الأمير مسار الإصلاح الذي اتبعته الراحلة تسيشي، لكن عناصر المانتشو المحافظة في البلاط عارضته، وقد تسبَّب ذلك في المزيد من دعم الثوار، لتنطلق إمبراطورية تشينغ ناحية الرمق الأخير.

* * *

ظهرت بعض العلوم الطبيعية وخصوصًا علوم الفلك والتقويم في عهد سلالة تشينغ، ويُعرف عن الإمبراطور «كانغ تشي»؛ اهتمامه بالفلك والرياضيات؛ وعلق بنفسه على كتاب «علم التقويم»، الذي ألَّفه عالم الرياضيات «مي ون دينغ»، وكان لـ «مي» مؤلفات علمية عديدة تعَدت الثمانين مؤلَّفًا، وهو صاحب كتاب «التقويم القديم والحديث»، وهو الكتاب الصيني الأول في تاريخ علم التقويم.

في الرياضيات: برزت أعمال العالم «مينغ آن تو»، الذي كان مستشارًا علميًّا للإمبراطور «كانغ تشي»؛ والذي شارك في أعمال مسح ورسم الخرائط، وكتَب أول كتابٍ صيني بخصوص نظريات المتواليات الرياضية.

وفي الطب: تم تجميع كتاب «الكامل في الطب»، تحت إشراف الحكومة في عهد الإمبراطور «تشيان لونغ»، والذي لخَّص الطب الصيني التقليدي، شاملًا كمية كبيرة من الوصفات الطبية(530)

أما ثقافيًّا: فقد جُمِعت موسوعة: «مختارات من الكُتب القديمة والحديثة»، في عهد «كانغ تشي» و«يونغ تشن»، وضمت ١٠ آلاف مجلدٍ، متضمنين ٦ فروع من العلوم، كذلك مجموعة: «المؤلفات الكلاسيكية الشاملة الصينية» الضخمة، التي تم تجميعها في عهد «تشيان لونغ»؛ وضمت ٣٦٠ مجلدًا، وهي أكبر مجموعة صينية، وتعتبر مرجعًا هامًّا للوثائق القديمة(531).

أما في الأدب: فقد عاش في هذه الفترة الأديب الصيني: «تساو شيويه تشينغ»، الذي عاصر الأباطرة «كانغ تشي»، و«يونغ تشن»، وتشيان لونغ»، وهو صاحب رواية «حلم المقصورة الحمراء» التي تناهض الحكم الإقطاعي وتندِّد بظلمه، ثم مات دون أن يُنهيها بسبب الفقر والمرض؛ فتركها مكونة من ٨٠ فصلًا حتى أكملها من بعده الأديب «قاو آه» وأضاف إليها ٤٠ فصلًا، وتعتبر هذه الرواية من الروايات العالمية الرائدة التي تجمع بين المضمون الفكري والأسلوب الفني.

كذلك عاش القاصُّ: «بو سونغ لينغ» صاحب «حكايات لياوتساوي الغربية»، العمل الذي يحتوي على مئات القصص المثيرة، والتي تناولت أيضًا مفاسد الحكم الإقطاعي، والموظفين المختلسين، والمسئولين المرتشين، عبر حكايات خيالية جمعت الإنس مع الجن، كما عاش: «وو جينغ تسي» صاحب رواية «المتأدبون» الساخرة، التي تنتقد الوجوه القبيحة لسادة الإقطاعية، وعاش: «رو تشن» صاحب رواية «الزهور في المرآة» الساخرة هي الأخرى، والتي تنتقد بسخرية المظاهر غير العادلة في المجتمع الإقطاعي، ومن ناحية أخرى تدعو لاحترام المرأة(532).

أما في الفن المسرحي: فقد تطوّرت الكتابة المسرحية خلال أسرة تشينغ، على أساس الكتابة في عهد يوان ومينغ، ومن أشهر الأعمال المسرحية: «قصر الشباب الخالد» لمؤلفها: «هونغ شن»، التي روت قصة الحب الواقعة بين إمبراطور تانغ «شيوان تسونغ»، ومحظيته الحسناء «يانغ قوي

في» السابق ذكرهما، ومسرحية «مروحة زهور الخوخ» لمؤلفها: «شان رن»، والتي تحكي عن الظلم الذي ساد أواخر عهد مينغ، وتوضِّح الأسباب الجِذرية لسقوط هذه السلالة الحاكمة.

أما فن الأوبرا، فقد ظهر في عهد «تشيان لونغ» أوبرات عديدة؛ أشهرهم: أوبرا تشين من مقاطعة شنشي وقانسو، وأوبرا كون من جيانغسو، وأوبرا هوي من آنهوي، وجميعهم دخلوا إلى بكين، وامتزجوا جميعًا مع أوبرا بكين(533).

أما فن الرسم، فقد أبدع الرسامَين «وانغ شي مين»، و«ووانغ جيان»، في رسوم المناظر الطبيعية، وأبدع «يون شو بينغ» في رسم الزهور بدقة عالية، وفي عهد الإمبراطور «تشيان لونغ»، ظهر الرسامين المعروفين باسم «المشاهير الثمانية في يانغتشو»، «جين دونغ شين»، و«تشنغ بان تشياو»، و«لوه ليانغ فنغ»، و«وانغ شي شن»، و«قاو شيان»، و«لي شيان»، و«لي فاو ينغ»، الذين يُنسَب إليهم تطوير تقاليد الرسوم الصينية(534).

أما في فنِّ المعمار: فخلال هذه الأسرة شُيدت الحديقة المشهورة عالميًّا «يان مينغ يوان»، والتي بدأ تشيدها في عهد «كانغ تشي»، وافتُتحت في عهد «تشيان لونغ»، وهي تُعتبر مزيجًا فريدًا من المعمار الصيني والغربي، في محيط ١٥ كيلو مترًا، وقد تعرَّضت للاحتراق والنهب على يد الغزاة البريطانيين والفرنسيين في عام ١٨٦٠ م

أما دينيًّا: فلم يجد جديد، باستثناء المسيحية؛ ففي القرن التاسع عشر وصلت البعثات التبشيرية البروتستانتية إلى الصين، وهي الفترة التي بدأت المسيحية تثبت موطئ قدم كبير لها في الصين، وقامت البعثات التبشرية البروتستانتية بعدد من البعثات الطبية في الصين، وقد وضع هؤلاء الأطباء والجراحون المسيحيون البروتستانت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الأسس للطب الحديث في الصين(535)، ولكن عمليات التبشير لَقِيت مقاومة عنيفة كما ذكرنا خلال سير الأحداث.

* * *

النهاية والتمهيد لإعلان الجمهورية

بعد القضاء على تمرُّد الملاكمين، رأت العديد من القوى الغربية أن استثمارات السكك الحديدية جزء من تعزيز مناطق نفوذها على الصين؛ فصارعت من أجل ذلك، من ناحية أخرى، تسابقَت حُكومة تشينغ معهم، وشرعت في بناء خطوط السكك الحديدية الخاصة بها، وبسبب العجز المالي الكبير جرَّاء التعويضات المفروضة والمستمرة لصالح القوى الأجنبية، قابلت حكومة تشينغ شُحًّا ماليًّا، فاضطرت للتفاوض مع الرأسمالي البيروقراطي «شينغ شوانهواي» في عام ١٩١٠ م، من أجل إيجاد حلٍّ، ومن ناحيته التزم بسياسته المتمثلة في تأمين القروض الأجنبية من خلال تأميم الصين لجميع خطوط السكك الحديدية(536).

أدَّى هذا التفاوض إلى تنديدٍ شَعبي واسع المدى؛ خاصة في سيتشوان، وسرعان ما تحول التنديد

إلى حركات مناهضة، عُرف هذا التنديد بـــ «انتفاضة ووتشانغ».

انتفاضة ووتشانغ

بلمح البصر تحوّلت هذه الحركات إلى مقاومة، عُرفت باسم «حركة حماية السكك الحديدية في سيتشوان»، وفي ظل حيرتها وضعفها؛ لم تجد حكومة تشينغ أي قرار يتحتم فعله إلا قمع الاضطرابات بالقوة، فزاد ذلك من الغضب الشعبي وتراجع شعبية أسرة تشينغ(537) .

تم اعتقال رءوس المتمردين في سيتشوان، وتم فتح النار على المتظاهرين، فحمل المتمردون السلاح وقاوموا القوات الحكومية، وتدهورت ثقة الشعب في حكومة تشينغ بشكل بالغٍ، من ناحية أخرى، تقدم جيش المتمردين، وفي ١٠ أكتوبر ١٩١١ م، شن الجيش الجديد المتمركز بووتشانغ هجومًا في هوغوانغ، وسرعان ما سيطر الثوار على المدينة بأكملها(538) .

على إثر هذه الانتفاضة الناجحة، وقَعت ثورات مماثلة بشكلٍ عفَوِي ودون تخطيط في جميع أنحاء البلاد، واجتمعت الطوائف جميعها على التخلِّي عن أسرة تشينغ، وبهذا الشكل أصبحت «انتفاضة ووتشانغ» هي نقطة اشتعال ثورة شينهاي ١٩١١ م، التي ستكون سببًا في خلع الأسرة الحاكمة.

ثورة شينهاي

بعد سقوط حامية تشينغ في هوغوانغ في ليلة ١٠ أكتوبر؛ خلال ٢٤ ساعة من الفوضى، تمكن الثوار من قتل أكثر من ٥٠٠ جندي من المانتشو، وأسر أكثر من ٣٠٠ جندي(539) .

وفي اليوم التالي ١١ أكتوبر؛ أنشأ المتمرِّدون حكومة عسكرية مستقلة تُمثل مقاطعة هوبي، وأقنعوا «لي يوان هونغ» أحد كبار الضباط في الجيش الجديد، بأن يكون القائد المؤقت للحكومة الثورية، وتمكنت الحكومة العسكرية الثورية من تأكيد أنها غير مدعومة من أي أجندات أجنبية، وأوصلت رسالة مفادها أنه لا مجال لتدخل أي قوة خارجية في الانتفاضة، ورفعت «علم الدم الحديدي ذو الـ١٨ نجمة» مع الإشارة إلى المقاطعات الأخرى أن تحذو حَذْوها(540) .

كانت هذه الثورة مفاجأة لبعض الثوريين المدبرين لها أنفسهم؛ فلم يكن بعضهم على علم بها، ولم يتمكن الثائر «هوانغ تشينغ» من الوصول في الوقت المناسب للانضمام للانتفاضة المسلحة، وكان «سون يات سين» مشغولًا في رحلة سفر طويلة إلى الولايات المتحدة، من أجل إقناع الصينيين المغتربين هناك بالدعم المالي للثورة، ووصلته رسالة مشفرة من «هوانغ شينغ» بالثورة؛ إلا أنه لم يتمكن من فك شفرتها، علم سون بالانتفاضة في صباح اليوم التالي من الصحف، وفي ١٢ أكتوبر اتجه الثوار نحو بقية المقاطعة من أجل الاستيلاء عليها، وبالفعل استولوا على هانكو وهانيانغ(541) .

بعد الانتفاضة الناجحة في ووتشانغ؛ أرسل الثوار رسائلهم النضالية إلى المقاطعات الأخرى؛ وحثوهم على الثورة والانتفاض، فتجاوب ثماني عشرة مقاطعة في جنوب ووسط الصين، ووافقوا

جميعهم على الانفصال عن حكومة تشينغ بحلول نهاية ديسمبر ١٩١١ م(542) .

ردًّا على الانتفاضة؛ أمرت حكومة تشينغ القائد «يوان شيكاي»، بتجهيز جيشه الإمبراطوري المسمَّى «جيش بييانغ»، للتقدم نحو ووتشانغ وسحق المقاومة، وبالفعل مع قدوم «يوان شيكاي» استطاع أن يُلحق الخسائر بمواقع القوات الثورية في ووهان، وتمكّن جيش إمبراطورية تشينغ بقيادة يوان من استعادة هانكو في ١ نوفمبر؛ وهانيانغ في ٢٧ من نفس الشهر، وبدلًا من التقدم لسحق الثورة توقف الهجوم بعد الاستيلاء على هذين الموقعين مؤقتًا، وبدأ القائد «يوان شيكاي» في التفاوض سرًّا مع الثوار(543) .

«سون)يات)يات»)(صن)يات)صن))الرئيس)المؤقت)الأول)في)تاريخ)الصين.

عاد «سون يات سين» إلى الصين، وأعلن الثوار عن انتخابات رئاسية مؤقتة؛ لحين تعديل الدستور، وتشريع قوانين تُناسب الحكم الشعبي الجمهوري، حينها شارك سون في الانتخابات وتم انتخابه رئيسًا مؤقتًا للبلاد، واجتمع ممثلو المقاطعات التي انفصلت عن الحكم الإمبراطوري في ١ يناير ١٩١٢ م؛ ليشهدوا تأدية صن اليمين أمامهم كأول رئيس في تاريخ الصين(544) .

على الرغم من إعلان جمهورية الصين، لا زالت الأسرة الإمبراطورية متمسكة بالحكم، وبشرعية الإمبراطور الصغير «بويي» (بوئي)، وفي ٢٠ يناير، اقترح «صاغ تشانغ جيان» مرسوم التنازل عن العرش، وعرضه على مجلس الشيوخ المؤقت الذي وافق عليه للتوِّ، وتم تسليم المرسوم إلى «يوان شيكاي» الذي عينه بلاط تشينغ رئيسًا للوزراء من أجل التفاوض مع الثوار، وكـ «لفتة طيبة من الرئيس المؤقت سون يات سين» أعلن أمام الجميع أنه سيستقيل من الرئاسة المؤقتة لصالح «يوان شيكاي»؛ إذا ساعده في إجبار الإمبراطور على التنازل(545) .

بعد هذا التعهد، ضغط «يوان» على الإمبراطورة الأرملة «لونجيو» وأخبرها بأنه غير مسئول عن إنقاذ حياة العائلة الإمبراطورية إذا لم يتم التنازل عن العرش قبل وصول الثوار إلى بكين، وقذف الرعب في قلبها وأوهمها أنهم يريدون رقبة العائلة الملكية، وتعهد لها أنه في حالة موافقتها على التنازل عن العرش؛ ستحترم الحكومة المؤقتة شروطها التي ستُمليها من أجل ضمان السلامة، وفي ٣ فبراير، منحت الإمبراطورة الأرملة «لونجيو» يوان موافقتها للتفاوض على شروط تنازل إمبراطور تشينغ عن العرش، وطلبت منه تجهيز المرسوم بنفسه، قام يوان بصياغة الخطاب وأرسله إلى الثوار في نفس اليوم، وتم تنازل الإمبراطور «بويي» صاحب الأعوام الستة؛ والإمبراطورة الأرملة «لونجيو» عن العرش بشكلٍ رسمي(546) .

بعد عقدٍ من الاضطرابات والثورات والانتفاضات، كان نجاح هذه الثورة بمثابة انهيار للنظام الملكي الصيني، ونهاية ٢١٣٢ عامًا من الحكم الإمبراطوري في الصين، و٢٧٦ عامًا من حكم أسرة تشينغ، وبداية العصر الجمهوري المُبكِّر في الصين(547) .

* * *

الفصل الخامس

الصين الحديثة

١- العصر الجمهوري المُبكر

(الصراعات والحروب الأهلية)

وفَّى «صن» بوعده وتنازل عن منصبه، وفي ١٠ مارس ١٩١٢ م أدّى الجنرال «يوان شيكاي» اليمين الدستورية كرئيس مؤقت ثانٍ لجمهورية الصين في بكين(548)، بعد أن قام بدور الوسيط بين العائلة المالكة والثوار من أجل التنازل عن العرش.

* * *

جمهورية الصين

جرت أول انتخابات لمجلس الأمة بموجب الدستور المؤقت، وتم تشكيل حزب الكومينتانغ في ٢٥ أغسطس ١٩١٢؛ ثم احتل أغلبية المقاعد بعد الانتخابات، كما انتُخب «سونغ جياورين» رئيسًا للوزراء، وبعد شهور قليلة اغْتِيل سونغ في شنغهاي في ٢٠ مارس ١٩١٣ م بأمر سري من «يوان شيكاي» الرئيس الجديد، الذي بدا وكأنه يُخطِّط لشيء ما(549) .

الرئيس الصيني «يوان شيكاي» عام ١٩١٥م.

ما خطط إليه «يوان» على مدى السنوات القليلة التالية؛ هو السير نحو الإمبراطورية مجددًا، فحارب الجمعيات الوطنية والإقليمية، ثم أعلن نفسه إمبراطورًا لإمبراطورية الصين رسميًّا في ديسمبر من عام ١٩١٥ م، وحلّ حزب الكومينتاغ القومي ونفى «سون يات سين» الرئيس الأول، وهذا قابله رفضٌ كبيرٌ من النُّخب السياسية والثورية ومن عامة الناس، بل ومن غالبية مؤيديه في جيش بيانغ، وكذلك الحكومات الأجنبية، وعلى إثر ذلك ثار العديد من الحكام العسكريين والمقاطعات في تمرد مفتوح، وبسبب الضغط الكبير وشعوره بالخطر؛ تنازل عن عرش الإمبراطورية في مارس ١٩١٦ م، وأعاد الجمهورية مجددًا بعد أن عاش إمبراطورًا لمدة ٨٣ يومًا فقط، وبعد ثلاثة أشهر توفِّي بسبب تبولِ الدَّم (البيلة الدموية)؛ عن عمر يناهز ٥٦ عامًا، تاركًا وراءه حكومة «بيانغ» الضعيفة إلى حدٍّ كبير، ومشهدًا سياسيًا مُجزَّأ وغير مُتَّحد، وقد تسبب ذلك الفراغ في إغراق الصين فيما يُعرف بفترة «أمراء الحرب» (550) .

عصر أمراء الحروب الأهلية

بدأ عصر أمراء الحرب في عام ١٩١٦ م؛ بعد وفاة «يوان شيكاي»، حيث خلقت وفاة يوان فراغ في السلطة انتشر عبر العديد من المقاطعات، وظهر للبلاد حكومتان.

الحكومة الأولى: «حكومة الكومينتانغ القومية» بعد أن أُعيد تأسيس حزب الكومنينتاغ مجددًا على يدِ «سون يات سين» فور عودته من النفي، وجُعل مقره في قوانغتشو، وكان هدَف سون والحزب توحيد الصين؛ من خلال إطلاق حملة ضد الشمال، لكنهما افتقرا إلى الدعم العسكري والتمويل اللازم لتحويل ذلك إلى واقع في هذا الوقت على الأقل(551) .

الحكومة الثانية: حكومة جيش يوان المتوفي المعروفة بـــ«بيانغ»؛ والتي تمسَّكت بالسُّلطة رغم وفاةِ زعيمها.

في عام ١٩١٩، ظهر احتجاج طلابي للتنديد باستجابة الحكومة الضعيفة لـ «معاهدة فرساي»؛ التي اعتبرها المثقفون الصينيون غير عادلة، وكوّن هذا الاحتجاج ما يُسمى بـ «حركة الرابع من مايو»؛ التي كانت مظاهراتها ضد خطر انتشار النفوذ الغربي الذي حل محل الثقافة الصينية، وفي هذا المناخ الفكري انتشر تأثير الماركسية واكتسب شعبية كبيرة بين هؤلاء الطلاب، وأدى ذلك في النهاية إلى تأسيس الحزب الشيوعي الصيني في عام ١٩٢١م(552) .

تمكّن «سون يات سين» أخيرًا من الاستيلاء على كانتون بمساعدة الاتحاد السوفيتي من توريد للسلاح وتمويل ومستشارين، وقام بتشكيل حزب الكومينتانغ «الجبهة المتحدة الأولى « مع الحزب الشيوعي الصيني، وانضم أعضاء الحزب الشيوعي الصيني إلى حزب الكومينتانغ، وتعاون الحزبان لبناء قاعدة ثورية في كانتون، وخطط «سون» لاستخدام هذه القاعدة لشن حملة عسكرية شمالًا وإعادة توحيد بقية الصين، لكن انتهت مجهوداته بوفاته.

توفِّي «صن يات صن» (سون يات سين) في عام ١٩٢٥ م بعد معاناة مع مرض السرطان،

وسيطر أحد أتباعه: «شيانغ كاي شيك» على الحزب القومي، وقد أدى ذلك في النهاية إلى صعود الجنرال «شيانغ كاي شيك» إلى منصب رئيس حزب الكومينتانغ، كان صعوده بفضل التحالفات الاستراتيجية مع أمراء الحرب؛ وكذلك مساعدة المستشارين العسكريين السوفييت، ومع مزيد من الدعم؛ تمكّن شيانغ من قيادة حملة شمالية ناجحة من أجل توحيد الشمال المتقطِّع، وبحلول عام ١٩٢٧ م قرَّر إنهاء التحالف مع الاتحاد السوفييتي وتطهير حزب الكومينتانغ من الشيوعيين؛ لشعوره بالأمان الكافي بعد توطيد كرسيه، واقتناعه بأن السوفييت يريدون التخلص من حزب الكومينتانغ والسيطرة عليه(553) .

الزعيم «شيانغ كاي شيك».

قرَّر شيانغ تطهير الحزب من الشيوعيين وقتل الآلاف منهم، كان ذلك في نفس الوقت الذي تدور فيه صراعات عنيفة أخرى في جنوب الصين، الذي يشهد تفوق تعداد الحزب الشيوعي الصيني فيه، وقد ردوا على ممارسات شيانغ ضد الشيوعيين بتنظيم المذابح ضد القومين، حتى نَشبت الحرب الأهلية الصينية بين القوميين والشيوعيين، بعد ما نهض الحزب الشيوعي الصيني مجددًا؛ برغم الأضرار الجسيمة التي لحقت به بسبب حملة التطهير، وأعاد الحزب الشيوعي بناء قوته تدريجيًّا من خلال التركيز على تنظيم الفلاحين في الريف.

من ناحية أخرى ظهرت انتفاضات جديدة لأمراء الحرب الذين استاءوا من محاولات شيانغ انتزاع استقلالهم الذاتي ودمج وحداتهم العسكرية في الجيش الثوري الوطني بالقوة، وقادوا مرارًا وتكرارًا انتفاضات وحروب مدمرة، (سيكون أكبرها لاحقًا حرب السهول الوسطى ١٩٢٩-١٩٣٠ التي سيشارك فيها أكثر من مليون جندي)(554) .

في ظل هذه الصراعات الدموية؛ تمكَّن «شيانغ كاي شيك» من إلحاق الضربات بـــ «الحزب الشيوعي الصيني»، وأنشأ حكومة عاصمتها نانجينغ في عام ١٩٢٧ م، وبحلول عام ١٩٢٨ م؛ تمكّن من الإطاحة بحكومة وجيش بيانغ ووحد الأمة بأكملها ولو بصورة اسمية، وفي عام ١٩٢٨ م تعهّد آخر أمراء الحرب المستقلين؛ بالولاء للحكومة القومية في نانجينغ، ليبدأ عهد الحكومة القومية في العاصمة نانجينغ(555) .

حكومة نانجينغ القومية

مع حلول عام ١٩٣٠ م تمكَّن «شيانغ كاي تشيك» من السيطرة على السلطة كليًّا، وشرع في توحيد الصين بالقوة، فيما يُعرف بمرحلة «الوصاية»، وشقّ طريقه نحو إصدار دستور مؤقت(556) .

وبما أن السوفييت كانوا متداخلين بقُوة في المشهد الصيني السياسي؛ قرّرت الحكومة القومية الجديدة إبعاد نفسها عنهم؛ من خلال اختيار التقرُّب من ألمانيا، وتم شن الحملات وإصدار القوانين الجديدة، كان من أهمها تعزيز حقوق المرأة لأول مرة، ففي القانون المدني لعام ١٩٣١ م، مُنِحت المرأة حقوقًا متساوية في الميراث، وتم حظر الزواج القسري، وأصبح للمرأة الحق في التصرف في أموالها، والبدء بطلاق نفسها بنفسها (557).

في هذه الفترة تم تأسيس العديد من المؤسسات الحكومية الكبرى، لعل من أشهرها الأكاديمية الصينية والبنك المركزي الصيني، وكذلك ظهرت حركات التعمير، كحركة إعادة إعمار الريف، ولاحقًا، نشرت الحكومة القومية مسودة دستور في ٥ مايو ١٩٣٦ م(558) .

برغم هذه الإصلاحات الطفيفة، لم يتوقَّف الصراع الأهلي بشكلٍ كاملٍ، فها هم الشيوعيون استمروا في النضال، وأعلنوا قيام «الجمهورية السوفييتية الصينية» في عام ١٩٣١ م؛ بروجين في غانتشو والمنطقة التاريخية جيانغشي؛ بدعم من الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي(559)

.

كما اشتعلت حرب صينية تبتية ثانية في مايو ويونيو من عام ١٩٣٠ م، بسبب قيام جيش التبت تحت قيادة «الدالاي لاما الثالث عشر» بغزو منطقة خام الشرقية الخاضعة للإدارة الصينية(ل) ؛ ومنطقة يوشو في تشينغهاي؛ في صراع من أجل السيطرة في دير داجين، وبدعم من المملكة المتحدة تمكَّن بالفعل الجيش التبتي من هزيمة جيش سيتشوان، لكن لاحقًا هزمت جمهورية الصين الجيوش التبتية، واستعادت الأراضي التي فُقِدت(560)

وفي ظل الصراعات الدموية، ومحاولات «شيانغ كاي شيك» للتوحيد وفرض السيادة بالقوة، دافع الإصلاحيون من أجل نشر الديمقراطية وحقوق الإنسان، ولكن كيف يتم ذلك! الأمة في حالة حرب ومنقسمة بين الشيوعيين والقوميين، وأدى الفساد وغياب التوجيه إلى إعاقة الإصلاحات، وبقيت مناطق كبيرة من الصين تحت الحكم شبه الذاتي لأمراء الحرب المحليين أمثال «فنغ يوشيانغ» و«يان شيشان»، أو أولئك المتحالفين معهم، أو القادة العسكريين الإقليميين، وكان الحكم القومي أقوى في المناطق الشرقية المحيطة بالعاصمة نانجينغ فقط(561)

أما المناطق القريبة من الحدود الغربية؛ فكانت متوترة للغاية، حيث وقع «تمرد كومول»؛ الذي قام به الأويغوريون في عام ١٩٣١ م من أجل الإطاحة بـــ «جين شورين» حاكم شينجيانغ؛ بسبب تواطؤه مع الاتحاد السوفييتي، وهو تمرُّد معقد شهد العديد من التحالفات، ولم تكن المجموعات المختلفة من المتمردين متحدة من الأساس، حتى إن بعضها قاتل البعض، وكأنّه صراع من أجل الصراع، وشن «ما تشونغ ينغ» الجزء الرئيسي من الحرب ضد شينجيانغ؛ بدعم واضح من رئيس الوزراء «شيانغ كاي شيك»، بعد ما وافق له سرًّا على السماح بالاستيلاء على شينجيانغ، وردًّا على ذلك؛ غزا الاتحاد السوفييتي شينجيانغ، من خلال حملة عسكرية في عام ١٩٣٤ م، وتم صَد تفوق قوات الجيش الأحمر المسلحة بالمدافع الرشاشة والدبابات والطائرات لمدة ٣٠ يومًا تقريبًا، وأطلقت الطائرات السوفييتية غاز الخردل، ولحِقَ بالطرفين خسائر قاسية(562) .

ولأن التمزُّق والضعف هو البيئة المناسبة لغذاء الغزاة؛ كانت قد غزت اليابان مَنْشوريَا قبل هذا الوقت، وتحديدًا في ١٨ سبتمبر ١٩٣١ م، وبعد تفوقهم في الحرب قاموا بإنشاء «دولة مانشوكو العميلة» بـــ «منشوريا» في فبراير ١٩٣٢ م، كما استولت القوات اليابانية على هاربين في ٤ فبراير ١٩٣٢م، لتُخضع منطقة شمال شرق الصين.

الإمبراطور بويي (بوئي) بعدما أصبح شابًا.

الحرب الصينية ـ اليابانية الثانية

بدأت اليابان المتعطشة للمواد الخام لكي تكفي عدد سكانها المتزايد، بالاستيلاء على منشوريا في سبتمبر ١٩٣١ م، وقامت بإنشاء «دولة مانشوكو» العميلة لها في عام ١٩٣٢م، وعينت عليها آخر إمبراطور لأسرة تشينغ: «بويي» (بوئي)؛ الذي خُلع طفلًا وأصبح حينها شابٌّ، حدث ذلك في ظل انشغال رئيس الوزراء «شيانغ كاي شيك» بحملات الإبادة المناهضة للشيوعية أكثر من انشغاله بمقاومة الغزاة اليابانيين، فقد رأى شيانغ أن التهدئة الداخلية أولًا؛ ثم المقاومة الخارجية تأتي ثانيةً، لذلك يلزم القضاء على الحزب الشيوعي الصيني، وفي نفس الوقت قام باسترضاء اليابان لإتاحة الوقت لتحديث الصين وقواتها العسكرية، حتى وقع ما يُعرف بـــ «حادثة شيان» في عام ١٩٣٦ م، والتي تم فيها اعتقال «شيانغ كاي شيك» من قِبل الجنرالات المرءوسين «تشانغ هسويه ليانغ»، و«يانغ هوتشنغ»، من أجل إجبار الحزب القومي الصيني الحاكم الكومينتانغ على عكس مسار استراتجيته، وانتهى التفاوض بإطلاق سراح الزعيم «شيانغ كاي»، بشرط إجباره على الاتحاد مع الشيوعيين ضد اليابانيين، وبدأ الاستعداد بنشاط للحرب الوشيكة مع اليابان(563)

.

مقابل ذلك، ألغى الشيوعيون «الجمهوريةَ السوفيتية الصينية» التي أُعلنت عام ١٩٣١ م، واشتدت سواعد المقاومة الصينية بعد هذا الاتحاد، وبرغم اتحاد المقاومة كان جيشهم أضعف من قوة الجيش الياباني؛ الذي تمكّن من احتلال شنغهاي بعد معركة استمرت ثلاثة أشهر رغم أنه تكبَّد خسائر فادحة من جيش المقاومة، كما تمكَّن من إسقاط العاصمة نانجينغ في ديسمبر ١٩٣٧ م، وقام الجيش الياباني بـــ «مذبحة نانجينغ» الشهيرة؛ التي شهدت عمليات قتل واغتصاب جماعي، وارتكبت القوات اليابانية العديد من الفظائع الحربية ضد السكان المدنيين، بما في ذلك حرب بيولوجية عنيفة؛ وسياسة الكل الثلاثة: «اقتل الجميع، احرق الجميع، انهب الجميع»(564) .

صورة من «مذبحة نانجينغ» المروعة، تظهر العدد المهول لجثث الضحايا على طول نهر تشينهواي.

في عام ١٩٤٠ م أنشأ اليابانيون حكومة نظام «وانغ جينغوي المتعاون» وعاصمته نانجينغ؛

التي أعلنت نفسها «جمهورية شرعية للصين» في معارضة حكومة الزعيم «شيانغ كاي شيك»، لكنها لم تلقَ رواجًا دوليًّا؛ بسبب أنها دولة دموية تسيطر على مساحات محدودة من الأراضي، وعلى الرغم من ذلك، كانت المكاسب الإقليمية الواضحة للمحتل الياباني في شمال الصين والمناطق الساحلية ووادي نهر يانغتسي في وسط الصين واضحة وضوح الشمس، في نفس الوقت الذي بدأت فيه الجبهة الشعبية الصينية في الانقسام مجددًا، ففي نفس العام ١٩٤٠ م؛ عادت المنافسة بين الكومينتانغ والشيوعيين من جديد، وتسابقوا على المناطق التي لا تخضع للاحتلال الياباني، حينها تمكَّن الشيوعيون من توسيع نفوذهم؛ وأنشئوا المنظمات الجماهيرية؛ وبعض الإصلاحات الإدارية؛ وقاموا ببعض إجراءات إصلاح الأراضي الزراعية، أما حزب الكومينتانغ القومي فكان يسارع من أجل تحييد النفوذ الشيوعي دون نجاحات ملحوظة(565).

الحرب العالمية الثانية

في ظل التوترات الصينية كان العالم الأكبر كله متوتر؛ فالحرب العالمية الثانية قد بدأت، واليابان التي اعتَدَت على الصين، كانت ممن شاركوا في الحرب إلى جانب ألمانيا هتلر النازية وإيطاليا موسوليني الفاشية فيما يعرف بدول «المحور»، ضد دول الحلفاء المملكة المتحدة والولايات المتحدة وفرنسا والاتحاد السوفييتي(566).

رأت الولايات المتحدة الأمريكية أن سيطرتها على حرب المحيط الهادئ من أهم مفاتح الانتصار في الحرب ضد هتلر، وبما أن اليابان من الدول المتحالفة معه؛ فمن الواجب النظر إلى الصين حتى يتم دعمها ضد اليابان العدو المشترك للصين والولايات المتحدة، وفي أواخر عام ١٩٤١ م نفذت برنامج مساعدات عسكرية ومالية ضخمة للحكومة القومية الصينية، ومن أجل حسم الحرب العالمية؛ في يناير من عام ١٩٤٣ م اتفق كلٍ من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة على إعادة النظر في المعاهدات غير المتكافئة التي أذلت الصين لعقود طويلة؛ تمهيدًا لإلغائها أو حذفها(567) .

بعد مرور بضعة أشهر تم تنسيق اتفاقية جديدة لرفع الضغط عن الصين، كان بموجبها السماح للقوات الأمريكية بالتمركز داخل النفوذ الصيني من أجل صد ضربات اليابان العدو المشترك، وتبنَّت الولايات المتحدة عملية تفاوض واسعة المدى من أجل الإصلاح بين الحزب القومي والحزب الشيوعي لضمان جهد حربي صيني أقوى ضد اليابان؛ لكنها فشلت في ذلك، وكانت كل هذه المساعدات الأمريكية غرضها أن تصبح الصين حليفًا قويًّا في الحرب؛ وكذلك خلق قوة استقرار أمريكية في شرق آسيا بعد الحرب.

بعد هذا الدعم الكبير؛ أصبَحت الصين واحدة من الحلفاء الأربعة الكبار في الحرب العالمية الثانية، جنبًا إلى جنب مع المملكة المتحدة، والولايات المتحدة، وفرنسا، (يعتبر هذا الوضع هو مقدمة لحصول الصين على مقعد دائم في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة؛ بعد ذلك)(568) .

استسلمت ألمانيا في الحرب العالمية الثانية؛ وهُزمت دول المحور بما فيها اليابان، وخلال «مؤتمر بوتسدام» تم الإعلان عن استسلام دول المحور كليًّا دون أي شروط، رفض رئيس الوزراء الياباني «سوزوكي» تنفيذ تقرير المؤتمر وتجاهل المهلة التي حدَّدها مؤتمر بوتسدام لإعلان الاستسلام، فيما يعني أنها باقية في المقاومة والحرب، فردت الولايات المتحدة الأمريكية في ٦ أغسطس عام ١٩٤٥ م بإطلاق القنبلتين الذريتين على هيروشيما وناجازاكي؛ بسبب اعتقاد الولايات المتحدة أن هذا القصف الذري من شأنه أن يفرض استسلامًا يابانيًّا سريعًا دون المخاطرة بخسائر أمريكية على الأرض، وكانت فاجعة وحشية لم يسبق لها مثيلًا؛ حيث تعتبر هي الهجمات الوحيدة التي تمّت باستخدام الأسلحة الذرية في تاريخ الحرب(569) .

بمساعدة أمريكية، تحركت القوات القومية الصينية لاستسلام المناطق التي تُجليها القوات اليابانية المنسحبة في شمال الصين، وأعلن الاتحاد السوفييتي تأمين خطوط الانسحاب اليابانية، ووافق الصينيون على إدخال السوفييت في الحرب، معتقدين أن الاتحاد السوفييتي لن يتعامل إلا مع حكومة الكومينتانغ، لكن على عكس ذلك؛ الوجود السوفييتي في شمال شرق الصين مكَّن الشيوعيين من تسليح أنفسهم بالمعدات التي سلمها الجيش الياباني المُنسحِب، ليصبحوا بذلك أقوى وأعظم، وأعاد الشيوعيون تنظيم أنفسهم تحت قيادة الزعيم الجديد «ماو تسي تونغ»، وردًّا على ذلك؛ تم استخدام مشاة البحرية الأمريكية للاحتفاظ بـ «بينغ» (بكين) وتيانجين ضد التوغل السوفييتي المحتمل، وتم تقديم الدعم اللوجستي لقوات الكومينتانغ في شمال وشمال شرق الصين(570) ، وبشكل أو بآخر أصبح القوميون مدعومين من الولايات المتحدة الأمريكية، والشيوعيون مدعومين من الاتحاد السوفييتي، وكأنها بداية للحرب الباردة قبل أوانها.

الحرب الأهلية بين الشيوعيين والقومين

ظاهريًّا استفادت الجمهورية الصينية كليًّا من الحرب العالمية الثانية؛ وأصبحت قوة عسكرية عالمية عظمى، لكن بشكل أعمق هي أمة مُدَمرة اقتصاديًّا؛ وعادت الحرب الأهلية تعصف بها بصورة أشمل وأكبر، حيث ظهر التسابق والتنافس على المناطق التي أجلتها القوات اليابانية بطريقة شرسة، أما الاقتصاد المدمر فلم يجد مجاز نور؛ بسبب التكاليف العسكرية للحروب الخارجية والصراع الداخلي، بل والأصعب من ذلك التضخم المتصاعد بالقوة، وما دفع بالبلاد إلى حافة الهاوية؛ مجاعة قد وقعت في أعقاب الحرب بسبب الفيضانات التي حلت، وأصبح الملايين بلا مأوًى.

فشِلت وساطة جديدة قادتها الولايات المتحدة لوقف الصراع العسكري بين الكومينتانغ والشيوعيين؛ وعادت حروبهم للاستئناف، لتصبح الحرب الأهلية الصينية أكثر تسعُّر، ففي هذه المرة لم تكن الحروب من أجل الأراضي فحسب؛ بل أصبحت حروبًا أيديولوجية غرضها إخضاع الطوائف المختلفة من القوميات، وقد ساعدت الولايات المتحدة القوميين بقروض اقتصادية ضخمة

وأسلحة؛ لكن دون دعم قتاليٍّ، وعلى الرغم من أن حزب الكومينتانغ القومي كان أقوى من حيث عدد الرجال والأسلحة والدعم الأمريكي والدعم الدولي والسيطرة الأكبر على الأراضي والسكان؛ فإنه كان مُجهدًا بسبب الحرب الطويلة مع اليابان، وكذلك القتال الداخلي بين مختلف الجنرالات؛ بالإضافة إلى الفساد المتفشي بين أعضاء الحزب، وهذا الفساد جعله يخسر الدعم الشعبي لصالح الشيوعيين.

استطاع جيش التحرير الشعبي الشيوعي المدعوم من السوفييت؛ إلحاق الهزيمة بالجيش الثوري الوطني الأكبر والأفضل تسليحًا؛ بسبب التكتيكات العسكرية الأفضل؛ وفساد قيادة جمهورية الصين، واستولى الشيوعيون على بكين دون قتال في يناير ١٩٤٩ م، ثم تمَّ الاستيلاء على نانجينغ في ٢٣ إبريل.

نقلت جمهورية الصين القومية عاصمتها بشكل متكرِّر لتجنُّب التقدُّم الشيوعي - أولًا إلى قوانغتشو ، تليها تشونغتشينغ ، تشنغدو ، وأخيرًا، تايبيه بتايوان، وتلا ذلك سيطرة سياسية واضحة على المدن الكبرى من قبل الشيوعيين بسبب خسارة القوميين للحشد الشعبي، وعلى إثر ذلك؛ أعلن زعيم القوميين «شيانغ كاي شيك» الأحكام العرفية في مايو ١٩٤٩ م؛ بسبب فِرار بضع مئات الآلاف من القوات القومية ومليوني لاجئ، (معظمهم من الحكومة القومية أو مجتمع الأعمال الخاص بها) من البر الرئيسي للصين إلى تايوان، ولم يبقَ في الصين نفسها سوى جيوب معزولة للمقاومة، والجدير بالذكر؛ أن تايوان كانت وقتها تحت الإدارة الصينية، حيث تم تسليمها هي وجزر بينغو بعد استسلام اليابان للصين، في ٢٥ أكتوبر ١٩٤٥م(571) .

بعد خمسة أشهر من النجاحات الشيوعية المذهلة لمحاصرة الحزب القومي، في ١ أكتوبر ١٩٤٩ م؛ أقدم الشيوعيون بقيادة «ماو تسي تونغ» على إعلان جمهورية شيوعية جديدة، تحت اسم «جمهورية الصين الشعبية»، وردًّا على ذلك؛ في ٧ ديسمبر ١٩٤٩، أعلن «شيانغ كاي شيك» أن تايبيه بـ «تايوان» عاصمة مؤقتة لجمهورية الصين، وأصبح في الصين جمهوريتين: صين شيوعية عاصمتها بكين، وصين قومية عاصمتها تايبيه بـ تايوان، وقد حدَث ذلك بعد صراع محتد، ارتكب خلاله القوميون والشيوعيون على حدٍّ سواء فظائع جماعية، قُتل خلالها الملايين من المدنيين على يد الجانبين، قُدِّر تَعداد الضحايا ما بين ١.٨ مليون و٣.٥ ملايين شخص بين عامي ١٩٢٧ و ١٩٤٩م.(572) .

لحظة إعلان «ماو تسي تونغ» جمهورية الصين الشعبية في ١ أكتوبر ١٩٤٩م.

بهذا الشكل، انتهت المعارك الرئيسية في الحرب الأهلية الصينية في عام ١٩٤٩ م، بانسحاب حزب الكومينتانغ من البر الرئيسي، والتمحور في تايوان والجزر التابعة لها، وتُرك الحزب الشيوعي الصيني مسيطرًا على البر الرئيسي للصين، لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الصين عُرفت تاريخيًا بـ«الصين الشيوعية» أو «الصين الحمراء» أو «جمهورية الصين الشعبية»(573)، بعدما اعتُبر تاريخيًّا أن لجوء القومين إلى تايوان هو انسحابٌ من المَشهد السياسيِّ.

* * *

٢ ـ الصين الشيوعية

(النظام الأخير والحالي للصين)

انتهت الحرب الأهلية الصينية بين القومين والشيوعيين في عام ١٩٤٩ م؛ بسيطرة الحزب الشيوعي الصيني على البرّ الرئيسي للصين وتراجعُ وانسحابُ حزب الكومينتانغ إلى تايوان، ويعتبر التاريخُ المحدد لانطلاق هذه الحقبة هو: ١ أكتوبر ١٩٤٩ م؛ عندما أعلن الزعيم «ماو تسي تونغ» قيام جمهورية الصين الشعبية.

* * *

جمهورية الصين الشعبية

أصبحت الصين دولة شيوعية ذات الحزب الواحد؛ وهو الحزب الشيوعي الصيني الذي ترَأسَه «ماو تسي تونغ» منذ ١٩ يونيو ١٩٤٥ م؛ بعد اغتيال غالبية القادة الشيوعيين الذين سبقوه أو تواجدوا معه، ومنذ إعلان الجمهورية في ١ أكتوبر بدأ ماو سيطرته على الدولة والدخول نحو منعطفٍ تاريخي جديد؛ من أولوياته شَن حملات واسعة ضد مُلَّاك الأراضي، وقمع معارضي الثورة الشيوعية، وحملات مكافحة الفساد، ومحاولة إنقاذ ما تبقَّى من الاقتصاد الصيني.

وضع ماو أول دستور لجمهورية الصين الشعبية الجديدة، وأطلق ما يُسمى بالبرنامج الصناعي، كما أعلن عن بَدء مشروع القنبلة النووية ومشروع غزو الفضاء، وإلى جانب كل ذلك؛ أطلق ماو حملة دموية مناهضة لليمين في عام ١٩٥٧ م؛ شمِلت ما لا يقل عن ٥٥٠ ألفَ شخصٍ، كان معظمهم من المثقفين المعارضين لسياسة الحزب الشيوعي، وفي ظل قبضة الحزب المُستَحكِمة على الصين بالنار والحديد؛ في عام ١٩٥٨ م أُطلق ما يُعرف بالقفزة العظيمة للأمام؛ بغرض تحويل الاقتصاد الصيني بسرعة فائقةٍ من الزراعة إلى الصناعة.

القفزة العظيمة إلى الأمام

بدأ الحزب الشيوعي الصيني في إطلاق حملة اقتصادية واجتماعية داخل جمهورية الصين الشعبية منذ عام ١٩٥٨ إلى عام ١٩٦٢ م، أعلن عنها الزعيم «ماو تسي تونغ»؛ من أجل إعادة بناء البلاد من الاقتصاد الزراعي إلى مجتمع صناعي حديث، وحينها أصدر «ماو» مرسومًا بضرورة زيادة الجهود الرامية إلى مضاعفة إنتاج الحبوب وجلب الصناعة إلى الريف، ونتيجة لذلك؛ كان المسئولون المحليون خائفين من الحملات المناهضة لليمين؛ وعملوا في أجواء مُرعبة، وتنافس كل شخص منهم في الوفاء الكامل بالحصص التي طلبها ماو، فجمعوا فوائض لم تكن أصلًا فوائض، لكنها كانت من قوتِ الفلاحين وغذائهم، وتركوا عددًا هائلًا من الفلاحين يلاقون الموت جوعًا، ولم تتخذ السلطات أي إجراء حِيال ذلك، لكنهم فقط ألقوا اللوم على سوء الأحوال الجوية؛ وأنها السبب في انخفاض إنتاج الغذاء، وترتّب على هذا الإجراء المشين؛ موت ما يتراوح بين ١٥ إلى ٥٥ مليونًا في مجاعة واسعة المدى، عُدّت أكبر أو ثاني أكبر مجاعة في تاريخ

البشرية على الإطلاق(574) .

قامت حكومة «ماو» بعمليات إعدام جماعية لأصحاب الأراضي، وأسَّست نظامًا زراعيًّا جماعيًّا(م) ، كما نفذت نظام «معسكر لاوجاي»؛ فيما يُعرف بـــ «الإصلاح من خلال العمل»، وهو نظام عدالة جنائية يتضمن استخدام العمل الجزائي ومزارع السجون في جمهورية الصين الشعبية، أدت عمليات الإعدام والوفيات الناجمة عن العمل القسري وغيرها من الفظائع إلى مَقْتل ملايين آخرين في عهد «ماو».

الثورة الثقافية

في عام ١٩٦٦ م أطلق «ماو: وحلفاؤه ما يُعرف بـــ «الثورة الثقافية»؛ والتي استمرت حتى وفاة ماو، وكان هدفها المعلن هو الحفاظ على الشيوعية الصينية من خلال تطهير المجتمع الصيني من بقايا العناصر الرأسمالية والتقليدية، وهم من عُرفوا من وجهة نظر الحزب بـــ : «عناصر الثورة المضادة، والتنديد بـ«العناصر البرجوازية» التي تسللت إلى الحزب، لتُعلن عن بداية سنوات من الرعب ستَطَال ملايين الصينيين، وفي عام ١٩٦٩ م، أمَر الجيش بالتدخل والنزول للشوارع والأزقَّة؛ من أجل استعادة النظام والسيطرة على المشهد السياسي وقمع المتمردين، الذين سيجرون البلاد إلى حربٍ أهلية على حدٍّ تعبيره.

أدت الثورة الثقافية التي حفَزها الصراع على السلطة داخل الحزب والخوف من الاتحاد السوفييتي؛ إلى اضطرابات كبيرة في المجتمع الصيني، فعلى غير المتوقع تدهورت تدريجيًّا العلاقات بين الصين والاتحاد السوفييتي بسبب الخلافات العقائدية التي نشأت من تفسيراتهما المختلفة وتطبيقاتهما العملية للماركسية اللينينية(575) .

ترتَّب على هذا الانقسام الصيني السوفييتي؛ تطلعات الصين إلى آفاق جديدة، وفي عام ١٩٧٢ م؛ وفي ذروة الانقسام؛ استَقبلَ «ماو» و«تشو إن لاي» الرئيس الأميركي «ريتشارد نيكسون» في بكين؛ من أجل إقامة علاقات مع الولايات المتحدة، وتلا ذلك في نفس العام؛ قبول جمهورية الصين الشعبية في الأمم المتحدة بدلًا من جمهورية الصين، وكذلك العضوية الدائمة في مجلس الأمن.

بعد وفاة «ماو تسي تونغ» في عام ١٩٧٦ م؛ عاد الصراع على السلطة من جديد، وتم الانفراد بما يُعرف بـــ «عصابة الأربعة» التابعة لـــ «تاو»، والتي كانت تسيطر بشكل حازم وقاسٍ على أجهزة السلطة في الحزب الشيوعي الصيني خلال المراحل اللاحقة من الثورة الثقافية؛ بسبب تجاوزهم في حق الشعب الصيني، ذلك الفصيل السياسي الذي خُلق لخدمة «ماو»؛ والمتألف من أربعة مسئولين في الحزب الشيوعي الصيني هم: «جيانغ تشينغ» (الزوجة الأخيرة لـــ: ماو تسي تونغ)، و «تشانغ تشون تشياو» ، و« ياو وين يوان»، و«وانغ هونغ ون»، وبالقبض عليهم؛ بدَا وكأن هناك قضاءً نوعيًّا على التسلُّط؛ ونهاية حقبة سياسية مضطربة في الصين.

تفوق «دنغ شياو بينغ» في المناورة على الرئيس الذي عُين خليفة لـ «ماو»، «هوا جوفينج»، وبرز تدريجيًّا كزعيم فِعْلي على مدى السنوات القليلة التالية، في ظل فقدان «هوا» التدريجي للسلطة(576) .

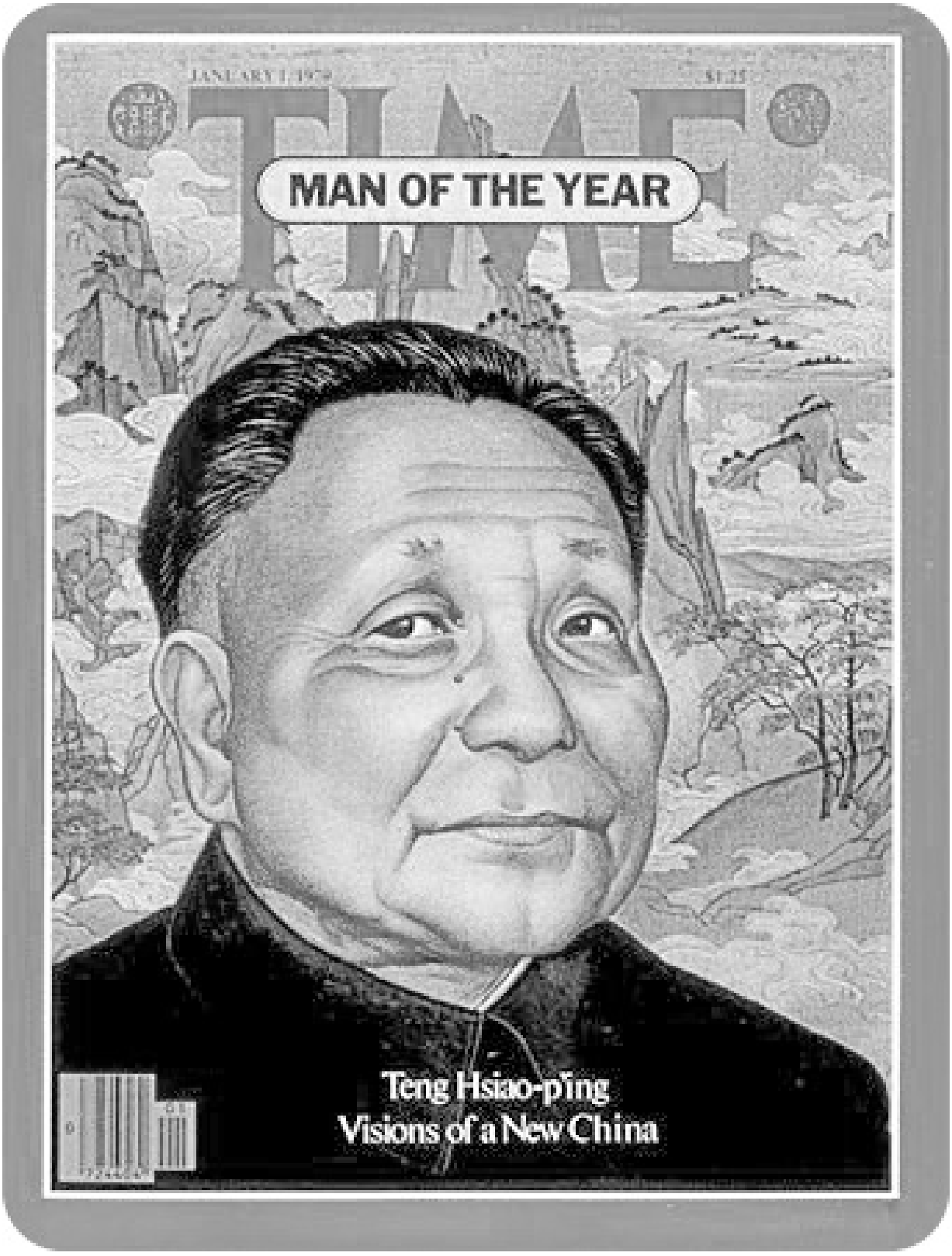

«دنغ شياو بينغ» (١٩٠٤-١٩٩٧م)، تصدَّر غلاف مجلة (التايم) عدة مرات بوصفه مهندس الإصلاح والانفتاح الصيني على العالم.

بالفعل أصبح المتنافس «دنغ شياو بينغ» هو الزعيم الأعلى للصين في عام ١٩٧٨ م، ومع وصوله للسلطة ظهرت تحولات غير مسبوقة؛ بعدما أمر الحزب الشيوعي بتقليل الحِدَّة في قراراته، وتمرير القليل من الحريات للشعب، وتقليل سيطرة الحكومة على الحياة الشخصية للمواطنين، ومن ثَم تمّ حل التجمعات الزراعية المشتركة التي كانت مأساوية، وحصل العديد من الفلاحين على عقود إيجار متعددة للأراضي، وقد تسبَّب هذا الإجراء في تحفيز الإنتاج الزراعي، من ناحية أخرى - تم افتتاح العديد من مناطق السوق الحرة، كانت هذه الإجراءات بمثابة تحول في الأحداث، حيث أدت سياسات دنغ الإصلاحية والانفتاح الاقتصادي إلى تطور غير مسبوق في تاريخ الصين، ووضعت علامة واضحة نحو انتقال الصين من الاقتصاد المخطط إلى الاقتصاد المختلط؛ مع بيئة سوق مفتوحة بشكل متزايد، وهو نظام وصفه البعض باسم «اشتراكية السوق»، بينما أطلق الحزب الشيوعي على هذا الإجراء» الاشتراكية ذات الخصائص الصينية»(577) .

اعتمدت جمهورية الصين الشعبية دستورًا جديدًا في ٤ ديسمبر ١٩٨٢م، وهو الدستور المعمول به حتى هذه اللحظة، ونحن على مشارف ٢٠٢٤م إن أراد لنا المولى الحياة.

حادث ميدان تيانانمين

في عام ١٩٨٩م؛ انطلقت احتجاجات طلابية عُرفت بـــ «احتجاجات ميدان تيانانمين» ببكين، أو «حادثة الرابع من يونيو»، قام خلالها الطلاب وغيرهم بحملات لعدة أشهر، رافعين شعار: «لا للفساد»؛ راغبين في إصلاح سياسي أكبر؛ مطالبين بإعمال الديمقراطية وحرية التعبير، واستمرت الاحتجاجات من ١٥ إبريل إلى ٤ يونيو، وبعد أسابيع من المحاولات الفاشلة بين المتظاهرين والحكومة الصينية للتوصل إلى حلٍّ سلمي؛ أعلنت الحكومة الصينية الأحكام العرفية ليلة ٣ يونيو؛ ونشرت قواتها لاحتلال الميدان، فيما يُشار إليه باسم مذبحة ميدان تيانانمن؛ حيث سقط في عملية إخلاء الميدان بالقوة أعداد كبيرة من القتلى، وشاع خبر الاقتحام في كافة الصحف العالمية، مما أدى إلى إدانة عالمية؛ وعقوبات ضد الحكومة الصينية(578) .

كان لهذا الحدَث عواقب طويلة المدى على الصين؛ فبموجب هذا الحادث فرضت الدول الغربية حظرًا على الأسلحة من وإلى الصين(579) ، وبرغم هذا التنديد الدولي، قمعت الحكومة الصينية احتجاجات أخرى تالية في جميع أنحاء الصين، ونفذت اعتقالات جماعية للمتظاهرين، ولم تُلقِ أذانًا للاتهامات الدولية، وفرضت رقابة صارمة على تغطية الأحداث في الصحافة المحلية والأجنبية التابعة لها؛ كما قامت بعملية تطهير واسعة للمسئولين المتعاطفين مع الاحتجاجات؛ ودعَّمت الحكومة وحدات الشرطة بقوات أكثر صرامة من أجل مكافحة الشغب(580) .

تسبَّب هذا الحدث الفارق في تاريخ الصين؛ في توقف الإصلاحات السياسية ومحاولة رفع القيود بشكل محدود؛ والتي بدأت في عام ١٩٨٦م، وبسبب هذه الاحتجاجات تم وضع قيود أكبر على التعبير السياسي في الصين والمستمر إلى يومنا هذا(581) ، وهو واحد من أهم الأحداث

والمواضيع الحساسة؛ والخاضعة لرقابة عالية على نطاق واسع في عموم الصين(582) .

مرحلة ما بعد تيانانمين

جيانغ زيمين: رئيس الصين سابقًا، والأمين العام للحزب الشيوعي الصيني (١٩٨٩-٢٠٠٢).

تاريخيًّا؛ بدأت مرحلة عُرفت باسم مرحلة ما بعد «مذبحة ميدان تيانانمن»، المُتمثلة في قيادة «جيانغ زيمين» الأمانة العامة للحزب الشيوعي الصيني ورئاسة جمهورية الصين الشعبية، ومعه «تشو رونغجي» في رئاسة الوزراء؛ في مرحلة التسعينيات أو ما بعد تيانانمن، ولمدة عشر سنوات في ظل إدارة جيانغ وتشو، تمكن الأداء الاقتصادي في جمهورية الصين الشعبية من القفز السريع، ونجح في انتشال ما يقدر بنحو ١٥٠ مليون فلاحٍ من الفقر، كما حافظ على معدل نمو سنوي في الناتج المحلي الإجمالي بلغ ١١.٢٪ (583) ، هذا النجاح منقطع النظير؛ هو الطريق المضيء لجهود الصينيين لانضمام بلادهم إلى منظمة التجارة العالمية، حتى حدث ذلك بالفعل رسميًّا في عام ٢٠٠١ م.

ثمةَ نجاحٍ آخرَ مهم حدث بحلول عامي ١٩٩٧ و ١٩٩٩ م، حيث أصبحت المستعمرات الأوروبية السابقة لهونج كونج البريطانية وماكاو البرتغالية، منطقتين إداريتين خاصتين لهونج كونج وماكاو لجمهورية الصين الشعبية على التوالي.

على الرغم من أن هذه القفزة الاقتصادية نادرًا ما تحدُث بهذا النجاح في التاريخ، فإنّ الحكومة الصينية منذ بداية الألفية الجديدة لديها قلقٌ تامٌّ من أن النمو الاقتصادي السريع ربما يتسبب في تدهور موارد البلاد وبيئتها، بالإضافة إلى أن المجتمع الصيني لم يستفِد كليًّا من هذا الانفتاح الاقتصادي، حيث توجد قطاعات لا تستفيد من التنمية الاقتصادية، وهناك فجوة مُتسعة بين المناطق الحضرية والريفية؛ لذلك انخرطت الحكومة الصينية في دراسة هذا الخلل، ثم خرج الأمين العام السابق للحزب الشيوعي الصيني والرئيس «هو جين تاو» ورئيس مجلس الدولة «ون جيا باو» ، بما يُعرف بـــ «سياسات معالجة قضايا التوزيع العادل للموارد» (584).

من ناحية أخرى، أقدمت الحكومة الصينية على تهجير أكثر من ٤٠ مليون مزارع من أراضيهم بحجة التنمية الاقتصادية، وقد ترتب على هذه الإجراءات القسرية انطلاق أكثر من ٧٨ ألف مظاهرة مصحوبة ببعض أعمال شغب في جميع أنحاء الصين في عام ٢٠٠٥ م، وبالطبع تمَّ قمعهم(585) .

استمر الإصلاح الاقتصادي في تعزيز اقتصاد البلاد في العقود التالية، وبالنسبة لكثير من سكان جمهورية الصين الشعبية، تحسَّنت مستويات المعيشة بشكل كبير للغاية وظهرت بعض الحريات مقارنةً بالعقود السابقة، على الرغم من أن القيود السياسية ظلت مشددة، وما زالت المناطق الريفية فقيرة(586) .

من ناحية أخرى، الصين تَعْتَبر تايوان جزءًا لا يتجزأ من الأراضي الصينية، وأنها لا بد أن تعود إلى كنف «الوطن الأم» في يومٍ ما، وقد تسبب هذا الخلاف في الماضي إلى العديد من التوترات والتهديدات الصينية بغزو تايوان، ولكن الحكومتين بدأتا منذ عام ٢٠٠٨ بسلوك يتسم بالتعاون، لكن هذه التوترات تجددت في السنوات القليلة الماضية، فما القصة؟

بهروب شيانغ وبقايا حكومة الكومينتانغ إلى تايوان في عام ١٩٤٩ م؛ وجَعلِها مقرًّا للحكومة، سيطر القوميون على السياسة هناك؛ وبعد وفاة «شيانغ كاي شيك» أقدَم نجله: «شيانغ تشينغ كو» على ميراث السلطة؛ وبعد وفاة الثاني في عام ١٩٨٨ م؛ واصل خليفته الرئيس «لي تنغ هوي» المعروف باسم «أبو الديمقراطية» تحويل الحكومة إلى نظام ديمقراطي، ونقل المزيد من السلطة الحكومية إلى المواطنين التايوانيين المولودين، وخضعت تايوان لعملية التوطين، وشرّع تغييرات دستورية جديدة للاتجاه نحو نهج سياسي أكثر ديمقراطية، مما أدى في النهاية إلى انتخاب «تشين شوي بيان»؛ أول رئيس من خارج حزب الكومينتانغ في الجزيرة عام ٢٠٠٠ م.

أما عن تاريخ العلاقات بين الصين وتايوان؛ فظهرت أول محاولة لتقارب الأطراف في نهايات الثمانينيات، حينما طرحت الصين صيغة جديدة تُعرف بـــ «دولة واحدة ونظامان»، وفيها عرضت الصين على تايوان إعادة التوحيد مقابل استقلالية كبيرة، رفضت تايوان العرض؛ لكنها خفَّفت من القيود الخاصة بالزيارات والاستثمار في برِّ الصين، ومع حلول عام ١٩٩١ م؛ أعلنت تايوان انتهاء الصراع القائم مع جمهورية الصين الشعبية، كان هذا شعاع شمس من أجل إضاءة نفق التوتر المظلم؛ لكن إصرار الصين على عدم اعترافها بحكومة جمهورية الصين التايوانية وأنها غير شرعية؛ تسبب في عدم إمكانية عقد الاجتماعات الدبلوماسية بين الحكومتين(587).

مع انتخاب الرئيس التايواني «تشين شوي بيان» في عام ٢٠٠٠ م؛ أعلن تبنيه للاستقلال، وعلى إثر ذلك، أصدرت الصين ما يسمى بـــ «قانون مناهضة الانفصال»، وهو ببساطة يتضمن أحقية الصين في استخدام أي وسيلة سواء أكانت سلمية أو غير سلمية ضد تايوان؛ إذا حاولت الانفصال رسميًّا.

بعد فوز «دونالد ترامب» في الانتخابات الأمريكية في عام ٢٠١٦؛ كان على منصب السلطة في تايوان الرئيسة» «تساي إنغ ون»، وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة قطعت علاقتها الرسمية مع تايوان منذ عام ١٩٧٩ م؛ تواصلت هاتفيًّا مع ترامب، وخلال المكالمة تعهد ترامب بتزويد تايوان بأسلحة دفاعية ضد أي هجوم محتمل، غضبت بكين وأصدرت تصريحات غاضبة ضد أي محاولة لاستقلال تايوان، ومنذ عام ٢٠١٨ قامت بالضغط على الشركات الدولية من أجل إدراج تايوان كجزء من الصين في مواقعها على الإنترنت، وهدّدت هذه الشركات بمنعها من ممارسة الأعمال التجارية في الصين إذا لم تنفذ الطلب(588).

في نفس العام، أرسلت الولايات المتحدة مبعوثًا رفيع المستوى من خارجيتها إلى تايوان، في أول زيارة رسمية من نوعها منذ عقود، وبصيغة شديدة اللهجة قالت الصين: إن مجرد التلويح بانفصال تايوان؛ سيُلحِق ضررًا بالغًا بالعلاقات الأمريكية الصينية، وخلال وقت الزيارة، أجرت الصين تدريبات عسكرية بالذخيرة الحية في الممر المائي الذي يفصل الجزيرة عن البر الرئيس بمنتهى الحِدة والحماس.

دائمًا ما كانت الصين تستشهد بهونغ كونغ وحكمها الإداري المستقل لتُغري تايوان بالانضمام؛ لذلك كانت هونغ كونغ بالفعل تحت الميكروسكوب التايواني لمتابعة هذا الإجراء، لكن مع حلول عام ٢٠٢٠ م، شهدت هونغ كونغ شهورًا من الاضطرابات، بعدما تظاهر الكثيرون ضد النفوذ المتزايد للبر الصيني الرئيسي، وهو ما أحبط التايوانيون المائلون إلى الانضمام، خاصة بعدما تلا ذلك تطبيق الصين لقانون الأمن القومي في هونغ كونغ.

في عام ٢٠٢١ م؛ عندما تسلَّم الرئيس «جو بايدن» أعلنت إدارته أن الولايات المتحدة تتعهد تجاه تايوان بعلاقات متينة للغاية، ردًّا على ذلك؛ أبلغت تايوان عن توغلٍ كبيرٍ من قبل الطائرات الحربية الصينية للأجواء التايوانية على مدار يومين(589).

وبهذا الغضب الواضح؛ تعتبر الصين أن تايوان مقاطعة انفصلت عنها، وتعهدت استعادتها بالقوة لو تطلب الأمر، في نفس الوقت؛ ترى تايوان أنها دولة ذات سيادة على أراضيها؛ وتمتلك دستورًا خاصًّا، وقائمة على ديمقراطية شفافة قليلة الوجود في كل أطراف العالم، ولها حوالي ٣٠٠ ألف جندي، على الرغم من أن ١٤ دولة من أصل ١٤٣ دولة في الأمم المتحدة، بالإضافة إلى الكرسي الرسولي، هم من يعترفون بها كدولة فقط، مما يجعل وضعها القانوني غير محسوم إلى الآن(590).

وبسبب كل ما ورد، ليس هناك أي تأكيد حول ماهيتها، أهي دولة في شرق آسيا؟ أم أنها إقليم في جمهورية الصين الشعبية؟

وفي نهاية سير الأحداث لا ننسى أن نَذْكر أنّ من الصين انطلق الوباء العالمي كوفيد-١٩، الذي ظهر في ووهان؛ وهوبي؛ في عام ٢٠١٩ م، أدى إلى وباء عالمي(591).

* * *

٣ - الصين الحالية

(الصين على مشارف ٢٠٢٤)

الصين حاليًّا هي ثاني أكبر دولة في العالم من حيث عدد السكان، حيث يتجاوز عدد سكانها أكثر من ١.٤ مليار نسمة، وتمتد على ما يعادل خمس مناطق زمنية، وتتشارك الحدود مع أربع عشرة دولة برًّا، (أهمهم روسيا)، لأنهما يتشاركان في أكبر مساحة حدودية من أي دولة أخرى في العالم وتبلغ مساحتها حوالي ٩.٦ ملايين كم^2 (٣,٧٠٠,٠٠٠ ميلًا مربع)، وهي ثالث أكبر دولة من حيث إجمالي مساحة الأرض، وتنقسم البلاد إلى ٢٢ مقاطعة، خمس مناطق ذاتية الحكم، وأربع بلديات، ومنطقتين إداريتين خاصتين تتمتعان بحُكم شِبه ذاتيٍّ.

* * *

صين ٢٠٢٣

وصل هذا البلد لما هو عليه الآن بعد مروره بالأحداث الفريدة طِيلة آلاف السنين، حتى أصبح

كِيانًا ضخمًا مشاركًا في غالبية أحداث الكوكب، والمعروف حاليًّا بدولة الصين الشعبية، بعد ما أُطلق عليه العديد من المسميات في القِدم.

التسمية

في القِدم أطلق الصّينيّون على بلادهم اسم «تشونغوا» 中國(Zhōngguó) ، وترجمته مصطلح: «البلد الأوسَط»، أو بمعنى أعمق: «الدولة المركزية»، والسبب في التسمية أن أهل الصين القُدامى كان لديهم اعتقاد بأن بلادَهم تتوَسَّط الكرة الأرضية، وبسبب انطوائهم في بادئ الأمر كانوا على يقينٍ بأنهم هم الشعب الوحيد الذي يملك حضارة، لاحقًا أصبح هذا الاسم من الأسماء الأكثر شيوعًا للصين، نسبةً لاكتشاف الوعاء البرونزي «هي زون» (الذي يرجع تاريخه إلى ١٠٣٨ - ١٠٠٠ ق.م)، وتحديدًا خلال أوائل فترةِ تشو الغربية؛ والذي وثَّقَ هذا الاسم، فاسم «تشونغوا» كان شائع الاستخدام في فترة الدول المتحاربة (٤٧٥-٢٢١ ق.م) وفترة جين الشرقية، عندما تمت الإشارة إلى ولايات وادي النهر الأصفر في عصر تشو(592) ، ولكن لم يستمر المسمى كما هو على طول الوقت، فقد أطلق على الصين عدة أسماء أخرى، على سبيل المثال، تم استخدام أسماء الأسر الحاكمة للدولة في الإمبراطوريات الصينية، مثل «هان»، و«تانغ» و«مينغ العظيم» و «تشينغ العظمى»، واستمر ذلك حتى القرن التاسع عشر، حتى تطلب النظام الدولي اسمًا ولغة قانونية مشتركة(593) .

تتضمن أسماء الصين العديد من التسميات المعاصرة والتاريخية الواردة بلغات مختلفة لدولة شرق آسيا المعروفة باسم «تشونغوا»؛ لذلك ستجد اقتراحات وتفسيرات بديلة لأصل الكلمة، وقد اجتهد المؤرخون والخبراء اللغويون حول توضيح الأصول المختلفة للمسمى، ففسرها بعضهم بأنها كلمة تم اشتقاقها من اللغة الفارسية «جين»(cīna)، والتي تعنِي الأُمة، وهي أصل لجميع المسميات الأوروبية المعاصرة لهذا البلد على حد وصفهم، وهذه الكلمة الفارسية أصلها يعود للكلمة السنسكريتية «تشيناس»(594) ، وكذلك نجد في مخطوطة «مهابهاراتا»(أ) الهندوسية، و«مجموعة قوانين مانو»(س) ، ذكر لهذه البلاد بنفس الاسم «تشيناس»، وتم توضيح أنها تقع شرق الهند، وتحديدًا وراء الحدود التبتية البورميّة.

ظهرت كلمة «china» لأول مرة في ترجمة «ريتشارد إيدن» عام ١٥٥٥م لمجلة المستكشف البرتغالي «دوارتي باربوسا» (ع)الصادرة عام ١٥١٦(595) ، وقد ذكر المؤرخ الإيطالي الصيني «مارتينو مارتيني»(ف) ، أنها مشتقة من كلمة «تشين» (بالصينية)، ومعناها أقصى الممالك وقوعًا إلى الغرب في عهد سلالة تشو، أو تيمنًا بسلالة تشين نفسها التي حكمت الصين خلفًا لسلالة تشو، والتي تعتبر صاحبة الفضل في توحيد الأمة.

تفسير آخر قال بأنها مُشتقة من الاسم الذي أطلقه شعب مملكة «يلانغ» القديمة على أنفسهم، حيث كتبوا أنهم «زينيّون» وبلادهم هي «زاينا»، ومن ثَم تحرف الاسم إلى «تشاينا»، وتحت أي

سبب من كل هذه الأسباب دخل الاسم إلى أوروبا لأول مرة عن طريق الرحّالة البُندقي «ماركو بولو» الذي وصَل في عهد يوان من أجل الاستكشاف(ص) .

المساحة

هي ثالث أكبر دولة مساحة في العالم لا يسبقها غير روسيا وكندا إذا اعتمدنا على الحساب الصيني، لكنها الرابعة عالميًّا بعد روسيا وكندا والولايات المتحدة الأمريكية إذا اعتمدنا على الحساب الأمريكي، فالمساحة الكليّة للصين على (الأرجح) تساوي: ٩.٥٩٦.٩٦١ كم²، أما مساحة اليابسة (على الأرجح) تساوي:٩.٥٦٩.٩٠١ كم²، ومساحة المياه تساوي: ٢٧٠.٠٦٠ كم²، وإذا قارنا مساحة الصين بمساحة الولايات المتحدة، على سبيل المثال، فسنجد الصين أقل قليلًا، وهذا لم يَلقَ موافقة أو قبولًا واضحًا لدى النخبة الصينية، فلا جدَل ولا جِدال في أن الصين هي ثاني أكبر دولة في العالم من حيث مساحة البر(596) ، لكن بخصوص الأرقام والمساحات تم استخدام مصطلح (على الأرجح) بسبب:

أولًا: الخلافات والادعاءات المختلفة حول مساحة الصين الكلية، فالأمر ما زال حوله جدل، ربما يتم تأكيد هذه الحسابات فقط بعد التأكد من صحة ادعاءات الصين حول أراض مثل «أكساي تشين»، والمسالك عبر «كاراكورام» (حيث تطالب بهما الهند وتعدهم من أملاكها الإقليمية) بالإضافة إلى «تايوان».

السبب الثاني والأهم: هو كيفية حساب الحجم الإجمالي للولايات المتحدة، فقد بدَا وكأن لها حسابين، ففي «كتاب حقائق العالم» (الذي نشرته وكالة المخابرات الأمريكية) تجد الولايات المتحدة مساحتها ٩,٨٢٦,٦٣٠ كم٢ (٣,٧٩٤,٠٨٠ ميلًا مربعًا)(597) ، بينما تُكذّبه الصين وتعترف بما ورد في «الموسوعة البريطانية» ٩,٥٢٢,٠٥٥ كم٢ (٣,٦٧٦,٤٨٦ ميلًا مربعًا) (598) ، فأصبح من الواضح أن هناك حسابات اعتبارية مختلفة لمساحات الدول؛ لا سيما الكبيرة إقليميًّا، تداخلت فيه الصراعات السياسية والثقافية والعرقية للأسف الشديد، وربما هذه الحسابات المعقدة هي أوضح نهاية ننهي بها سردنا لتاريخ الصين المعقد.

على كل حالٍ، المسافة بين أقصى نقطة في شمال الصين إلى أقصى نقطة في جنوبها حوالي ٥٥٠٠ كم، وتمتد من الشرق إلى الغرب حوالي ٥٢٠٠ كم.

حدود استثنائية

في واحدة من المشاهد النادرة؛ نجد الصين مشتركة في الحدود البرية الدولية مع ١٤ دولة ذات سيادة، ضف إليهم حدودًا داخلية بطول ٣٠ كم (١٩ ميلًا) مع منطقة هونغ كونغ الإدارية الخاصة، تلك المنطقة التاريخية التي كانت تابعة لبريطانيا قبل عام ١٩٩٧م، وحدود داخلية بطول ٣ كم (١.٩ ميل) مع ماكاو، التي كانت برتغالية حتى عام ١٩٩٩م، وتمتلك الصين أطول حدود برية إجمالية لأي بلد على الإطلاق، حيث يبلغ امتداد حدودها البرية ٢٢,١١٧ كم² (١٣,٧٤٣ ميلًا)،

وهي الأطول في العالم، وعبر هذا العمق الطويل يتاخم الصين(599) :

من الشرق: كوريا الشمالية.

ومن الشمال: منغوليا.

ومن الشمال الشرقيّ: روسيا.

ومن الشمال الغربيّ: كازِخِستان، وقرغيزستان، وطاجِكستان.

ومن الغرب والجنوب الغربيّ: أفغانستان، وباكستان، والهند، ونيبال، وسيكيم، وبوتان.

ومن الجنوب، بورما، ولاوس، وفيتنام.

أما حدودها البحرية: كوريا الجنوبية، واليابان، والفلبين، وبروناي، وماليزيا، وإندونيسيا.

وتُطِلّ الصين من الشرق والجنوب على بَحر بوهاي، ولك أن تتخيل أن في مناطقها البحرية تمتلك أكثر من خمسة آلاف جزيرة، أكبرها جزيرة تايوان (إذا اتبعنا وجهة النظر الصينية)، التي تبلغ مساحتها منفردة ٣٦ ألف كم²، وتليها جزيرة هاينان، وتبلغ مساحتها نحو ٣٤ ألف كم².

وتمتلك الصين جميع الأنواع الطبوغرافية الخمسة الأساسية في العالم، التي تعتبر هي الركائز الطبيعية لتهيئة الظروف من أجل تطوير الصناعة والزراعة.

خريطةُ الصين العمالقة.

تضاريس الصين

الجبال

تتميز الصين بطبيعة خلابة غير متشابهة من التضاريس الطبيعية، التي تميزها سلاسل الجبال المتناثرة في اتجاهات مختلفة في جميع أنحاء البلاد، وتلك الجبال يمتد معظمها من الغرب إلى الشرق ومن الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، ماعدا قلة قليلة ممتدة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي من الشمال إلى الجنوب، وهي من المشاهد الطبيعية الفريدة التي تبدو وكأنها مرتبة بنمط شبكي مترادف، يشبه بشكل جَليٍّ رقعة الشطرنج، متوزعةً كما يلي:

خريطة السِّمات المادية الرئيسية للصين.

١- السلاسل الغربية ـ الشرقية:

وهي مكونة من ثلاث مجموعات جبلية:

(في الشمال): سلسلة تياتشان، وسلسلة ينشان.

(في الوسط) سلسلة كوناون، وسلسلة تشينلينغ.

(في الجنوب) سلسلة جبال نانلينغ.

٢- السلاسل الشمالية الشرقية ـ الجنوبية الغربية

وهي مكونة من ثلاث مجموعات جبلية:

(في الغرب): جبال شينغآن الكبرى، وجبال تايهانغ، وجبال ووشان، وجبال شيويفنغ.

(وفي الوسط): جبال تشانغباى، وجبال رويى.

(وفي الشرق): جبال تايوان.

٣- السلاسل الشمالية الغربية ـ الجنوبية الشرقية

هي الجبال الموجودة في الغرب والمنقسمة إلى مجموعتين:

جبال تشيليان.

وجبال آلتاي.

٤- السلاسل الشمالية الجنوبية

وهي جبال خلان، وجبال هنغدوان، وفي هذه المنطقة تلتقي جبال هيمالايا بسلاسل جبال هنغدوان وغيرها، وفي النهاية أنتجوا شكلًا مميزًا من السلاسل الجبلية العملاقة التي أصبحت قوسية الشكل.

يتميز هذا العدد الكبير من الجبال بالقمم الشاهقة والمشهورة، فمنهم تسعة جبال يبلغ متوسط ارتفاعها أكثر من ٦٠٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر، وأكثر من ٢٠ قمة يبلغ متوسط ارتفاعها أكثر من ٤٠٠٠ متر فوق سطح البحر، أما أشهرهم: جبال الهيمالايا أعلى جبال الصين، وتمتد

عبر حدودها مع الهند ونيبال، ويبلغ ارتفاع أعلى قممها تشومولانغما، أو المعروف باسم «إفرست» حوالي: ٨،٨٤٩ مترًا فوق سطح البحر، وهي أعلى قمة في العالم على الإطلاق(600) .

الصين بها أيضًا جبال ضخمة شاهقة أخرى، على سبيل المثال، يتراوح متوسط ارتفاع جبال كونلون بين ٥٥٠٠ و٦٠٠٠ مترًا فوق سطح البحر، وهي تمتد من الغرب إلى الشرق عبر منطقتي شينجيانغ والتبت؛ ومقاطعتي تشينغهاي وسيتشوان، وأخرى بطول يتجاوز ٢٥٠٠ كيلومتر وعرض بين ٢٠٠ و٥٠٠ كيلومتر، وتعد أطول وأعرض جبال داخل حدود الصين.

من الأمثلة النادرة الأخرى توجد جبال تانغقولا الواقعة وسط هضبة «تشينغهاي - التبت، ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ٦٠٠٠ متر، وهي منبع نهر يانغتسي العريق - أطول نهر في الصين، وجبال تشينلينغ التي تمتد من شرقي مقاطعة قانسو غربًا، إلى غربي مقاطعة خنان شرقًا، ويتراوح ارتفاعها بين ٢٠٠٠ و٣٠٠٠ متر فوق سطح البحر(601) .

الهضاب

تتميز الصين بوجود أربع هضاب كبيرة وهم:

١- هضبة تشينغهاي - التبت (تشينغتسانغ)

تعتبر هي أعلى هضبة في العالم، حتى ائتلف العلماء على تسميتها بـ:«سقف العالم»، فهذه الهضبة المهولة يزيد متوسط ارتفاعها على ٤٠٠٠ متر.

٢- هضبة منغوليا الداخلية

التي تحتوي على منطقة منغوليا الداخلية.

٣- هضبة التراب الأصفر المعروفة باسم (اللوس)

تغطي هذه الهضبة معظم المناطق المتعمقة في نطاق ست مقاطعات أشهرهم: «شنشي» و«شانشي».

٤- هضبة يونان- قويتشو

أما هذه الهضبة فتغطي شرقي مقاطعة يونان؛ ومعظم مناطق مقاطعة قويتشو، ومن أهم سماتها التضاريس الكارستية العجيبة(ق) .

السهول

تحتوي الصين على ثلاثة سهول، ترتيبهم من حيث الأكبر كما يلي(602) :

١- سهل شمال الصين الشرقي

وهو السهل الواقع في شمال شرق الصين، والذي يبلغ مساحته أكثر من ٣٥٠ كم^2.

٢- سهل شمال الصين

وهو السهل الواقع في منطقة الصين الداخلية، ومساحته حوالي ٣٠٠ ألف كم^2.

٣- سهل المجريين الأوسط والأسفل لنهر اليانغتسي

وهو عبارة عن سهول متصلة حول المجرى الأوسط والأسفل لنهر «يانغتسي»، وتبلغ مساحتهم حوالي ٢٠٠ ألف كم².

وتتميز الهضاب العالية في الصين بالمشهد الطبيعي القاحل مثل صحراء تكلامكان وصحراء غوبي.

الصحراء

تمتلك الصين منطقتين صحراويتين هما الأكبر والأشهر:

١ - صحراء جوبي

هي الصحراء الثانية في ترتيب أكبر الصحاري في آسيا، والسادسة عالميًّا، وهي من صحاري الظل المطري(ر) ، يبلغ مساحتها ١,٣٠٠,٠٠٠ كم²؛ وقد تشكَّلت من هضبة التبت التي تمنع هطول الأمطار من المحيط الهندي وصولًا إلى إقليم جوبي، وهذه الصحراء من الصحاري سريعة التوغل والاتساع، وتغطي جوبي أجزاء من الشمال والشمال الشرقي للصين وجنوب منغوليا، وتعتبر هذه الصحراء حدًّا طبيعيًّا فاصلًا بين منغوليا الداخلية ومنغوليا الخارجية، وتتجلى الطبيعة في زينتها هناك لتُشكل أحواضًا صحراوية تحتضنها من جميع الجهات، فمن الشمال تقف المراعي وجبال ألتاي والسهوب بمنغوليا، ، ومن جنوب الغرب هضبة التبت وممر قانسو، وسهل شمال الصين من الجنوب الشرقي، ومن الغرب تقبع صحراء تكلامكان (603)

٢- صحراء تكلامكان

تعتبر من أجمل صحاري العالم، وتحتل المرتبة ١٧ من حيث الحجم في تصنيف أكبر الصحاري في الأرض، وهي ثاني أكبر صحراء رملية متحركة في العالم، حيث يتكون حوالي ٨٥٪ منها من الكثبان الرملية المتحركة، تبلغ مساحتها ٣٣٧,٠٠٠ كم²، ويمر من حافتها الشمالية والجنوبية فرعان من طريق الحرير، الذي سعى المسافرون من خلاله إلى تجنُّب الأراضي القاحلة، وتحدها جبال كونلون في الجنوب، وصحراء جبال بامير وتيان شان من الغرب والشمال، وهي جزءٌ من حوض تاريم (604).

الأحواض

في الصين أربعة أحواض هم:

١- حوض تاريم

الذي يعتبر هو أكبر أحواض الصين، وهو موجود داخل منطقة «شينجيانغ»، ويضم صحراء «تاكلامكان» كما ذكرنا.

٢- حوض جونغار

الذي يقع داخل منطقة «شينجيانغ» أيضًا.

٣- حوض تشايدام

وهو أعلى حوض في الصين، ويقع داخل مقاطعة «تشينغهاي».

٤- حوض سيتشوان

هو الحوض المعروف بأنه الحوض الأشد رطوبة في الصين، ويقع داخل مقاطعة «سيتشوان».

طبيعة سطح الأرض

في ظاهرة فريدة ينحدر سطح الأرض الصينية من الغرب إلى الشرق في ثلاثة مدرجات:

المستوى الأول:

هضبة تشينغهاي - التبت بجنوب غرب الصين

المستوى الثاني:

يمتد سطح الأرض شمالًا من هضبة تشينغهاى - التبت؛ عبر سلاسل جبال كوناون وتشيليان، وشرقًا عبر جبال هنغدوان، وبعدها تهبط الأرض فجأة إلى الهضاب والجبال والأحواض من ارتفاع ٢٠٠٠ م إلى ١٠٠٠ م فوق سطح البحر، حتى تُشكِّل لنا في النهاية الدرجة الثانية من السُّلَّم التي تتكون من هضاب يونان - قويتشو، واللوس، ومنغوليا الداخلية، وأحواض تاريم، وتشونقار، وسيتشوان.

المستوى الثالث:

وهو الدرجة السُّفلى من السُّلم والمأهول بالسكان، والذي يستحسنه غالبية سكان الصين، في شرق الخط الممتد من سلاسل جبال شينغآن الكبرى، وتايهانغ، ووشان، وشرقي طرف هضبة يونان - قويتشو إلى ساحل البحر، وفي هذا المستوى التلال أقل من ١٠٠٠ م، والسهول أقل من ٢٠٠ م فوق سطح البحر.

وتعتبر منطقة سهل الشمال الشرقي وسهل الصين الشمالي على مجرى نهر يانغتسي الأوسط والأسفل؛ والتلال السفحية لجنوب نهر يانغتسي من الشمال إلى الجنوب؛ من أهم مناطق الصين وأميزها زراعيًّا وصناعيًّا، ويعود الفضل في ذلك إلى الظروف المناخية والجغرافية المتميزة، والتي استقطبت غالبية سكان البلاد، وبدورهم أقاموا فيها مدنهم الكبرى، أما إلى شرق هذا المستوى ستجد الجرف القاري الذي شكلته التجمعات الطبيعية التي نتجت من تآكل وتعرض الصخور لعمليات التعرية البيئية، والذي هو امتداد لليابسة في المحيط.

البحار

يبلغ طول سواحلها البحرية ١٨ ألف كم تقريبًا، وتبلغ مساحة أقاليمها البحرية حوالي ٤.٧ ملايين كم²، أي نصف مساحة البر الرئيسي للصين، وتحيط هذه البحار بيابسة الصين من الشرق والجنوب، وهم أربعة بحار(605):

بحر بوهاي - البحر الأصفر وخليج كوريا - بحر الصين الشرقي - بحر الصين الجنوبي.

تقع هذه البحار في الهامش الجنوبي الشرقي لقارة أوراسيا، ولهذه البحار جيولوجيا معقدة؛ وكذلك موارد طبيعية غنية، كما تضم ٥٤٠٠ جزيرة، ويعتبر بحر الصين من المكونات الرئيسية التي تميز الانتقال من قارة آسيا إلى المحيط الهادئ؛ ومن ثَم إلى خارج القارة(606) .

الأنهار

تكثر الأنهار في الصين بشكل واضح جدًّا، حيث يبلغ عدد الأنهار التى تتجاوز مساحات مجاريها ما فوق ١٠٠ كيلومتر مربع أكثر من ٥٠,٠٠٠ نهر، أما عدد الأنهار التى تتجاوز مساحات مجاريها ما فوق ١٠٠٠ كيلومتر مربع فيبلغ أكثر من ١٥٠٠ نهر، معظمهم يجري من الغرب إلى الشرق أو الجنوب؛ ويصبون في غرب المحيط الهادئ؛ وبعضهم يصرف في أنهار جنوب آسيا التي تصب في المحيط الهندي، مثل: «نوجيانغ ويارلونغ تسانغ بو، وقليلهم نحو الشمال يتجاوز الحدود الصينية؛ لينتهوا في المحيط المتجمد الشمالي، وآخرون مثل تاريم؛ و أولونغور؛ فى أقصى غرب الصين والأجزاء الجافة الأخرى من البلاد التي ليس لهم منافذ على البحر، ومن الأنهار الرئيسية في الصين شي وميكونغ وبراهمابوترا وأمور(جميعهم مثَّلوا تاريخًا استثنائيًّا للصين مع الماء)، ومن أهم الأنهار في الصين على الإطلاق النهر الأصفر المعروف صينيًّا باسم هوانغ هو، ونهر يانغتسي؛ المعروف باسم تشانغ جيانغ (607)، واللذان بدأنا حديثنا بهما.

الحيوانات والنباتات النادرة

تتميز الصين بالحيوانات والنباتات الكثيرة التي تعم غالبية أراضيها، ففي الصين يوجد أكثر من ٦٢٦٦ نوعًا مميزًا من الحيوانات الفقارية، وهذا الرقم يعتبر أكثر من ١٠٪ من أنواع الحيوانات الفقارية في العالم، ومن هذه الأنواع عدد ٢٤٠٤ أنواعٍ من الحيوانات البرية، و٣٨٦٢ نوعًا من الأسماك.

أما النباتات؛ فقد أنعم الله على الصين بأكثر من ٣٢ ألفَ نوعٍ من النباتات، منها أكثر من ٧٠٠٠ نوعٍ من النباتات الخشبية، وما يزيد على ٢٠٠٠ نوع من النباتات التي يمكن أكلها، وأكثر من ٣٠٠٠ نوع من الأعشاب الطبية.

كل هذه المزايا أضِف إليها أن الصين هي الأشهر في العالم من حيث الحيوانات والنباتات الفريدة النفيسة الخاصة، أميزها: الباندا، والسعدان الذهبي، ونمر جنوبي الصين، والتدرج بُني الأذن، والكركي أحمر التاج، وأبي منجل المتوج، والدولفين النهري الأبيض، وتمساح نهر يانغتسي.. وغيرها، وتعد الميتاسكوايا، وسرو الصين، وشجر التنوب الفضي، والأرز الذهبي، وتنوب تايوان، وسرو فوجيان، وقنب داود، ويوكوميا الكورتكس: أشجار خاصة بالصين وحدها(608) .

الصين داخليًا

الصين حاليًّا هي جمهورية اشتراكية موحدة؛ ما زال يحكمها حزب واحد «الحزب الشيوعي الصيني»، وعاصمتها حاليًّا : بكين، وأكبر مدينة اكتظاظًا بسكان الحضر: شنغهاي، أما اللغات المعترف بها حاليًّا: الصينية القياسية - الصينية المبسطة - المنغولية - التبتية - لغة الأويغور، وإجمالي عدد سكانها (تقديرات ٢٠٢٣): ١,٤١١,٧٥٠,٠٠٠ (609) .

العملة الخاصة بالصين هي اليوان (الرنمينبي)؛ والناتج المحلي الإجمالي (الاسمي) - نسبة لتقديرات ٢٠٢٣ - المجموع الكلي: ٧٠١ تريليون دولار - أما للفرد: ٥٤١ دولارًا.

الناتج المحلي الإجمالي (من حيث القوة الشرائية) - نسبة لتقديرات ٢٠٢٣ - المجموع الكلي: ٣٢.٨٩٨ تريليون دولار - أما الفرد: ٢٣,٣٠٩ دولارًا(610)

أما عرقيًّا: فيبلغ عدد العرقيات المختلفة في الصين الى ٥٦ عرقية مختلفة يمثلون ٩١.١٪ من الهان الصينيين - ٨.٩٪ من العرقيات الأخرى التي تعاني غالبيتها من التمييز العنصر (611) .

دينيًّا: يعتبر حوالي ٧٤.٥٪ من غير دين، بينما البوذية تأتي بالمرتبة الثانية بنسبة ١٨.٣ ٪ - ثم ثالثًا المسيحية بنسبة ٥.٢٪ - رابعًا الإسلام بنسبة ١.٦٪ - خامسًا معتقدات أخرى بنسبة ٠.٤٪ (612) .

حقوق الإنسان

تحتل الصين مرتبة سيئة فيما يتعلّق بحقوق الإنسان والديمقراطية والشفافية وحرية الصحافة، ولها سُمعة سيئة في القمع الديني والقمع العرقي، فبرغم الإصلاحات الاقتصادية التي شهدتها الصين منذ أواخر الثمانينيات؛ لم يلحق بها إصلاحات سياسية تُذكر، فالحزب الشيوعي الصيني - الذي يعتبر أكبر حزب سياسي في العالم الآن - ما زال يقبض بقوة على كل مفاصل الحياة السياسية والاجتماعية في البلاد(613) .

بحسب تقارير لوزارةِ الدفاع الأمريكية، تحتجز الصين أكثر من ٣ مليون شخصٍ من الأويغور وأعضاء الأقليات المسلمة الأخرى؛ في معسكرات اعتقال صينية شديدة الحراسة في منطقة شينجيانغ(614) وهي معسكرات مهينة تنتهك حقوق الإنسان، تم تشييدها منذ أواخر عام ٢٠١٠ تحت إدارة «شي جين بينغ»، وبحسب هذه التقارير تم اعتقال هذا العدد الكبير وقُتل الكثير منه منذ عام ٢٠١٧ م؛ بحجة «حرب الشعب على الإرهاب»، تلك السياسة التي تمَّ إعلانها في عام ٢٠١٤ م (615).

وبصرف النظر عن مصداقية تقارير وزارة الدفاع الأمريكية حول عدد المحتجزين أو لا؛ فالمعسكرات نفسها حقيقية، وهي موجودة فعليًّا، وقد تعرَّضت لانتقادات من قبل حكومات العديد من البلدان ومنظمات حقوق الإنسان؛ بسبب انتهاكات سرية مزعومة؛ لحقوق الإنسان في هذا المعتقلات؛ كالاغتصاب والتعذيب والإبادة الجماعية(616) .

مشكلات الصين البينية

الصين تعاني من قضايا بيئية خطيرة، تؤثَر بشدة على البيئة الفيزيائية الحيوية وصحة الإنسان هناك؛ على سبيل المثال، تعاني الصين بشكل حادٍّ من النفايات الصناعية؛ وكذلك لديها ندرة في مياه الشرب الصالحة، فبرغم هذا التقدم، يُعاني غالبية السكان من الحصول على مياه صحية؛ بسبب النقص الحاد في كمية المياه والتلوث الشديد في نوعيتها، وأدى تزايد عدد السكان والنمو الاقتصادي السريع؛ في ظل عدم التشديد على الرقابة البيئية؛ إلى تلوث مصادر مياه الشرب وزيادة الطلب على المياه الصحية، استجابت الصين بتدابير مثل البناء السريع للبنية التحتية للمياه وزيادة التنظيم وكذلك استكشاف عدد من الحلول التكنولوجية الإضافية؛ لكن استخدام المياه بواسطة مَحطّات الطاقة الفحمية يؤدي إلى جفاف شمال الصين(617).

والأصعب من ذلك؛ لا يتمتع بخِدْمات الصرف الصحي السليمة إلا حوالي ١٠ ٪ من إجمالي السكان، كما تعاني البلاد من عمليات إزالة الغابات، حيث فقَدت الصين ما يُقدر بنحو خُمس مساحتها الزراعية منذ عام ١٩٤٩م؛ بسبب تآكل التربة والتنمية الاقتصادية(618)، ضف على ذلك مشكلة التصحر الخطيرة؛ وكذلك التجارة في السلالات المعرضة للانقراض من النباتات والحيوانات.

الصين دوليًا

بشكلٍ رسميٍّ ومعلنٍ: الصينُ تمتازُ بما هو آتٍ:

- واحدة من الأعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة.
- عضوًا مؤسسًا في العديد من المنظمات مثل:

البنك الآسيوي للاستثمار في البنية التحتية - بنك التنمية الجديد - صندوق طريق الحرير - الشراكة الاقتصادية الشاملة الإقليمية.

- عضوًا في مجموعة العشرين (المنوطة بمناقشة السياسات المُتعلقة بتعزيز الاستقرار المالي الدولي).
- عضوًا في مجموعة البريكس (تحالفًا اقتصاديًّا)
- عضوًا في أبيك (منتدى التعاون الاقتصادي لدول آسيا والمحيط الهادئ)
- عضوًا في منظمة شانغهاي للتعاون.
- عضوًا في قمة شرق آسيا.

تُعتبر الصين أكبر اقتصاد في العالم من حيث الناتج المحلي الإجمالي عند تعادل القوة الشرائية، وثاني أكبر اقتصاد من حيث الناتج المحلي الإجمالي الاسمي، واقتصادها يُشكِّل حوالي خُمس الاقتصاد العالمي، وهي ثاني أغنى دولة في العالم، واقتصادها من أسرع الاقتصادات الكبرى نموًّا، وهي أكبر مُنتج ومصدر في العالم، وثاني أكبر مستورد.

عسكريًّا - تمتلك الصين السلاح النووي، وميزانية جيشها ثاني أكبر ميزانية دفاعية في العالم،

ولديها أكبر جيش دائم في العالم من حيث عدد الأفراد العسكريين، حيث يصل عدد القوات إلى ١.٦ مليون جندي.

تم بحمد الله

* * *

التواصلُ مع الكاتِبِ

يمكنُك إبداء رأيك حولَ هذا الكتابِ وتقيمه على موقع جود ريدز العالمي من خلال كتابةِ سم الكِتابِ في مربّع البحث؛ أو من خلال الوصول إلى حسابِ الكاتِب عليه عبر هذا الرابط:

www.goodreads.com/شريف سامي

كما يمكنُك الاستفادة من الشروحات التاريخيةِ للكاتبِ على صفحة الفيس بوك الخاصة به من خلال هذا الرابط:

www.facebook.com/المفتش - شريف سامي

وعلى اليوتيوب تحت اسم:

www.youtube.com/ المفتش - شريف سامي

أو التواصل معه مباشرة للمناقشة عَبر حسابه الشخصي على الفيس بوك من خلال هذا الرابط:

www.facebook.com/sherif.samy9(

وعلى الانستجرام من خلال هذا الرابط:

www.instgram/sherif_samy_ramadan

المراجع والمصادر

1 www.water - encyclopedia.com الموسوعة المائية - نهر يانغتسي الموسوعة المائية - نهر يانغتسي

(Gangchen Khishong, (001. Tibet and Manchu: An Assessment of Tibet - Manchu Relations in Five Phases of Development. Dharmasala: Narthang Press, p.1 - - 0.

3 منير البعلبكي، موسوعة المورد، «النهر الأصفر؛ هوانغ هو

4 جمال الدين الكيلاني، تاريخ الصين الإسلامي، مجلة الفكر الحر، بغداد، ٢٠١٦

5 www.arabic.china.org.cn

6 : brey, Patricia ((006). The Cambridge Illustrated History of China. Cambridge University Press. pp. 1(- 1. .

- Charles Keith Maisels (199)). The Near : ast: Archaeology in the «Cradle of Civilization. Routledge.

. Ge, Jianxiong; Hu, Yunsheng ((0(1), Ge, Jianxiong; Hu, Yunsheng (eds.), «The Yellow River and the Yellow River Civilization», A Historical Survey of the Yellow River and the River Civilizations, Singapore: Springer, pp. 1 - 4.

9 Wang, Haiming ((001), «Majiabang», in Peregrine, Peter N.; : mber, Martin, : ncyclopedia of Prehistory, Volume) : : ast Asia and Oceania, Springer, pp. (06 - ((1

10 University of Pittsburgh, Pennsylvania: Regional Lifeways and Cultural Remains in the Northern Corridor: Chifeng International Collaborative Archaeological Research Project.

11 «Rice and : arly Agriculture in China». Legacy of Human Civilizations. Mesa Community College.

1(Longshan - : ra Urbanism: The Role of Cities in Predynastic China

1) «Peiligang Site». Ministry of Culture of the People›s Republic of China. (00) .

14 Li, X; Harbottle, Garman; Zhang Juzhong; Wang Changsui ((00)). «The earliest writing? Sign use in the seventh millennium BC: at Jiahu, Henan Province, China». Antiquity. - - ((95):) 1 - 44.

15 Peggy Reeves Sunday, anthropologist, Women at the Center: Life in a Modern Matriarchy, Cornell University Press

16 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6, pp. 6:-

1- Chang, Kwang - chih (19. 6). The Archaeology of Ancient China (4th ed.). Yale University Press. p. 11(

1. Pollard, : lizabeth ((015). Worlds Together Worlds Apart. W.W. Norton & Company. pp. 69 - - 0.

19 Pringle, Heather (199.). «The Slow Birth of Agriculture». Science. (. ((5) 9)): 1446.

(0 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6, p. -

(1 Wertz, Richard R. ((00-). «Neolithic and Bronze Age Cultures». : xploring Chinese History.

((Sun, Bo ((01)), «The Longshan culture of Shandong», in Underhill, Anne P. (ed.), A Companion to Chinese Archaeology, John Wiley & Sons, p. 44. .

( ) Sun, Bo ((01)), «The Longshan culture of Shandong», in Underhill, Anne P. (ed.), A Companion to Chinese Archaeology, John Wiley & Sons, p. 44. .

(4 Wang, Mengge; Zou, Xing; Ye, Hui - Yuan; Wang, Z.; Liu, Y.; Liu, J.; Wang, Fei; Yao, Hongbing; Chen, P.; Tao, R.; Wang, Shouyu ((0(0). «Peopling of Tibet Plateau and multiple waves of admixture of Tibetans inferred from both modern and ancient genome - wide data». bioRxiv.

(5 Li, Feng ((01)), : arly China: A Social and Cultural History,

Cambridge University Press, p.) 5.

(6 Liu, Li ((005), The Chinese Neolithic: Trajectories to : arly States, Cambridge University Press, p. 59.

(- Zhao, Chunqing ((01)), «The Longshan culture in central Henan province, c.(600 - 1900 BC», in Underhill, Anne P. (ed.), A Companion to Chinese Archaeology, John Wiley & Sons, p. (50.

(. Peek, African Sibyl Systems: Ways of Knowing. Page (. Indiana University Press. 1991.

(9 Zhao, Chunqing ((01)), «The Longshan culture in central Henan province, c.(600 - 1900 BC», in Underhill, Anne P. (ed.), A Companion to Chinese Archaeology, John Wiley & Sons, pp. (50.

) 0 The previous reference, p.)) .

) 1 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6, p. .

) (The previous reference

)) «Ancient Chinese thoughts on abdication, hereditary succession relevant today». Asia Times.

) 4 World Religions: : astern Traditions. : dited by Willard Gurdon Oxtoby ((nd ed.). Don Mills, Ontario: Oxford University Press. (00(. pp.)(4,)(6.

) 5 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6, pp. . :9

) 6 Morton, W. Scott Morton. Morton, William Scott. Lewis Charlton M. ((005). China: its history and culture. McGraw - Hill. p. 14.

)- Liu, Li ((005), The Chinese Neolithic: Trajectories to : arly States, Cambridge University Press, pp. 190, ((6, ((. .

). Martini, I. Peter ((010). Landscapes and Societies: Selected Cases. Springer. p.) 10.

) 9 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6, p. 9

40 Allan, Sarah ((00-). «: rlitou and the Formation of Chinese Civilization: Toward a New Paradigm». The Journal of Asian Studies. 66 ((): p. 4-5.

41 Liu, Li; Xu, Hong ((00-). «Rethinking : rlitou: legend, history and Chinese archaeology». Antiquity. pp. . 9- - . 99.

4(«Teaching Chinese Archaeology, Part Two — NGA».

4) Liu, Li; Xu, Hong ((00-), «Rethinking : rlitou: legend, history and Chinese archaeology», Antiquity, . 1 () 14): p. . 9- .

44 The previous reference p. . 9. .

45 The : ditorial Committee of Chinese Civilization: A Source Book, City University of Hong Kong ((00-). China: Five Thousand Years of History and Civilization. City University of HK Press. p. (5.

46 Mungello, David : . The Great : ncounter of China and the West, 1500 - 1. 00 Rowman & Littlefield;) ed

4- Pankenier, David W. (19. 1), «Astronomical Dates in Shang and Western Zhou», : arly China. p. ( ) .

4. «史記: 本紀 : 夏本紀 - 中國哲學書電子化計劃». ctext.org (in Chinese (Taiwan)

49 Mark, Joshua J. «Ancient China». World History : ncyclopedia.

50 «Xia dynasty | Definition, Dates, & Facts». : ncyclopedia Britannica.

51 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6, p. 10

5(The previous reference p. 11.

5) «夏朝遗民流布情况概说». Zonghe.1-xie.com.

54 Wilkinson, : ndymion ((01.). Chinese History: A New Manual (5th

ed.). Cambridge: Harvard University Asia Center. p. - 56.

55 Boltz, William G. (February 19. 6). «: arly Chinese Writing, World Archaeology». : arly Writing Systems. p. 4) 6.

56 The Ancestral Landscape: Time, Space, and Community in Late Shang China (ca. 1(00 - 1045 B.C.), China Research Monograph, vol. 5) , Institute of : ast Asian Studies, University of California.

5- Keightley, David N. (1999). «The Shang: China›s First Historical Dynasty». In Loewe, Michael; Shaughnessy, : dward L. (eds.). The Cambridge History of Ancient China: From the Origins of Civilization to ((1 BC. Cambridge: Cambridge University Press. p. ( ) (.

5. A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6, pp. 1(:1)

59 Pines, Yuri ((00.). «To Rebel is Justified? The Image of Zhouxin and the Legitimacy of Rebellion in the Chinese Political Tradition». Oriens : xtremus. Harrassowitz Verlag. pp.) - 4, 10, 1(.

60 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6, pp. 1(:1)

61 The previous reference

6(Li, Feng ((01)), : arly China: A Social and Cultural History, Cambridge University Press, p. 6.

6) Shaughnessy, : dward L. (1999), «Western Zhou History», in Loewe, Michael; Shaughnessy, : dward L. (eds.), The Cambridge History of Ancient China, Cambridge University Press, pp.) 10,) 11.

64 Murthy, Viren ((006). «Modernity against modernity: Wang Hui›s critical history of Chinese thought». Modern Intellectual History. Cambridge Univ Press.) (1): 1) - - 165.

65 Pulleyblank, : dwin G. ((000). «Ji 姬 and Jiang 姜: The Role of : xogamic Clans in the Organization of the Zhou Polity». : arly China. Cambridge University Press. (5: 1 - (- .

66 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6, p. 15.

6- The previous reference p.16

6. «Considering Chengzhou (‹Completion of Zhou›) and Wangcheng (‹City of the King›)»

69 Chen Minzhen; Yuri Pines ((01.). «Where is King Ping?». Asia Major.) . Academica Sinica.) 1 (1): 1 - (- .

- 0 Records of the Grand Historian.

- 1 Hsu, Cho - yun (1965). Ancient China in Transition: An Analysis of

Social Mobility, -((- ((((B.C. Stanford Studies in the Civilizations of : astern Asia. Stanford University Press.

-(www.britannica.com/topic/Confucianism

73 تشن يوي تشن. لمحة عن الثقافة في الصين. (٢٠١٤). مشروع كلمة. هيئة أبو ظبي للسياحة و الثقافة

-4 The Shorter Routledge : ncyclopedia of Philosophy. : dited by : dward Craig. Routledge Publishing. (005.

-5 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6, p. 1.

-6 The previous reference

-- Ibid. p.19

-. Ibid

-9 Cartwright, Mark (July 1(, (01-). «Warring States Period». World History : ncyclopedia.

. 0 Cook, Scott ((010). «»San De» and Warring States Views on Heavenly Retribution». Journal of Chinese Philosophy.)-: 101 - 1( ).

. 1 Antonio S. Cua (ed.), (00) , p.)6(, : ncyclopedia of Chinese Philosophy [1] «The fifth important legalist, Shang Yang (Wei Yang, c.)90 -)). B.C.: .), was born in Wei; his original surname was Gongsun.»

. (Creel, Herrlee Glessner (19. (- 09 - 15). What Is Taoism? : And Other Studies in Chinese Cultural History. University of Chicago Press.

.) Sanft, Charles ((014). «Shang Yang Was a Cooperator: Applying Axelrod›s Analysis of Cooperation in : arly China». Philosophy : ast and West. 64 (1): 1-4 - 191.

. 4 Tanner, Harold ((010). China: A History. Hackett. pp. . 5 - . 9

. 5 Creel, Herrlee Glessner (19. (- 09 - 15). What Is Taoism ? : And Other Studies in Chinese Cultural History. University of Chicago Press.

. 6 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.

. - The previous reference

. . Qiu, Jane (- January (014). «Ancient times table hidden in Chinese bamboo strips. The (,)00 - year - old matrix is the world›s oldest decimal multiplication table». Nature.

. 9 «Bian Qiao». Britannica.

90 Yan, Hong - sen ((00-), Reconstruction Designs of Lost Ancient Chinese Machinery, History of Mechanism and Machine Science, No.), Dordrecht: Springer, §. .1: «Lu Ban the Man».

91 McNeilly, Mark R. ((001), Sun Tzu and the Art of Modern Warfare, Oxford University Press, p. 5.

9(A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.

9) The previous reference

94 Lewis, Mark : dward ((00-). The : arly Chinese : mpires: Qin and Han. London: Belknap Press. p. 1- . - p. 1. 6

95 Sima Qian ((00-). Records of the Grand Historian: Qin dynasty. Translated by Raymond Dawson. Columbia University Press. p. xxxix.

96 Müller, Claudius Cornelius ((9 May (0(1). «Qin Shi Huang | Biography, Accomplishments, Family, United China, Tomb, & Facts». : ncyclopædia Britannica. Chicago: : ncyclopædia Britannica, Inc.

9- China». Oxford : nglish Dictionary.

9. Bodde, Derk (19. 6). «The State and : mpire of Ch›in». In Twitchett, Dennis; Loewe, Michael (eds.). The Cambridge History of China, Volume 1: The Ch›in and Han : mpires, ((1 BC - AD ((0. Cambridge: Cambridge University Press. PP (0:50

99 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.) 0:) - .

100 Bodde, Derk (19. 6). «The State and : mpire of Ch›in». In Twitchett,

Dennis; Loewe, Michael (eds.). The Cambridge History of China, Volume 1: The Ch›in and Han : mpires, ((1 BC - AD ((0. Cambridge: Cambridge University Press. PP pp. 60 - 61.

101 : brey, Patricia Buckley (1999). The Cambridge Illustrated History of China. Cambridge: Cambridge University Press. p. 60.

10(Sanft, Charles. «The Qin dynasty (((1 - (06 BC:)». In Xiong & Hammond ((019), pp. 45

10) Bodde, Derk (19. 6). «The State and : mpire of Ch›in». In Twitchett, Dennis; Loewe, Michael (eds.). The Cambridge History of China, Volume 1: The Ch›in and Han : mpires, ((1 BC - AD ((0. Cambridge: Cambridge University Press. pp. 5. - 59.

104 The previous reference

105 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.) 0:) - .

106 Bodde, Derk (19. 6). «The State and : mpire of Ch›in». In Twitchett, Dennis; Loewe, Michael (eds.). The Cambridge History of China, Volume 1: The Ch›in and Han : mpires, ((1 BC - AD ((0. Cambridge:

Cambridge University Press. pp. 5. - 59.

10- Lewis, Mark : dward ((00-). The : arly Chinese : mpires: Qin and Han. Cambridge: Harvard University Press. p. 10(.

10. : brey, Patricia Buckley (1999). The Cambridge Illustrated History of China. Cambridge: Cambridge University Press. p. 61.

109 The previous reference.

110 Sanft, Charles. «The Qin dynasty (((1 - (06 BC:)». In Xiong & Hammond ((019), p. 1-.

111 : brey, Patricia Buckley (1999). The Cambridge Illustrated History of China. Cambridge: Cambridge University Press. p. 6).

11(Bodde, Derk (19. 6). «The State and : mpire of Ch›in». In Twitchett, Dennis; Loewe, Michael (eds.). The Cambridge History of China, Volume 1: The Ch›in and Han : mpires, ((1 BC - AD ((0. Cambridge: Cambridge University Press. p. 61.

11) The previous reference. pp. 60 - 61.

114 Singtao. «旅居隨筆». Sing Tao Daily News (Toronto edition). 1. April (00-. / Cantonese Sheik Dictionary

115 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 p.)4.

116 The previous reference

11- A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.) 0:) - .

11. The previous reference

119 Sima, Qian. Nienhauser, William H. [1994] (1994). The Grand Scribe›s Records. Indiana University Press. pp. 15. - 160.

1(0 Records of the Great Historian

1(1 Loewe, Michael ((000). A Biographical Dictionary of the Qin, Former Han and Xin Periods (((1 BC - AD (4). Leiden: Brill Publishers. pp. 65(- 65) .

1((Sanft, Charles. «The Qin dynasty (((1 - (06 BC:)». In Xiong & Hammond ((019), pp 1(- (4.

1( ) A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.) 0:) - .

1(4 The previous reference.pp.) - :44.

1(5 Records of the Grand Historian.

1(6 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.) - :44.

1(- Mosol, Lee ((01)). Ancient History of the Manchuria. X libris Corporation. p. - -

1(. Hsu, Chu Yun; Lagerwey, John ((01( ). Yes Cheng, Joseph (: ditor). China: a religious state. Columbia University Press (published June 19, (01( ). pp. 19) - 194.

1(9 Yu, Ying - shih (19. 6). «Han Foreign Relations». In Twitchett, Dennis; Loewe, Michael (eds.). The Cambridge History of China, Volume 1: The Ch›in and Han : mpires, ((1 BC - AD ((0. Cambridge: Cambridge University Press. pp. 455 - 45. .

1)0 Xu, Pingfang ((005). The Formation of Chinese Civilization: An Archaeological Perspective. Yale University Press. p. (. 1.

1)1 Gernet, Jacques (1996). A History of Chinese Civilization. Cambridge University Press. pp. 1(6 - 1(- .

1)(A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.) - :44.

1)) Nylan, Michael ((016). «Mapping Time in the Shiji and Hanshu Tables». : ast Asian Science, Technology, and Medicine. pp. -6 - -9, . 4, 10- - 10. .

1)4 A History of China Book, China Construction Publishing House,

Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.) - :44.

1) 5 The previous reference

1) 6 Beckwith, Christopher I. (16 March (009). : mpires of the Silk Road: A History of Central : urasia from the Bronze Age to the Present. Princeton University Press. p. 404 - 405 notes 51 - 5(.

1) - A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.) - :44.

1) . A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.) - :44.

1) 9 The previous reference

140 Jay, Jennifer (1999). «Sima Qian.» In Kelly Boyd (ed.). : ncyclopedia of Historians and Historical Writing, Volume Two. Fitzroy Dearborn. pp. 109) - 1094.

141 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.) - :44.

14(Lewis, Mark : dward ((00-). The : arly Chinese : mpires: Qin and Han. London: Belknap Press. p. 1- . - p. 1. 6

14) The previous reference. p. 1. 0 - p. 1. 1

144 中国文化科目认证指南. 华语教学出版社. Sinolingua. (010 p 64.

ISBN:9-．---．0(00-9.5-1.公元1世纪—传入中国内地，与汉文化交融，形成汉传佛教。

145 Morton, William Scott; Lewis, Charlton M. ((005), China: Its History and Culture (Fourth ed.), New York City: McGraw - Hill, p. 5-./Nishijima, Sadao (19.6), «The economic and social history of Former Han», in Twitchett, Denis; Loewe, Michael (eds.), Cambridge History of China: Volume I: the Ch›in and Han : mpires, ((1 B.C. - A.D. ((0, Cambridge: Cambridge University Press, pp. 5.1 - 5...

146 Paludan, Ann (199.), Chronicle of the Chinese : mperors: the Reign - by - Reign Record of the Rulers of Imperial China, London: Thames & Hudson, p. 41.

14- Huang, Ray (19..), China: A Macro History, Armonk & London: M.:. Sharpe, pp. 46 - 4..

14. «Wang Mang, the Restoration of the Han Dynasty, and Later Han», in Twitchett, Denis; Loewe, Michael (eds.), The Cambridge History of China (19.6): Volume I: the Ch›in and Han : mpires, ((1 B.C. - A.D.

((0, Cambridge: Cambridge University Press, pp. pp. ((- - ( ) 0.

149 Hinsch, Bret ((00( ), Women in Imperial China, Lanham: Rowman & Littlefield Publishers, pp. ( ) - (4.

150 Hansen, Valerie ((000), The Open : mpire: A History of China to 1600, New York & London: W.W. Norton & Company, p. 1) 4.

151 Lewis, Mark : dward ((00-), The : arly Chinese : mpires: Qin and Han, Cambridge: Harvard University Press, p. ( ) .

15(de Crespigny, Rafe ((00-), A Biographical Dictionary of Later Han to the Three Kingdoms (( ) - ((0 AD), Leiden: Koninklijke Brill, p. 196.

15) «Wang Mang, the Restoration of the Han Dynasty, and Later Han», in Twitchett, Denis; Loewe, Michael (eds.), The Cambridge History of China: Volume I: the Ch›in and Han : mpires, ((1 B.C. - A.D. ((0, Cambridge: Cambridge University Press, (19. 6), pp. (( ) - (90.

154 de Crespigny, Rafe ((00-), A Biographical Dictionary of Later Han to the Three Kingdoms (( ) - ((0 AD), Leiden: Koninklijke Brill, p. 56. .

155 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 p.40

156 de Crespigny, Rafe ((00-), A Biographical Dictionary of Later Han to the Three Kingdoms (() - ((0 AD), Leiden: Koninklijke Brill, pp. 196 - 19. , 560.

15- Hinsch, Bret ((00(), Women in Imperial China, Lanham: Rowman & Littlefield Publishers, pp. (4 - (5.

15. A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.44:50.

159 So, Francis K.H. (蘇其康) ((006). «Travels, contact, and conversion: Chinese rediscovery of the West». Monumenta Serica. Taylor & Francis. 54: 165 - 1. 4.

160 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.44:50.

161 The previous reference

16(«生逢乱世，他弃官从医，终成中华医圣——张仲景生平_经济参考网_新华社《经济参考报》官方网站» [Born in troubled times, he

abandoned his official position to practice medicine and eventually became a Chinese medical sage - the life of Zhang Zhongjing]. www.jjckb.cn.

16) A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.44:50.

164 The previous reference

165 Ibid

166 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 p.49.

16- Ravi De Crespingi (October (- , (016). Fire on Luoyang: A History of the Later Han Dynasty ( ) - ((0 AD (1 ed.). Brill Publishing. p.) . . - 41. .

16. Smitha, Frank : . «Dynastic Rule and the Chinese (9 of 1)).» Total history and global timeline.

169 Ravi De Crespingi (October (- , (016). Fire on Luoyang: A History of the Later Han Dynasty ( ) - ((0 AD (1 ed.). Brill Publishing. pp.) . . - 41. .

1- 0 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.49:50.

1- 1 Generals of the South, Ravi de Crespigny, pp. . 5 - 9(

1-(A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.49:50.

1-) The previous reference

1-4 Smitha, Frank : . «Dynastic Rule and the Chinese (9 of 1)).» Total history and global timeline.

1-5 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.49:50.

1-6 The previous reference

1-- Theobald, Ulrich ((000), «Chinese History - Three Kingdoms 三國 (((0 - (. 0)».

1-. Kang, Youwei ((1 October (01)). 歐洲十一國遊記二種 (in Chinese (Taiwan)). 群出版. p. 9. .

1-9 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.5) :54

1. 0 «History of Three Kingdoms Period - China : ducation Center». www.chinaeducenter.com.

1. 1 The previous reference

1. (The Book of Jane, Volume 4

1.) Jacques Gernet (1996). A History of Chinese Civilization (Illustrated,

Reprinted, Revised : dition). Cambridge University Press. s. 1. 0. ISBN

1. 4 Mark : dward Lewis ((011). China Among : mpires: The Northern and Southern Dynasties. Harvard University Press. s. 6) .

1. 5 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 p.5.

1. 6 The previous reference. pp.55:56

1. - Reference David Graff ((00)). Medieval Chinese Warfare) 00 - 900. Routledge. s. 4. /

1. . A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.55:5- .

1. 9 Jacques Gernet (1996). A History of Chinese Civilization (Illustrated, Reprinted, Revised : dition). Cambridge University Press. pp. 1- - - 1- . .

190 The previous reference. pp. 1- (, 1. 4

191 Lewis, Mark : dward ((009). China Among : mpires: The Northern and Southern Dynasties. Harvard University Press. pp. 69 - -)

19(A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.55:59.

19) The previous reference

194 Ibi

195 He Ziquan (何兹全); Zhang Guan (张国安) ((01)). Wei Jin Nan Bai Zhao Shi = History of the Wei Jin Dynasty and the Southern and Northern Dynasties 魏晉南北朝史(1st ed.). Beijing: Renmin Chubanshi.

196 Poceski, Mario. «Chinese Buddhism» in The Wiley - Blackwell Companion to Chinese Religions edited Randall L. Nadeau. John Wiley & Sons, (01(. pp. 19- -(1.

19- Chün - fang Yü ((0(0). Chinese Buddhism: A Thematic History, University of Hawaii Press. p. ((

19. Fan Muyou. A Reexamination of the Influence of Kumārajīva›s Thought on His Translation of the Vimalakīrtinirdeśa. The : astern Buddhist 4-/1: The : astern Buddhist Society.

199 Chün - fang Yü ((0(0). Chinese Buddhism: A Thematic History, University of Hawaii Press.p. 15

(00 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1.p.64

(01 Breverton, Terry ((01)). Breverton›s : ncyclopedia of Inventions (Unabridged ed.). Quercus

(0(Xiong, Victor Cunrui ((009). Historical Dictionary of Medieval China. Lanham, Md.: Scarecrow Press. p.)51

(0) A History of China Book, China Construction Publishing House,

Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.54

(04 Darwin, Charles (1. 61). On the Origin of Species, by Means of Natural Selection, or the Preservation of Favoured Races in the Struggle for Life (Revised ed.). New York: D. Appleton and Company. p.) - .

(05 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 p.64.

(06 Yongxiang Lu, ed. ((014). History of Chinese Science and Technology, Volume) . Springer. s. (. 0.

(0- A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 p.6) .

(0. «Commentary on Classical Waterways - Geographers› Thoughts Like a New Spring.» New York Daily. September (, (01(.

(09 Ying Shih Yu (September (0, (016). Chinese History: Sixth Century BC: to Seventeenth Century, Volume I. Columbia University Press. p. 1(- .

(10 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.6) :64.

(11 The previous reference. pp.65:6- .
(1(Ibid
(1) Chang, H. C. (19- -). Chinese Literature (: Nature Poetry. (New York, NY: Columbia University Press). pp. (4 - (5.
(14 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 p.66.
(15 The previous reference
(16 Tanner, Harold Miles ((009). China: a history. Hackett Publishing. pp. 16- - 16. .
(1- : brey, Patricia; Walthall, Ann; Palais, James ((006). : ast Asia: A Cultural, Social, and Political History. Houghton Mifflin Harcourt. p. . 9.
(1. Tanner, Harold Miles ((009). China: A History. Hackett Publishing. pp. 16- - 16. .
(19 : brey, Patricia; Walthall, Ann; Palais, James ((006). : ast Asia: A Cultural, Social, and Political History. Houghton Mifflin Harcourt. p. . 9.
((0 Zizhi Tongjian, vol. 1- 6.
((1 A History of China Book, China Construction Publishing House,

Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.6. .- 0.

(((: brey, Patricia; Walthall, Ann; Palais, James ((006). : ast Asia: A Cultural, Social, and Political History. Houghton Mifflin Harcourt. p. . 9.

(() Hutchinson : ncyclopedia

((4 : brey, Patricia; Walthall, Ann; Palais, James ((006). : ast Asia: A Cultural, Social, and Political History. Houghton Mifflin Harcourt. p. 90.

((5 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.6. :-(.

((6 Whitang, Marvin C. History of the Chinese Imperial : mperor: . 000 BC - 191(AD. iUniverse. s. (45.

((- A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.-1:-(.

((. The previous reference

((9 Wright, Arthur F. (19-9). «The Sui dynasty (5. 1 - 61-)». In Twitchett, Dennis (ed.). The Cambridge History of China: Sui and T'ang China,

5. 9 - 906, Part I. Vol. III. Cambridge: Cambridge University Press. pp. 4. - 149.

( )0 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.- 0:- 1.

( )1 Adshead, S.A.M. ((004), T›ang China: The Rise of the : ast in World History, New York: Palgrave Macmillan, p. 40.

( )(Graff, David Andrew ((000), «Dou Jiande›s dilemma: Logistics, strategy, and state», in van de Ven, Hans (ed.), Warfare in Chinese History, Leiden: Koninklijke Brill, p. - . .

( )) : brey, Patricia Buckley; Walthall, Anne; Palais, James B. ((006), : ast Asia: A Cultural, Social, and Political History, Boston: Houghton Mifflin, p. 91.

( )4 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.-) :- . .

( )5 The previous reference

( )6 Ibid

( )- Lewis, Mark : dward ((01( ), China›s Cosmopolitan : mpire: The Tang

Dynasty, Harvard University Press, p. 1.

( ) . : brey, Patricia Buckley (1999), The Cambridge Illustrated History of China, Cambridge: Cambridge University Press, pp. 111, 141.

( )9 Adshead, S.A.M. ((004), T›ang China: The Rise of the : ast in World History, New York: Palgrave Macmillan, pp. 4(- 4) .

(40 Twitchett, Denis ((000), «Tibet in Tang›s Grand Strategy», in van de Ven, Hans (ed.), Warfare in Chinese History, Leiden: Koninklijke Brill, p. 1(4.

(41 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.- 9:. 4.

(4(The previous reference

(4) : brey, Patricia Buckley; Walthall, Anne; Palais, James B. ((006), : ast Asia: A Cultural, Social, and Political History, Boston: Houghton Mifflin, p. 101.

(44 Brook, Timothy (199.), The Confusions of Pleasure: Commerce and Culture in Ming China, Berkeley: University of California Press, p. 59.

(45 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.. 4:. 5.

(46 The New Book of Tang 文宗時，詔以白歌詩、裴旻劍舞、張旭草書為「三絕」

(4- A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.. 6.

(4. The previous reference. p.. -.

249 أتربي أبو العز، عبد العزيز حمد، نبذة عن الصين، مؤسسة هنداوي للنشر، ص٢٦

250 هجرس، حمادة محمد (٢٠ يونيو ٢٠١٧). «المسجد القديم في نينغبو الصينية» دراسة تاريخية ومعمارية«». مجلة العمارة الإسلامية. ج. ٤ ع. ٣: ١٠٢.

(51 The previous reference

(5(Hill, Henry, ed (19. .). Light from the : ast: A Symposium on the Oriental Orthodox and Assyrian Churches. Toronto, Canada. pp. 10. - 109

(5) Anderson, Gerald H. (1999). Biographical Dictionary of Christian Missions. Wm. B. : erdmans Publishing. p. 14.

(54 «The Nestorian Painting: A Praise for the Spread of the London Religion in China, with Protection, by a Priest of the Secret Church, -. 1 AD» : ast Asian History Reference Book. w

(55 A History of China Book, China Construction Publishing House,

Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp.. 9:90.

(56 Chinese Landscape Painting: The Sui and Tang Dynasties. (Berkeley: University of California Press, 19. 0, pp. 50 - 5(.

(5- A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 p.9(.

(5. The previous reference, p . . .

(59 Sun Simiao, King of Medicine, Cultural China

(60 Lewis, Mark : dward ((01( ), China›s Cosmopolitan : mpire: The Tang Dynasty, Harvard University Press, p. 1.

(61 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 pp. 9) :96.

(6(Baumer, Christoph ((01( ), The History of Central Asia: The Age of the Steppe Warriors pp 140:14) .

(6) Millward, James A. ((00-). : urasian Crossroads: A History of Xinjiang (illustrated ed.). Columbia University Press. p.) 6.

(64 Goble, Geoffrey C. ((019). Chinese : soteric Buddhism: Amoghavajra, the Ruling : lite, and the : mergence of a Tradition. The

Sheng Yen Series in Chinese Buddhist Studies. Columbia University Press. pp. 10, 11.

(65 Baumer, Christoph ((01(), The History of Central Asia: The Age of the Steppe Warriors p. 146.

(66 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 p. 9) .

(6- Ju - ĥeng Yao, Robert baron Des Rotours (196(). Histoire de Ngan Lou - chan. p. xxi.

(6. The previous reference

(69 Ibid

(-0 Beckwith, Christopher I (19. -), The Tibetan : mpire in Central Asia: A History of the Struggle for Great Power among Tibetans, Turks, Arabs, and Chinese during the : arly Middle Ages, Princeton University Press, p. 146

(-1 DeBlasi, Anthony ((001). «Striving for Completeness: Quan Deyu and the : volution of the Tang Intellectual Mainstream». Harvard Journal of Asiatic Studies. Harvard - Yenching Institute. 61 (1): 5 -)6.

(-(A History of China Book, China Construction Publishing House,

Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 p.95

(-) Zizhi Tongjian, a pioneering reference work on Chinese historiography, vol. (5(.

(-4 The previous reference.

(-5 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 p.95

(-6 Zizhi Tongjian, a pioneering reference work on Chinese historiography, vol. (5).

(-- A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part 1 p.95.

(-. The previous reference. p.95.

(-9 Glen Dudbridge ((01)). A Portrait of Five Dynasties China: From the Memoirs of Wang Renyu (. . 0 - 956). Oxford University Press. p. . .

(.0 Toqto›a; et al., eds. (1)45). Song Shi (宋史) [History of Song] (in Chinese).

(.1 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.. .

(. (Lorge, Peter ((015), The Reunification of China: Peace through War under the Song Dynasty, Cambridge: Cambridge University Press, pp. 4 - 5.

(.) A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.9.

(. 4 The previous reference. pp.9:10

(. 5 (19. 6b), Science and Civilisation in China: Volume) , Mathematics and the Sciences of the Heavens and the : arth, Cambridge: Cambridge University Pres. p. 51. .

(. 6 The previous reference pp. 469 - 4- 1.

(. - A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.10.

(. . The previous reference. p.15

(. 9 Ibid

(90 Zizhi Tongjian, a pioneering reference work on Chinese historiography, vol. (5) .

(91 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.15:16

(9(The previous reference
(9) D.B. Boulger (1. . 1). History of China. pp.) . . .
(94 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.16:1-
(95 Israeli, Raphael ((00( ). Islam in China: religion, ethnicity, culture, and politics. Lanham, Md.: Lexington Books. p. (.) .
(96 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.1. .
(9- Sastri, Nilakanta, K.A. (19. 4), The CōḶas, Madras: University of Madras. pp. 1-) ,) 16.
(9. A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.11.
(99 Xu, : lina - Qian ((005). Historical development of the pre - dynastic Khitan. Helsinki: University of Helsinki. p. (19.
) 00 Kane, Daniel ((009). The Kitan Language and Script. Leiden: Brill. p. 16(.
) 01 Mote, Frederick W. (1999). Imperial China: 900 - 1. 00. Cambridge,

MA: Harvard University Press. p. 41.

) 0(: brey, Walthall, Palais ((006). : ast Asia: A Cultural, Social, and Political History. Boston: Houghton Mifflin Company. p. 154.

) 0) A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.11.

) 04 Twitchett, Denis (1994), «The Liao», The Cambridge History of China, Volume 6, Alien Regime and Border States, 90- - 1) 6. , Cambridge: Cambridge University Press, p. 99.

) 05 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.11.

) 06 The previous reference. p.1(.

) 0- Stein, R. A. (19- ( ), Tibetan Civilization, London and Stanford University Press, pp. - 0 - - 1.

) 0. The previous reference

) 09 Wang, Tianshun [王天顺] (199)). Xixia Zhan Shi [The Battle History of Western Xia] 《西夏战史》. Yinchuan [银川], Ningxia ren min chu ban she [Ningxia People›s Press] 宁夏人民出版社.

) 10 Zhao, Yanlong [赵彦龙] ((005). «Qian tan xi xia gong wen wen feng yu gong wen zai ti [A brief discussion on the writing style in official documents and documental carrier] 浅谈西夏公文文风与公文载体.» Xibei min zu yan jiu [Northwest Nationalities Research] 西北民族研究 45(( ): - . - . 4.

) 11 Qin, Wenzhong [秦文忠], Zhou Haitao [周海涛] and Qin Ling [秦岭] (199.). «Xixia jun shi ti yu yu ke xue ji shu [The military sports, science and technology of West Xia] 西夏军事体育与科学技术.» Ningxia Daxue Xuebao [Journal of Ningxia University] 《宁夏大学学报》 - 9 (( ): 4. - 50.

) 1(A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.1)

) 1) A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.(0.

) 14 Zizhi Tongjian, a pioneering reference work on Chinese historiography, vol. (.) .

) 15 A. D. Levine, The Reigns of Hui - tsung (1100 - 11(6) and Ch'in - tsung (11(6 - 11(-) and the Fall of the Northern Sung, in P. J. Smith

(ed.), The Cambridge History of China, vol. 5, Part One: The Sung Dynasty and Its Precursors, 90- - 1(- 9, (Cambridge University Press, Cambridge, 1994), Ch. - .

) 16 Franke, Herbert (1994), «The Chin dynasty», in Denis C. Twitchett; John King Fairbank (eds.), The Cambridge History of China: Volume 6, Alien Regimes and Border States, 90- - 1) 6. , Cambridge University Press, pp. (15 -) (0.

) 1- Franke, Herbert; Twitchett, Denis C. (1994), «Introduction», in Denis C. Twitchett; John King Fairbank (eds.), The Cambridge History of China: Volume 6, Alien Regimes and Border States, 90- - 1) 6. , Cambridge University Press, p.) 9.

) 1. Beck, Sanderson. «Liao, Xi Xia, and Jin Dynasties 90- - 1( ) 4». China - BC To 1(- 9.

) 19 Lieu, Samuel N.C. (19. 5). Manichaeism in the Later Roman : mpire and Medieval China. Manchester University Press. pp. (40 - (4) .

) (0 The previous reference

) (1 A History of China Book, China Construction Publishing House,

Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.1. :19.

)((Levine, Ari Daniel ((009). «The Reigns of Hui - tsung (1100 - 11(6) and Ch›in - tsung (11(6 - 11(-) and the Fall of the Northern Sung». In Paul Jakov Smith; Denis C. Twitchett (eds.). The Cambridge History of China: Volume 5, The Sung dynasty and Its Precursors, 90- - 1(-9. Cambridge University Press. p.6)6

)() : brey, Patricia Buckley; Walthall, Anne; Palais, James B. ((006), : ast Asia: A Cultural, Social, and Political History, Boston: Houghton Mifflin, p. 165.

)(4 Sivin, Nathan (1995), Science in Ancient China, Brookfield, Vermont: VARIORUM, Ashgate Publishing. p. 5.

)(5 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.(1:((.

)(6 Chen, Yuan Julian ((014), «Legitimation Discourse and the Theory of the Five : lements in Imperial China», Journal of Song - Yuan Studies, 44:)(5 -)64.

)(- Paludan, Ann (199.), Chronicle of the Chinese : mperors, London:

Thames & Hudson, p. 1) 6.

) (. Levathes, Louise (1994), When China Ruled the Seas, New York: Simon & Schuster, pp. 4) - 4- .

) (9 : brey, Patricia Buckley; Walthall, Anne; Palais, James B. ((006), : ast Asia: A Cultural, Social, and Political History, Boston: Houghton Mifflin, p. ( ) 9.

)) 0 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.) 4

)) 1 The previous reference pp.((:( ) .

)) (Ibid

))) Mayer, Victor H.; Chen, Sanping; Wood, Frances ((01)). Chinese Lives: The People Who Made Civilization. Thames and Hudson. pp. 1(0 - 1(1.

)) 4 Liu, William Guangling ((015), The Chinese Market : conomy 1000 - 1500, SUNY Press, p. (94.

)) 5 : brey, Patricia Buckley (1999). The Cambridge Illustrated History of China. Cambridge: Cambridge University Press. p 1) . .

)) 6 Needham, Joseph (1965). Science and Civilization in China: Volume 4, Physics and Physical Technology, Part (: Mechanical : ngineering. Cambridge: Cambridge University Press; rpr. Taipei: Caves Books, Ltd, 469 - 4- 1.

)) - Needham, Joseph (1959). Science and Civilization in China: Volume), Mathematics and the Sciences of the Heavens and the : arth. Cambridge: Cambridge University Press; rpr. Taipei: Caves Books, Ltd, 19. 6.p.51.

)) . A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.(-

)) 9 The previous reference. p.(.

) 40 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.(.

) 41 Chaffee, John W. ((015), The Cambridge History of China Volume 5 Part Two Sung China, 960 - 1(- 9, Cambridge University Press p. 4) 5.

) 4(Liu, William Guangling ((015), The Chinese Market : conomy 1000 - 1500, SUNY Press, p. (94.

)4) : brey, Patricia Buckley; Walthall, Anne; Palais, James B. ((006), : ast Asia: A Cultural, Social, and Political History, Boston: Houghton Mifflin, p. 156.

)44 Durand, John (1960). «The Population Statistics of China, A.D. (- 195)». Population Studies. 1) ()): (09 - (56.

)45 Veeck, Gregory; Pannell, Clifton W.; Smith, Christopher J.; Huang, Youqin ((00-), China›s Geography: Globalization and the Dynamics of Political, : conomic, and Social Change, Lanham: Rowman & Littlefield Publishers, pp. 10) - 104.

)46 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.(9

)4- Sawyer, Ralph D. (199)). The Seven Military Classics of Ancient China. Westview Press. p. 4. 9.

)4. A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.)0

)49 The previous reference

)50 Ibid. p.)1

) 51 Laytner, Anson ((011). «China». In Baskin, Judith R. (ed.). The Cambridge Dictionary of Judaism and Jewish Culture. Cambridge University Press. pp. 100 - 10(.

) 5(Sharot, Stephen (Winter (00-). «The Kaifeng Jews: A Reconsideration of Acculturation and Assimilation in a Comparative Perspective». Jewish Social Studies. 1) ((): pp. 1. 0 - 1. 1.

) 5) Weisz, Tiberiu. The Kaifeng Stone Inscriptions: The Legacy of the Jewish Community in Ancient China. New York: Universe, (006

) 54 Alfred : delsheim. History of the Jewish Nation after the destruction of Jerusalem under Titus. Kessinger Publishing, (004, p. - 1.

) 55 Thomas, Nigel ((01-). «Râdhânites, Chinese Jews, and the Silk Road of the Steppes». In Laytner, Anson H.; Paper, Jordan (eds.). The Chinese Jews of Kaifeng: A Millennium of Adaptation and : ndurance. Lexington Books. pp. p. 1- .

) 56 Leslie, Donald ((00.). «Jews and Judaism in Traditional China: Prospects for Research». In Kupfer, Peter (ed.). Youtai - Presence and Perception of Jews and Judaism in China. Peter Lang. pp. ( ) - 54.

) 5- A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.) (

) 5. The previous reference

) 59 : brey, Patricia Buckley; Walthall, Anne; Palais, James B. ((006), : ast Asia: A Cultural, Social, and Political History, Boston: Houghton Mifflin, p. ( ) 6.

) 60 Needham, Joseph (19. 6a), Science and Civilisation in China: Volume 1, Introductory Orientations, Cambridge: Cambridge University Press. p. 1) 9.

) 61 : brey, Patricia Buckley; Walthall, Anne; Palais, James B. ((006), : ast Asia: A Cultural, Social, and Political History, Boston: Houghton Mifflin, p. (40.

) 6(Rossabi, Morris (19. .), Khubilai Khan: His Life and Times, Berkeley: University of California Press, p. 4) 5.

) 6) William Honeychurch; Chunag Amartuvshin ((006). «States on Horseback: The Rise of Inner Asian Confederations and : mpires». In Miriam T. Stark (ed.). Archaeology of Asia. Wiley Blackwell. pp. (55 - (- . .

) 64 Ronald Findlay; Mats Lundahl ((006). «The First Globalization : pisode: The Creation of the Mongol : mpire, or the : conomics of Chinggis Khan». In Göran Therborn; Habibul Khondker (eds.). Asia and

: urope in Globalization. Brill. pp. 1) - 54

) 65 Atwood, Christopher Pratt ((004). : ncyclopedia of Mongolia and the Mongol : mpire. Facts On File.

) 66 San, Tan Koon ((014). Dynastic China: An : lementary History. Kuala Lumpur: The Other Press. pp.) 1(,) ( ) .

) 6- A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.) 4

) 6. The previous reference. p.) 4

) 69 Rossabi, Morris (1994). «The reign of Khubilai Khan». In Twitchett, Dennis; Franke, Herbert (eds.). The Cambridge History of China, Volume 6: Alien Regimes and Border States, 90- - 1) 6. . Cambridge: Cambridge University Press. p. 4(9.

) - 0 Morgan, David ((00-). The Mongols. Wiley - Blackwell. p. 10- .

) - 1 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.) 5

) - (The previous reference

) -) Guzman, Gregory G. (19. .). «Were the Barbarians a Negative or Positive Factor in Ancient and Medieval History?». The Historian. 50 (4):

pp. 56. - 5- 0.

) - 4 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.41

) - 5 The previous reference> pp. 41 :46.

) - 6 Haw, Stephen G. ((006), Marco Polo›s China: a Venetian in the Realm of Khubilai Khan, Volume) of Routledge studies in the early history of Asia, Psychology Press, pp. 5(- 5- .

377 هجرس؛ حمادة محمد، «السائح الاعظم ابن بطوطة في الصين»، جمال بن حويرب للدراسات

) - . Marilyn Shea ((00-). «Guo Shoujing - 郭守敬». Chinese Astronomy. University of Maine

) - 9 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.44

) . 0 Atwood, Christopher Pratt ((004). : ncyclopedia of Mongolia and the Mongol : mpire. Facts On File.

) . 1 The previous reference

) . (A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.45

) .) «Yuan dynasty (1(- 9 - 1) 6.)». National Museum of Asian Art. Teaching China with the Smithsonian.

) . 4 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.45:46

) . 5 The previous reference. P.46.

) . 6 Ibid. P.) - .

) . - Ibid.

) . . Franke, Herbert (195)). «Could the Mongol emperors read and write Chinese?» Asia Major. Second series. Academica Sinica.) (1): pp (. - 41.

) . 9 Yuan dynasty: Ancient China Dynasties, paragraph) .

) 90 Ho, Ping - ti (19- 0). «An : stimate of the Total Population of Sung - Chin China». :́ tudes Song. 1 (1):)) - 5) .

) 91 Sussman, George D. ((011). «Was the Black Death in India and China?». Bulletin of the History of Medicine. The Johns Hopkins University Press. . 5 ()):) 19 -) 55.

) 9(Brook, Timothy (1999). The Confusions of Pleasure: Commerce and Culture in Ming China (illustrated, reprint ed.). University of California Press. p. 1. .

) 9) A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.) . :40

)94 Mote, Frederick W. (19. .). «The rise of the Ming dynasty, 1))0 - 1) 6- ». In Mote, Frederick W.; Twitchett, Denis (eds.). The Cambridge History of China, Volume - : The Ming Dynasty, 1) 6. - 1644, Part 1. Cambridge: Cambridge University Press. p.) 9.

)95 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.) . :40

)96 Rowe, William. Crimson Rain: Seven Centuries of Violence in a Chinese County. (006. p. 5)

)9- A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.) . :40

)9. The previous reference

)99 Zhang, Wenxian ((00.). «The Yellow Register Archives of Imperial Ming China». Libraries & the Cultural Record. 4) (( ): pp. 14. - 1- 5.

400 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.4- .

401 The previous reference

40(Atwood, Christopher Pratt ((004). : ncyclopedia of Mongolia and the Mongol : mpire. Facts On File.

40) Crawford, Robert B. (1961). «: unuch Power in the Ming Dynasty». T›oung Pao. 49 ()): p. 115 - 14.

404 : brey, Patricia Buckley (1999), The Cambridge Illustrated History of China, Cambridge: Cambridge University Press, pp. 19(- 19) .

405 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.4. .

406 Fairbank, John King; Goldman, Merle ((006), China: A New History ((nd ed.), Cambridge: Harvard University Press, p. 1) 0.

40- A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.49:50.

40. The previous reference

409 The previous reference pp.50:5(.

410 Ibid

411 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.55:56.

41(The previous reference

41) Turnbull, Stephen. (00(, p. 1) 4, «(Korean) war minister Yi Hang - bok pointed out that assistance from China was the only way Korea could

survive.»

414 Turnbull, Stephen (Nov (0, (01( ). The Samurai Invasion of Korea 159(- 9. . Osprey Publishing. p. 1- .

415 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.5- .

416 Turnbull, Stephen; Samurai Invasions of Korea 159(- 159. , pp. 5 - -

41- Wang, Richard G. ((01( ). The Ming Prince and Daoism: Institutional Patronage of an : lite. OUP. p. 11

41. Shoujiang Mi; Jia You ((004). Islam in China. China Intercontinental Press. p.) 5.

419 Farmer, : dward L., ed. (1995). Zhu Yuanzhang and : arly Ming Legislation: The Reordering of Chinese Society Following the : ra of Mongol Rule. p. . (

4(0 Hagras, Hamada ((0 December (019). «The Ming Court as Patron of the Chinese Islamic Architecture: The Case Study of the Daxuexi Mosque in Xi›an». SH: D: T (6): 1) 4 - 15. .

4(1 Lipman, Jonathan N. (199.), Familiar Strangers: A History of Muslims in Northwest China, Seattle: University of Washington Press. p.) . -) 9.

4((Leslie, Donald D. (199.). «The Integration of Religious Minorities in

China: The Case of Chinese Muslims» p. 15.

4( ) : brey, Patricia Buckley (1999), The Cambridge Illustrated History of China, Cambridge: Cambridge University Press, p. (1(.

4(4 Hill, Henry, ed (19. .). Light from the : ast: A Symposium on the Oriental Orthodox and Assyrian Churches. Toronto, Canada. pp. 10. - 109

4(5 Laytner, Anson ((01-). «Between Survival and Revival: The Impact of Western Jewish Interaction on Kaifeng - Jewish Identity». In Laytner, Anson H.; Paper, Jordan (eds.). The Chinese Jews of Kaifeng: A Millennium of Adaptation and : ndurance. Lexington Books. pp.) 1- -) 19.

4(6 Xu, Xin ((00)). The Jews of Kaifeng, China : history, culture, and religion. Jersey City, NJ: KTAV Publishing House. p. 4- .

4(- A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (p.5. .

4(. The previous reference

4(9 Ibid

4) 0 : brey, Patricia Buckley (1999), The Cambridge Illustrated History of

China, Cambridge: Cambridge University Press, p. (01.

4)1 Brook, Timothy (199.), The Confusions of Pleasure: Commerce and Culture in Ming China, Berkeley: University of California Press, p. (06.

4)(A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.60:61.

4)) The previous reference

4)4 Ibid

4)5 Needham, Joseph (1959), Science and Civilisation in China: Volume), Mathematics and the Sciences of the Heavens and the : arth, Cambridge University Press, p. 5(4.

4)6 Brook, Timothy (199.), The Confusions of Pleasure: Commerce and Culture in Ming China, Berkeley: University of California Press, pp. (15 - (1-.

4)- : brey, Patricia Buckley (1999), The Cambridge Illustrated History of China, Cambridge: Cambridge University Press, pp. (0(- (0).

4). A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.61:6).

4) 9 The previous reference

440 Ibid

441 Plaks, Andrew. H (19. -). «Chin P›ing Mei: Inversion of Self - cultivation». The Four Masterworks of the Ming Novel: Ssu Ta Ch›i - shu. Princeton University Press: pp. 55 - 1. (.

44(«Tsunami among world›s worst disasters». BBC News.) 0 December (004. Retrieved (6 March (0(1.

44) Spence, Jonathan D, (1999(The search for modern China, China - - History - Qing dynasty, 1644 - 191(, China - History - (0th century

444 Spence, Jonathan D. (1999), The Search For Modern China ((nd ed.), New York: W. W. Norton, p. 16.

445 Tsai, Shih - shan Henry (1996). The : unuchs in the Ming Dynasty. Albany: SUNY Press. p. 119 - 1(0.

446 «Tianqi». : ncyclopædia Britannica. (00. .

44- A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.65:66.

44. Zhu Yujiao - The Tianqi : mperor.

449 The previous reference

450 Spence, Jonathan D. (1999), The Search For Modern China ((nd ed.), New York: W. W. Norton

451 The previous reference, p. (1.

45(A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.66:6- .

45) Spence, Jonathan D. (1999), The Search For Modern China ((nd ed.), New York: W. W. Norton, pp. (1 - ((.

454 The previous reference, pp. ((- (4.

455 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.66:6- .

456 The previous reference

45- Spence, Jonathan D. (1999), The Search For Modern China ((nd ed.), New York: W. W. Norton, p.(5

45. Ibid

459 The Cambridge History of China: Volume 9, The Ch›ing : mpire to 1. 00, Part 1, by Denis C. Twitchett, John K. Fairbank, p. (9

460 غرب محافظة شينبين حاليًا

461 Spence, Jonathan D. (1999), The Search For Modern China ((nd ed.), New York: W. W. Norton, p. (- - (. .

46(Chang, Michael G. ((00-), A Court on Horseback: Imperial Touring & the Construction of Qing Rule, 16. 0 - 1- . 5, Cambridge: Harvard University Press, p. 9(.

46) Spence, Jonathan D. (1999), The Search For Modern China ((nd ed.), New York: W. W. Norton, p.) 1.

464 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.6. :- 1.

465 حديقة دينغشان حاليًا

466 Spence, Jonathan D. (1999), The Search For Modern China ((nd ed.), New York: W. W. Norton, p.(5

46- A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.6. :- 1.

46. Spence, Jonathan D. (1999), The Search For Modern China ((nd ed.), New York: W. W. Norton. pp.) (-)) .

469 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.6. :- 1.

4-0 Spence, Jonathan D. (1999), The Search For Modern China ((nd ed.), New York: W. W. Norton. p.))).

4-1 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.6. :-1.

4-(A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.-1:-(.

4-) The previous reference

4-4 Ibid. p.-)

4-5 Shore, David Harrison (19-6), «The Last Court in Ming China: The Reign of the Yongli : mperor of the South (164- - 166( )», Ph.D. Dissertation, Princeton University, p. (0. Cited in Wakeman, Frederick (19. 5). The major institution. Vol. (. p. 10) 5, footnote . -.

4-6 Ch'iu, Chung - lin. «The : pidemics in Ming Beijing and the Responses from the : mpire›s Public Health System». 中央研究院歷史語言研究所集刊:)) 1 -) . . .

4-- Magill, Frank N.; Taylor, Larissa Juliet, eds. ((006). Great Lives of History (1st ed.). Pasadena, California.

4-. Rowe, William T. ((009). China›s Last : mpire: The Great Qing. Cambridge, MA: Harvard University Press.

4-9 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.-) :-5.

4. 0 The previous reference

4. 1 Ibid

4. (A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.-6:--.

4.) The previous reference

4. 4 Ibid

4. 5 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.. (:. -.

4. 6 The previous reference

4. - Ibid

4. . Wei Yuan (1. 4.). 聖武記 [Sheng Wu Ji]. Military history of the Qing Dynasty, vol.4. (in Chinese). 計數十萬戶中，先痘死者十之四，繼竄入俄羅斯哈薩克者十之二，卒殲於大兵者十之三。[«Among the 100,000 households, 4 out of 10 died from the first pox, (out of 10 went into Russia Kazakh, and) out of 10 died in the army.»]

4. 9 Perdue, Peter C. ((005). China Marches West: The Qing Conquest of Central : urasia. Cambridge, Mass.; London, : ngland: Belknap Press of Harvard University Press. p. (. - .

490 Theobald, Ulrich ((01)). War Finance and Logistics in Late Imperial China: A Study of the Second Jinchuan Campaign (1- - 1 - 1- - 6). Leiden: Brill. p. (1.

491 Petech, Luciano (19-(). China and Tibet in the : arly Xviiith Century: History of the : stablishment of Chinese Protectorate in Tibet. Vol. 1 of T›oung pao, archives concernant l›histoire, les langues, la géographie, l›ethnographie et les arts de l›Asie orientale. Monographie (illustrated ed.). Leiden: Brill. p. (56.

49(A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.- . :. 0.

49) The previous reference

494 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.- 9:. 0.

495 The previous reference

496 Ibid

49- A History of China Book, China Construction Publishing House,

Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.. 0:. 1.

49. The previous reference

499 Spence، Jonathan ((01)). The Search for Modern China (ط. Third). New York: W. W. Norton. p. 111 - 11(.

500 Dai، Yingcong ((009). «Civilians Go into Battle: Hired Militias in the White Lotus War, 1-96 - 1. 05». Asia Major.)rd.

501 «digital china/harvard: Letter of Advice to Queen Victoria». cyber.harvard.edu.

50(«Opium Wars | Definition, Summary, Facts, & Causes | Britannica». www.britannica.com.

50) Steve Tsang, A modern history of Hong Kong ((00-) pp.) - 1) .

504 «The Mechanics of Opium Wars». The Australian Museum.

505 Tsang, Steve ((00-). A Modern History of Hong Kong: 1. 41 - 199- . I.B. Tauris. p. (9.

506 David, Saul ((00-). Victoria›s Wars: The Rise of : mpire. London: Penguin Books. pp.)60 -)61.

50- «Opium Wars». www.mtholyoke.edu.

50. Rallings, Colin; Thrasher, Michael, eds. ((000), British : lectoral Facts 1.)(- 1999, Ashgate

509 Hibbert, Christopher (19. .). The Dragon Wakes. Penguin Book. pp. (.) - (. 4

510 «: ncyclopedias and Dictionaries». : ncyclopædia Britannica. Vol. 1. (15th ed.). (00- . pp. (5- - (. 6.

511 Hsü, Immanuel C. Y. ((000). The Rise of Modern China. New York: Oxford University Press. p. (19.

51(Driscoll, Mark W. ((0(0). The Whites Are : nemies of Heaven: Climate Caucasianism and Asian : cological Protection. Duke University Press.

51) Chesneau, Jean. Peasant revolts in China, 1. 40 - 1949. Translated by CA Curwen. New York: W. W. Norton, 19-) . pp. ( ) - (4

514 White, Matthew. «Statistics of Wars, Oppressions and Atrocities of the Nineteenth Century».

515 Perry, : lizabeth J. (19. 0). Rebels and Revolutionaries in North China, 1. 45 - 1945. Stanford, California: Stanford University Press. pp. 14- - 149.

516 The previous reference. pp. 150, 151.

51- Jonathan Neiman Lipman ((004). Familiar Strangers: A History of Muslims in Northwest China. Seattle: University of Washington Press. p. 1) (.

51. James Hastings; John Alexander Selbie; Louis Herbert Gray (1916). : ncyclopædia of religion and ethics, Volume . . : DINBURGH: T. & T. Clark. p. . 9) .

519 Fairbank, John King (19. 0). The Cambridge History of China: Late Ch‘ing, 1. 00 - 1911, pt. (. Cambridge University Press. p. (1) .

5(0 Qian, Jingyuan ((014). «Too Far from Mecca, Too Close to Peking: The : thnic Violence and the Making of Chinese Muslim Identity, 1. (1 - 1. - 1». History Honors Projects. (- :) - .

5(1 Scott, J. George (1900), «i», GUBSS 1, Rangoon Government Printing. p. - 40

5((Kuhn, Phillip (19- 0). Rebellion and its : nemies in Late Imperial China: Militarization and Social Structure, 1- 96 - 1. 64. Harvard : ast Asian series. Vol. 49. Harvard University Press. Chapter 6.

5( ) Mary Clabaugh Wright (1969). The last stand of Chinese conservatism: the T‘ung - Chih restoration, 1. 6(- 1. - 4 ((nd ed.). Atheneum. p. vii.

5(4 Jonathan D. Spence, The search for modern China (1990). pp 194 - (15.

5(5 Kim, Samuel S. ((006). The Two Koreas and the Great Powers. Cambridge University Press. p. (.

5(6 Paine, S.C.M ((00)). The Sino - Japanese War of 1. 94 - 1. 95: Perceptions, Power, and Primacy. Cambridge University Press. p.) .

5(- Klein, Thoralf ((00.). «The Boxer War - the Boxer Uprising». Online : ncyclopedia of Mass Violence. p.) .

5(. Hevia, James L. «Looting and its discontents: Moral discourse and the plunder of Beijing, 1900 - 1901» in R. Bickers and R.G. Tiedemann (eds.), The Boxers, China, and the world Lanham, Maryland: Rowman & Littlefield Publishers, (009

5(9 Tong, William L. (196.). Political institutions in modern China. Springer Publishing. pp. 9(, 106.

5)0 A History of China Book, China Construction Publishing House, Beijing, The Great Wall of China Book Series, 19. 6.Part (pp.. 9:9) .

5)1 The previous reference

5)(Ibid

5)) Ibid

5)4 Ibid

5)5 Allen, B.J.؛ Mason, C.A. (1919). A Crusade of Compassion for the Healing of the Nations: A Study of Medical Missions for Women and Children. Central committee on the united study of foreign missions

5)6 : sherick, Joseph W.; Wei, C.X. George ((01)). China: How the : mpire Fell. New York: Routledge. p. 99.

5) - The previous reference p. . 9.

5) . : sherick, Joseph W.; Wei, C.X. George ((01)). China: How the : mpire Fell. New York: Routledge. p. 140 - 141.

5) 9 The previous reference. p. 141.

540 Bergère, Marie - Claire; Lloyd, Janet (199.). Sun Yat - senb. Stanford: Stanford University Press. p. (05.

541 The previous reference. p. (04.

54(: sherick, Joseph W.; Wei, C.X. George ((01)). China: How the : mpire Fell. New York: Routledge. p. 1. 4.

54) Bergère, Marie - Claire; Lloyd, Janet (199.). Sun Yat - senb. Stanford: Stanford University Press. p. (1. .

544 The previous reference. p. (09.

545 Boorman, Howard L. Howard, Richard C. Cheng, Joseph K.H. [19-0] (19-0). Biographical dictionary of Republican China, V.). Columbia University Press.

546 Welland, Sasah Su - ling. [(00-] ((00-). A Thousand miles of dreams: The journeys of two Chinese sisters. Rowman Littlefield Publishing. p.. -.

54- Li, Xiaoping. [(00-] ((00-). History of the modern Chinese army. University Press of Kentucky. pp. 1), (6 - (-.

54. Fu, Zhengyuan. [199)] (199)). Autocratic tradition and Chinese politics: Zhengyuan Fu. Cambridge University Press. p.154.

549 Fu, Zhengyuan. [199)] (199)). Autocratic tradition and Chinese politics. Cambridge University Press. pp.15) - 154.

550 Zhengyuan Fu. (1994) The Authoritarian Tradition and Chinese Politics, Cambridge University Press. pp. 15) - 154.

551 Pak, : dwin; Wah Leung ((005). : ssentials of Modern Chinese History. Research & : ducation Assoc. pp. 59 - 61.

55(Guillermaz, Jacques (19-(). A History of the Chinese Communist Party 19(1 - 1949. Taylor & Francis. pp. ((- ().

55) Fenby, Jonathan ((009). The Penguin History of Modern China: The Fall and Rise of a Great Power, 1. 50 - (00. . London: Penguin.

554 Min, Mao ((01-). China Revival, Volume I. Independent publishing platform CreateSpace. p. 1(6.

555 Kucha, Glenn; Llewellyn, Jennifer (1(September (019). «The Nanjing Decade». Alpha History.

556 Chen, Lifu; Ramon Hawley Myers (1994). Hsu - hsin Chang, Ramon Hawley Myers (ed.). The storm clouds clear over China: the memoir of Ch‘en Li - fu, 1900 - 199). Hoover Press. p. 10(.

55- Hershatter, G. ((01.). Women and China›s Revolutions. US: Rowman & Littlefield Publishers.
55. Jing Zhiren (荆知仁). 中华民国立宪史 (in Chinese). 联经出版公司.
559 Qi›an, Zhang (张启安), Cradle of the Republic: The Chinese Soviet Republic (共和国摇篮： 中华苏维埃共和国), Xi›an: Shaanxi People›s Press, (00)
560 Philip Jowett (November (0, (01)). The China Wars: Raising the Dragon 1. 94 - 1949. Bloomsbury Publishing. p. 109.
561 Kucha, Glenn; Llewellyn, Jennifer (1(September (019). «The Nanjing Decade». Alpha History.
56(Christian Tyler ((004). Wild West China: the taming of Xinjiang. New Brunswick, New Jersey: Rutgers University Press.p. 11(
56) Taylor, Jay ((009). The Generalissimo. Cambridge: Harvard University Press. pp. 1)6 -)-.
564 Fairbank, J.K.; Goldman, M. ((006). China: A New History ((nd ed.). Harvard University Press. p.)(0.
565 The previous reference
566 BBC/ World War Two: Summary Outline of Key : vents
56- Sino - British Treaty for the Relinquishment of : xtra - Territorial Rights in China
56. «The Moscow Declaration on general security». Yearbook of the

United Nations 1946 - 194- . Lake Success, NY: United Nations. 194- . p.) .

569 Hakim‹ Joy (1995). A History of Us: War, Peace and all that Jazz. New York: Oxford University Press.

5- 0 Jessup, John : . (19. 9). A Chronology of Conflict and Resolution, 1945 - 19. 5. New York: Greenwood Press.

5- 1 Brendan M. Howe ((016). Post - Conflict Development in : ast Asia. Routledge. p. - 1.

5- (Valentino, Benjamin A. Final solutions: mass killing and genocide in the twentieth century Cornell University Press. . December (005. p. . .

5-) Smith, Joseph; Davis, Simon ((005). The A to Z of the Cold War. A to Z guides. Vol. Historical dictionaries of war, revolution, and civil unrest volume . no. (. . Scarecrow Press.

5- 4 Smil, Vaclav (1. December 1999). «China›s great famine: 40 years later». BMJ: British Medical Journal.) 19 (- ((5): 1619 - 16(1.

5- 5 Lenman, Bruce; Anderson, Trevor; Marsden, Hilary, eds. ((000). Chambers Dictionary of World History. : dinburgh: Chambers. p. - 69.

5- 6 «Hua Guofeng, China›s transitional leader after Mao, dies at . - .» New York times. August (1, (00.

5- - Hart - Landsberg, Martin; Burkett, Paul ((010). China and Socialism: Market Reforms and Class Struggle. Monthly Review Press.

5- . Youngs, R. ((00( ). The : uropean Union and the Promotion of Democracy. Oxford University Press.

5- 9 Dube, Clayton ((014). «Talking Points, June) - 1. ». China.usc.edu.

5. 0 Miles, James A. R. (199-). The Legacy of Tiananmen: China in Disarray. University of Michigan Press. p. (. .

5. 1 Bodeen, Christopher () June (019). «Prosperity, repression mark China) 0 years after Tiananmen». AP News.

5. (Goodman, David S. G. (1994). Deng Xiaoping and the Chinese Revolution: A Political Biography. Psychology Press. p. 11(.

5.) «China›s Average : conomic Growth in 90s Ranked 1st in World». People›s Daily. 1 March (000.

5. 4 «China worried over pace of growth». BBC. Retrieved 16 April (006.

5. 5 «In Face of Rural Unrest, China Rolls Out Reforms». The Washington Post. (. January (006.

5. 6 Thomas, Antony (11 April (006). «Frontline: The Tank Man transcript». Frontline. PBS.

5. - BBC/ China and Taiwan: What is behind the conflict between them? October 11, (0(1

5. . The previous reference

5. 9 Ibid

590 Louis Joe (August 4, (00( ). «Taiwan independence». Digital Freedom Network.

591 WHO Director - General›s opening remarks at the media briefing on COVID - 19.» World Health Organization (WHO) (Press release).

59(: sherick, Joseph ((006). «How the Qing Became China». : mpire to Nation: Historical Perspectives on the Making of the Modern World. Rowman & Littlefield p. ( ) (- ( ))

59) Zarrow, Peter Gue ((01( ). After : mpire: The Conceptual Transformation of the Chinese State, 1. . 5 - 19(4. Stanford, California: Stanford University Press, p. 9) - 94

594 Denis Crispin Twitchett, Michael Loewe, John King Fairbank, The Ch›in and Han : mpires ((1 B.C. - A.D. ((0, p. (0.

595 China». Oxford : nglish Dictionary

596 «Countries of the world ordered by land area». Listofcountriesoftheworld.com.

59- «Population by Sex, Rate of Population Increase, Surface Area and Density» . Demographic Yearbook (005. UN Statistics Division.

59. «United States». : ncyclopedia Britannica.

599 CIA: The World Factbook, China

600 www.bbc.com/news/world - asia/Mt : verest grows by nearly a metre to

new height

60(Atlas of World History (199.) HarperCollins.

60) Hare, John (November 1, (009). «Secrets of the Gobi Desert.» Asian affairs. C. 40 p.) : 40. - 41- .

604 Sun, Jimin; Lou, Tungsten ((006). «The Age of the Taklimakan Desert». Science.) 1((5- . 0): 16(1.

605 Zhou Di, Yuan - Bo Liang, Ch'eng - k'uei Tseng, Oceanology of China Seas (1994), Volume (, p.) 45.

606 Pinxian Wang, Qianyu Li, Chun - Feng Li, Geology of the China Seas ((014), p. 66- .

60- www.worldatlas.com/ The Longest Rivers Of Asia.

60. www.chinatoday.com تشاينا توداي -

609 «China›s first population fall since 1961 creates ‹bleaker› outlook for country». the Guardian. 1- January (0( ) .

610 «World : conomic Outlook Database, October (0( ) : dition. (China)». International Monetary Fund. 10 October (0( ) .

611 «Main Data of the Seventh National Population Census». Stats.gov.cn.

61(«Chinese Religion | GRF». globalreligiousfutures.org.

61) www.bbc.com/ Facts about China

614 Chan, Tara Francis (((May (019). «As the U.S. Targets China›s

‹Concentration Camps›, Xinjiang›s Human Rights Crisis is Only Getting Worse». Newsweek.

615 Ramzy, Austin; Buckley, Chris (16 November (019). «›Absolutely No Mercy›: Leaked Files : xpose How China Organized Mass Detentions of Muslims». The New York Times.

616 «Statement by the Subcommittee on International Human Rights concerning the human rights situation of Uyghurs and other Turkic Muslims in Xinjiang, China». Subcommittee on International Human Rights (SDIR) of the Canadian House of Commons Standing Committee on Foreign Affairs and International Development. (1 October (0(0.

61- Water Demands of Coal - Fired Power Drying Up Northern China (5 March (01) Scientific American

61. «China›s forest coverage exceeds target ahead of schedule»

هوامش

(أ) حبوبٌ من الأنواع النباتية التي تُعتبر من أجناس الفصيلة النِّجيلية هيالثمام؛ وللدُّخن أسماء عربية أخرى مختلفة من مكان لمكان كالبشنة أو الجاوَرْس.

(ب) دُخن ذيل الثعلب من الأنواع النباتية من الفصيلة النجيلية، وهو أحد محاصيل الحبوب من مجموعة الدُّخن السابق ذِكْرها.

(ج) بالقرب من مدينة أنيانغ حاليًّا.

(د) مفهوم قوة السلطة لتطبيق القوانين بالقوة بشكل نظامي حتى لو اعترض المواطن، معتمدة على الإجراءات الموحدة وتوزيع المسئوليات بطريقة هرمية مخطط لها.

(ه) بالقرب من شيآن، شنشي حاليًّا.

(و) الأقنان هو مصطلح يُطلق على الذين كانوا ملزمين بالعمل في الأرض في المجتمعات الإقطاعية، فالقِن بمثابة عبد ولكن لهذه الأرض فقط؛ لا يجوز انتقال ملكيته إلا لمشترٍ جديد للأرض.

(ز) مصطلح صيني يُطلق على الأفراد المتداخلين في النَسَب أو العَشيرة وخاصةً المشتركين في (لقب الجد المؤسس)، غالبًا ما كانوا يتواجدون في مجموعات كبيرة في سكن مُتَوَارَث عن جدهم الأول.

(ح) جزء من مقاطعتي هوبي وهونان الآن.

(ط) نانجينغ حاليًّا.

(ي) جنوب محافظة تسوييِنغ الحالية.

(ك) داسوا حاليًا

(ل) بـقيرغيزستان حاليًّا.

(م) بالقرب من بكين الحديثة.

(ن) في شينشيانغ الحديثة، خنان.

(س) بـ كايفنغ حاليًّا.

(ع) بكين الحديثة

(ف) الهكتار وحدة مساحة تستخدم لقياس المساحات وتساوي ١٠,٠٠٠ متر مربع.

(ص) «البي» وحدة قياس في الصين القديمة، الواحدة تساوي ٣٣ م.

(ق) جنوب محافظة آنشنغ.

(ر) محافظة جياندە حاليًّا.

(ش) جمع: مغارة.

(ت) جنوب محافظة شانغتشيو، خنان حاليًّا.

(ث) هانغتشو، مقاطعة خنان حاليًّا.

(خ) جنوب محافظة شينهوي حاليًّا.
(ذ) هي الآلة التي تُستعمل في أعمال مسح الأرض؛ ولقياس الزوايا الصغيرة في الأفق.
(ض) في مقاطعة آنهوي حاليًّا.
(غ) محافظة بوشيان حاليًّا.
(ظ) محافظة شيوشيات حاليًا.
(أ) مدينة نانكين حاليًّا.
(ب) قرب الحدود مع روسيا حاليًّا.
(ج) متحف القصر الإمبراطوري حاليًّا.
(د) نناكين حاليًّا.
(ه) نيرتشينسك حاليًّا.
(و) جنوب شواطئ شيرامولون، مقاطعة لياونينغ حاليًّا.
(ز) هي نفسها أولانباتور عاصمة جمهورية منغوليا الشعبية بعد ذلك.
(ح) تحالف من قبائل المغول الغربية.
(ط) واحد من مقاييس الوزن العديدة المستخدمة في شرق آسيا وجنوب شرق آسيا، وهو جزء من نظام الأوزان في المعاملات الصينية، والجدير بالذكر، تم توحيد التايل الصيني إلى ٥٠ جرامًا في عام ١٩٥٩ م.
(ي) التي تشكل جزءًا من منشوريا الخارجية.
(ك) نانجينغ الحالية.
(ل) شيكانغ فيما بعد.
(م) أنواع مختلفة من الإنتاج الزراعي الذي يدير فيه العديد من المزارعين ممتلكاتهم كمشروع مشترك.
(أ) هي ملحمة من الملحمتين الكُبريين في التأريخ الهندوسي، والتي كُتبت بالسنسكريتية في الهند القديمة - وهي تُشكل جزءًا هامًّا من الميثولوجيا الهندوسية.
(س) مانو هو لقب الملك كالقيصر أو كسرى، وكان يُطلق على الملوك المؤلهين، وقد اعتقد الهنود القدماء أن سبعة من الملوك المؤلهين كانوا قد حكموا العالم في الماضي وأن الإله يراهم، وكرسالة للبشرية؛ أوحى الإله الأعظم إلى أول هؤلاء الملوك بهذا القانون، ثم نقل الملك أحكام هذا القانون إلى الكهنة الذين بدورهم دونوه في كتاب ضخم باللغة السنسكريتية.
(ع) كاتب وضابط برتغالي؛ خدم في الهند البرتغالية بين ١٥٠٠ و١٥١٧ م؛ وعمل كمترجم، له كتاب: «دوارتي باربوسا»، وهو أحد أقدم أمثلة أدب الرحلات البرتغالي، كتبه في عام ١٥١٦ م؛ بعد وقت قصير من وصوله المحيط الهندي.
(ف) هو مؤرخ وكاتب إيطالي صيني، (١٦١٤ في ترينتو في إيطاليا - ١٦٦١ في هانغتشو في

الصين).

(ص) رحالة ومستكشف وتاجر بندقي (١٢٥٤م - ١٣٢٤م)، يعتبر بجانب أبوه وعمه؛ من أوائل التجار الغربيين الذين سلكوا طريق الحرير إلى الصين - وكان صديقًا لـ «قوبلاي خان».

(ق) ظاهرة جيومورفولوجية (علم شكل الأرض)، تشمل نحو خُمس مساحة اليابسة من الأرض، تحدث في المناطق الجيرية التي تعمها الرطوبة، وبفعل ذلك تتكون هذه البنية من التآكل الكيميائي والهيدروغرافي للصخور الكربونية، وخاصة التكوينات الجيرية.

(ر) هي الصحاري قليلة الأمطار؛ والتي تقع غالبًا خلف حاجز جبلي، وفيها تكون الرياح فقدت الجزء الأكبر من حمولتها من بخار الماء فوق سفح الجبل المواجه الذي أعاقها.